

الأرستقراطيون
ميشيل دي سان بيير

- Author : Michel de Saint Pierre ♦ المؤلف: ميشيل دي سان بيير
- Title: Les Aristocrates ♦ العنوان: الأرستقراطيون
- Translated by: Saadia Sabry ♦ ترجمة: سعدية صبري
- Afaq's first edition: 2019 ♦ طبعة آفاق الأولى 2019
- Cover Design by: Amr El Kafrawy ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- General Manager: Mostafa Alsheikh ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٨ / ١٧٧٨١

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977 - 765 - 179 - 0

جميع الحقوق محفوظة؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

ميشيل دي سان بيير

الأرستقراطيون

رواية

ترجمة

سعدية صبري

مراجعة

أنور لوقا

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

دي سان بيير، ميشيل.
ميشيل دي سان بيير : الأرستقراطيون - ترجمة: سعدية صبري
ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019
368 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17781 / 2018
الترقيم الدولي 0 - 179 - 765 - 977 - 978
1 - الأدباء (روايات)
2 - دي سان بيير، ميشيل

أرستقراطي: من الكلمة الإغريقية
«أريستوس»؛ أي الأحسن.
(معجم لاروس).

[غير مجدٍ أن يمتد أصلي إليهم جميعاً؛ إنني
لو كتبت تاريخهم فسينحدرون هم مني].
(ألفريد دي فيني).

الاصراء

إلى صهريّ أهدي هذا الكتاب
الذي تم تحت سقف بيتهما.

تنبيه

كل تشابه بين أبطال هذه القصة
وبين أشخاص أحياء أو أموات،
هو تشابه عرضي محض
بما في ذلك أفراد أسرتي.

م.س.ب.

جدول لشجرة العائلة

أرتوس دي رميكور:

الذي يُدعى بتراشمور. اشترك في الحروب الصليبية سنة ١٢٤٨ مع الملك القديس لويس، دعا إلى المبارزة -في ساحة القتال أمام دمياط- عملاً من المسلمين وشقه بسيفه، فسقط شطرين على جانبي فرسه.

أرتوس السادس دي رميكور:

سليبه في الجيل العاشر، أصبح الكونت دي موبران إثر زواجه باليانور دي بورانج-موبران، وريثة أسرته.

ومن هذا النسب نتج في القرن الثامن عشر

أرتوس التاسع دي رميكور-بورانج: مركز دي موبران قائد عام قوات الملك، فارس من فرسان الروح القدس، ويُدعى إلى التشريفات الملكية، تزوج من هدفج ميشيه دي لابوبليير ابنة رجل المال الذائع الصيت، حامي الأدباء والعلماء، وملتزم عام. له سبعة أولاد (مات من بينهم خمسة في خدمة الملك) وابنة واحدة.



↓	↓	↓
جاسبار دين دي	ماتيلد دي مويران:	أرتوس (الثاني عشر) لوي-أوزمون
فيرلويزان: تزوجت من	تزوجت دون أن تنجب	دي ر.ب ماركيز دي مويران: قائد
لوسيان دي برونفيليه	أطفال من بودوفيك	الخيالة المستقل، جوقة الشرف برتبة
مكتشف قطبي اختفى	كونت دي جران بريه	فارس عمدة هوبران تزوج من فيليسيه
في إحدى رحلاته إلى	قائد كتيبة من الفرسان	دي لا لاندبوتون ابنة كولونيل الفرسان
جرينلاندا.	المدرعين قتله الأعداء.	المدرعين بطل ريشوفين.

↓	↓	↓
ماتيلد دي برونفيليه	جون دي ر.ب ماركيز دي مويران:	أرتوس (الثالث عشر سيزاردي-
أرملة ليون دي فوسي	وسام	ر.ب ماركيز دي مويران توفي دون
بارون دي لاسيرنيير،	جوقة الشرف برتبة ضابط، وسام	سلالة): تزوج من كوريزاند دي
ليس لها أولاد.	الحرب إلخ، أرمل آن موسكيه	جوابيز، التي تزوجت للمرة الثانية
	دي أودنا الابنة الكبرى لدوق أودنا	من جايتان دون بوتفيل.
	الأخير وابنة حفيد مارشال فرنسا،	
	وشقيقته مدام دي لوانتران.	

↓				
أرتوس	فيليب: ويُدعى	إدوارد:	مرجريت:	أوزمون ولوي
جونتران:	«الأب» من	ويُدعى «الدمية	وُُدعى ديزي.	سيزار: توأم.
وُُدعى بالتركي.	اليسوعيين.	المشنوقة».		

الفصل الأول

كان التوأم قد وضعاً لتوّهما صاروخاً داخل حجرة الملك. وكان هذا الصاروخ قويًا ومزوّدًا بمفجر خاص، عبارة عن جهاز ذي بكرة، يخرج منه سلك معدني طويل، يمتد من الصاروخ حتى الخندق المحيط بالقصر، عبر إحدى نوافذ الحجرة، أما القذيفة نفسها فكانت مخبأة خلف صورة تمثّل السيد «بيتولون» أول رئيس للبرلمان البرجوني، وعلى رأسه الشعر المستعار.

وهمس أحد أحدهما، وكان يُدعى لوي سيزار.

- إنه أشعر!

- مضبوط!

وردد الآخر أوزموند بصوت متوسط: مضبوط جدًّا!

كان عمرهما خمس عشرة سنة، وكان كل منهما يرتدي سروالاً قصيرًا أزرق، وقميصًا بني اللون، وكانا متوسطي القامة، أشقرين، نحيفين، مليئين حيوية، وفي غاية من القذارة، حافي القدمين، يمسكان في أيديهما بنعلين ليس لهما شكل ولا لون، وقفّا أمام الصورة يتأملان في رضا أنف السيد «بيتولون» المفرطحة، وعينيه الجامدتين جمود أعين القضاة وفمه النهم.

كان لباس التشريفة المثبت تحت ياقة الرئيس الصغيرة المصنوعة من (الدنتلا) يكاد يخفي السترة الضيقة الكمين، المصنوعين من نسيج الكتان.

لقد كان هذا الرجل عريق المنبت، حسن التربية والملابس.

وقال أحد التوأم موجهاً الكلام إلى السيد «بيتولون».

كل شيء على ما يرام، أليس كذلك يا صاحبي البدين؟

لم يكن أحد يستطيع أن يفكر في وجود الصاروخ، وكان السلك المعدني يسري، غير مرئي، فوق الستائر بين اللوحة والنافذة. وكانت الأبهة واضحة في جميع أرجاء حجرة الملك: على الأرض سجاد الـ«سافونيري» وعلى الجدران لوحات النسيج الـ«فلامندي» المطرز بالأوراق الخضراء التي تمتزج بها حمرة خفيفة فتنضرها، أما السرير فمربع كبير ذو روق (بلدكان) من الحرير الدمشقي الأصفر، كما كان الأثاث بديعاً، أجمله (تسريحة) من القرن الثامن عشر ذات أرجل دقيقة هشة ونافرة كتييس الجبل.

وسأل لوي سيزار أخاه وهو يداعب في قلق بأصبع قدمه السجادة

الفاخرة:

– ألا تظن أن الخالة ماتيلد ستموت من ذلك؟

فأجابه أوزمون: «لا تشغل بالك بهذه الأشياء! سنجذب السلك من

الخندق قبل منتصف الليل بخمس دقائق».

– وهو كذلك...

كان المساء قد بدأ ينسج خيوط أمسية من أمسيات شهر يوليو تنبئ عن ليلةٍ تحفل فيها السماء بالنجوم، فترك التوأم الحجرة مشيًا على أطراف أصابعهما، ونزلا إلى المطبخ. كان المكان واسعًا ومهيأً، تسري منه رائحة البط المطهو بعيش الغراب. وكان سُمك الحوايط التي تطل على الخندق من ناحية الشرق، يبلغ ستة أمتار ونصفًا غير أنه كان مما يشير البهجة كثيرًا في نفس التوأم، منظر البط وهو ينضج في الزبد وبداخله الكبد، وشرائح الخنزير، وفئات الخبز والبصل... وفوق منضدة، وفي سلالها الصغيرة كانت تغفو زجاجات من نبيذ «الميرسولت كوت دور» تعبئة سنة ١٩٤٧ سيحتسونها مع السمك، وعدد كبير من قنينات نبيذ «البون بريساند» الحربية ذلك النبيذ الذي جعل خصيصًا لـصاحب أكل البط، أو يوضع فوقه. أما الجبن فسيصاحبه أرق مشروب؛ ألا وهو نبيذ «شامبول موزيني» المرقوم «بون مار» تعبئة سنة ١٩٣٧، وقد جاءت به مزرعة للكروم، تشهد أنوف العارفين بأنها أطيب كروم في منطقة «الكوت دي نوى» وفي الواقع كانت كل هذه الترتيبات الاستثنائية معدة للاحتفال بمناسبة فريدة على مدار السنة، هي افتتاح موسم صيد الحيوانات المائية.

كان الموقد القديم العتيق ينفث حرارته ويلقي أضواء في حمرة الشياطين فوق صف من الأواني النحاسية، فتبدو تلك وهي في لون الشمس الغاربة. وكانت الطاهية البدينة «فيليسي» تطنّ كالنحلة من شدة الضجر، فهي لا تحب على حد تعبيرها أن يضايقها التوأم في مثل هذا الوقت الحرج. وعلى الحوايط المسودة بعض الشيء، كانت هناك لوحة

للملك «لوي لبيون» نُقِشت تحتها هذه العبارة «دوق من البلد الطيب
برجونيا أبعد صيتاً وأكبر شهرةً من أي شخص آخر حيث يكثر النبيذ».

وصرخت فيليسي التي كانت تخشى منهما المزيد من الشر:

- سيدي أوزمون، سيدي لوي سيزار، هل لكما أن تذهبا!

وكانت على حق، فإن أوزمون قد خبأ الآن في سرواله زجاجة من
نبيذ الشامبول موزيني التي سيفتقدها القوم على المائدة عندما يطلبونها
عما قليل. ولكن لا عليهما، فقد أقبل الليل، وكانا في فراغ العطلة.

وتسلل التوأم تسلل اللصوص، وصعدا إلى برج «برونهو» فقد
كانا سيدي هذه الإمبراطورية الهرمة المهدمة. وكان البرج فسيحاً
يتسع لإيواء مئات من التوائم، به طنف بارز يمتد في الخندق المليء
بالماء، وسط الضفادع التي يجعلها هذا التدخل في حماها تنق بشدة
وهوس. وكانت تيارات الهواء التي تعرف سرها الأحجار العتيقة،
تتخلل برج «برونهو» الذي يشمخ مكتنزاً بسوره ذي الثغور على
الريف البرجوني.

هناك كانت حجرة التوأم المشتركة ذات الحوائط المتصدعة
والسجاد الممزق، حيث حشد والدهما المركيز دي مويران قطع
الأثاث التي من طراز لويس فيليب وصور بيته الدينية الملونة. وفي
هذه الحجرة، كان لوي سيزار وأوزمون ينامان على سريرين من حديد،
متشابھين أسبرطيين.

قال أحدهما وهو يفتح زجاجة «الشامبول موزيني»:

- إن والدي سيرغي ويزبد.

وأجاب الآخر:

- بعد فوات الأوان.

لقد جلسا فوق السجادة على طريقة الخياط الشرقي... وأمامهما لوحة للسيدة العذراء من رسم الفنان الإسباني ميريللو تتلأأ بأهلتها وملائكتها الصغيرة المتوردة السمان كخنازير صغيرة في الهلام. وانتهاكًا للمقدسات شربا الزجاجاة من فوهتها رأسًا، غير أن نبيذ «موزيني» لم يكن لذلك أقل لذة أو توهجًا.

ونزل التوأم إلى قاعة الاستقبال في حوالي التاسعة مساء، حيث وجدا الخالة ماتيلد فوسيه دي لاسيرنيير تجلس على كرسي من طراز لويس الثالث عشر الذي يتميز بكونه أكثر الكراسي إتعبًا وإقلالًا للراحة. لقد قيل عن الخالة ماتيلد أنها عندما اقتربت من سن الخمسين -وكان ذلك منذ زمن بعيد- ترددت بين أن تأخذ سمت المرأة الأرملة أي أن يبقى شعرها رماديًا، وأن تلبس نظارات مضي طرازها (موضتها) وتربط شريطًا من القטיפه السوداء حول رقبتها وترتدي ثيابًا لا تلائم العصر أو الموسم، وبين أن تظهر بمظهر المرأة الحديثة. وأخيرًا قادتها الرغبة الأصلية في الكيد لحمايتها للمرأة الأخيرة إلى الانحياز إلى جانب الحديث، فارتدت (تايرات) أنيقة، كان يلمع فوقها وسام جوقة الشرف والميدالية الذهبية لمكافحة الأوبئة، وصبغت شعرها بلون أصهب فاتح، كان يبعث الألم في نفوس صديقاتها. ولبست نظارات أمريكية كانت تغير إطاراتها كما يبدل رجل متأنق أربطة عنقه.

هذه المرأة البطلة القوية الشكية، لم تكن طيبة القلب. وكان
المركز دي مويران، ابن عمها، يقول دائماً أنه يفضل الموت على أن
تقوم هي بتمريره، أيام كانت تعمل في الجبهة سنة ١٩١٧؛ مؤملة
الحصول على الميدالية الذهبية الشهيرة. والسيد مويران لا يفتأ يضيف:
- يوجد أناس هكذا... إن ماتيلد تهوي تمرير الآخرين، ولكني
على يقين من أنها لا تتمنى لهم الشفاء.

وأما الآن فإن مدام «دي لاسيرنير» التي طالما استهانت بحياتها
مجازفة منذ خمس وثلاثين سنة مضت، تحاول في إصرار غريب أن
تمد في تلك الحياة. وكانت عيناها الرماديتان خلف نظارتها ذات الإطار
المصطف، ترسلان بريقاً كبيراً المعدن ولا تطرفان أبداً، ومن فمها
المرسوم بإتقان -الذي تغلب فيه الدقة على شفتين لم يكد يصيهما
الذبول- كثيراً ما كانت تتساقط كلمات مروعة، وفي الوقت نفسه تظل
لهجته هادئة ذات إيقاع. وفي قصر مويران، حيث كان يستقبلها ابن
عمها ما طاب لها الإلمام به، كانت هذه السيدة العجوز تستمتع بلذة
وحشية من أنها تحيا حتى الثانية والثمانين، وأنها دفنت جميع المحيطين
بها. ولما كانت الحياة الاجتماعية تستهويها بقدر ما يستهويها الهدوء،
فهي تقيم أحياناً في عزلة غنية بالذكريات المتجددة، تقض فيها مضجع
موتها الآمنين.

وكانت عندما يفاجئها التوأم المتجولان لا تفارقهما عيناها أبداً،
وتظل قلقة فزعة، والشابان يحومان حولها، ويتقابلان، ويزعجانها،
ويبددان من حولها السكون الملهم العزيز، بل وكانا أحياناً يفتحان

المذياع كالصنبور، فيخرج منه صخب موسيقى الجاز أو جؤار ايف مونتان المنغم. وحينئذ تأخذ مدام «دي لاسيرنيير» في تأنيب التوأم بصوتها الذي يشبه صوت «التشلو» المرتخي الأوتار.

ولكن في تلك الأمسية كان أوزموند ولوي سيزار يبدوان مسرفين في الهدوء تقريباً. وكانا يرتديان لباس السهرة العجيب الذي حتم عليهما السيد دي موبران ارتدائه، وهو نوع من السموكنج خاطئه في عجلة حائكة القرية، مع قميص أبيض هفهاف ورباط عنق أسود من طراز (البايون). كانا قد صففا شعرهما جيداً ومزهوين بذلك الشعر الأشقر المبتل المفروق على جانب، يلبسان حذاءين من الجلد اللماع الأسود يبصقان فوقه لتلميعه، وعليهما ما يكفي من سيماء الفخار. ولقد أقلق هدوءهما هذا وحسن هندامهما السيدة العجوز التي كانت لها حاسة شم كلاب الصيد، فقالت لهما - بصوت به رجفة ضئيلة - الجملة المعهودة:

- أوزمون، لوي سيزار، ماذا تطبخان في هدوء؟!

فأجاباها وأعينهما مليئة بالبراءة، ولكنها براءة مشكوك فيها:

- لا شيء أيتها الخالة ماتيلد؛ ما هذا؟

وأخرج أحدهما من جيبه مجموعة ورق (كوتشينة) ملطخة لزجة ذات لون غير معروف؛ ثم بدأ يلعبان دوراً على مائدة البريدج.

وبدأ اللعب هادئاً كلحن من ألحان موزار؛ فكان التوأم يتبادلان في همس وضع الورق؛ (يفنطانه) برقة؛ ويتنافسان بمهارة؛ ثم حمي

اللعب وانفجر النقاش حول نقطة معينة بكلمات مدوية فصاح لوي سيزار:

- اخرس!

وانتزع هذا الصراخ طمأنينة الخالة ماتيلد فانتفضت واقفة ولم تقل شيئاً. ولكن كانت أبخرة «الشامبول موزيني» قد لعبت برأسي التوأم الشقراوين فكانا يكتشفان بسهولة الورقة الخاسرة، ويلعبان أدواراً تتسم بالإثارة، يغشان بمهارة كمهارة خالعي الضروس. وأخذ الصوت يرتفع تدريجياً وقال أوزمون ساخرًا:

- إن السيد يتفضل بإتحافنا أحياناً بخير ما لديه!

ولعب لوي سيزار، فألقى ورقة أحدثت صفيراً، وبقبضة يده ضرب المائدة بشدة، وقال:

- إنني أغرق بها السفينة!

وكان ذلك بداية الانهيار، قدم لوي سيزار، وهو مغتاظ، إلى أخيه ورقة من فئة خمسين فرنكاً في قيمة الرهان، ولكن جور الحظ مضافاً إليه مفعول النيذ جعلاه يلقي بهذه الورقة في وجه أخيه الراح - ويقول:

- خذ أيها الديوث!

وفي هذه المرة، غرست العمة ماتيلد الإبرة في التطريز، وبحركة عصبية خلعت نظارتها الأمريكية، وقالت بصوتها المنغوم:

- حسناً أيها الصغار، سأقول هذا لوالدكما.

وفي الخارج أعلن صوتُ هواءِ المحركات وصفق أبواب السيارات

عودة الصيادين. وهروا التوأم. كان هناك أشخاص ملوثون بالوحل؛ يرتدون ملابس للصيد ممزقة، ويتعلون أحذية طويلة مخصصة للمستنقعات تصعد حتى بطونهم، وعلى رؤوسهم قبعات بأشكالها المختلطة ولونها كلون عش الغراب المتعفن، يغزون البهو الكبير. ووسط هؤلاء جميعاً برز في عناء رجلان في الخمسين من عمرهما، وثلاثة آخرون أقل سنّاً تبدو عليهم الشجاعة ومثانة البنية، وفتاة سمراء نحيلة؛ وأخرى شقراء جميلة، وكاهن:

- أيها التوأم اذهبا لتريا القائمة، وعدّا لنا القطع. وبعد ذلك أحضرا لي دفتر الصيد.

- سمعاً وطاعة أيها الوالد.

كان الذي أعطى الأمر هو السيد دي موبران نفسه، وهو في حوالي الخمسين من عمره ذو شارب مشذب وشعر بني قصير جداً، وأنف محدب؛ وعينين سوداوين نفاذتين، وحاجبين كثيفين. كان المركيز أنيقاً متوسط القامة عليه سيماء السيد العظيم، وأسرع أوزمون ولوي سيزار إلى الخارج ليس لمجرد الطاعة؛ ولكن لإشباع فضولهما، وألقى إليهما السيد دي موبران بتنبه أخير:

- ولا تنسيا المتنوعات.

والمتنوعات هذه هي الطيور التي لا يمكن اعتبارها صيداً كريماً، تلك الطيور الحقيبة التي يفضل الصيادون بتشريفها بطلقة بندقية في آونة فراغ أو تمرين. وكان المركيز يهتم كثيراً بهذه المتنوعات، ويودعها بحرص الواحدة تلو الأخرى معرفة بأسمائها في دفتر الصيد،

حيث تستجد كل سنة عصافير صغيرة تحمل أسماء لاتينية من غربان البين، والغربان العادية، والطيور الجوارح، ومالك الحزين، وطغمة من حضرات المغمورات ذوات الأجنحة الباهتة والعداءات المشبوهة واللحم غير ذي اللون أو الرائحة أو الطعم.

وعرف التوأم قدر ما بالقائمة المحترمة؛ لأن صيد الطيور المائية هو وحده الذي يُزاوّل شهر يوليو: حوالي خمس عشرة بطة، وعدداً من بط الماء وطيّر الجريب وبط الجيدل واثنين من طير «الكرمورون» ذي الأرجل الضخمة التي جاءت من محيط جبار لتموت دون مجد في بركة مويران في نهاية رحلة قطعت فيها آلاف الكيلومترات. وفي سرعة أخذ الولدان المتمرسان يرتبان الطيور؛ كلّ حسب درجة أصالته، ثم حجمه. السيفلير والكلفير الرائعة السمينة، والألبران التي يشبه ريشها المخمل في نعومة ملمسه، وبط الماء الصغير ذو الجبهة الزرقاء، هؤلاء جميعاً كان لهم شرف الصدارة، وأبدى لوي سيزار وأوزمون بتحفظ احترامهما نحو الحدأة السوداء التي لن ترفرف بعد اليوم فوق البرك كالروح اللعينة، وفردا جناحيها الكبيرين الداميين وثبتها في الأرض بمسمارين، فتبينا أن ملاك الجحيم هذا يبلغ طول ما بين جناحيه متراً ونصف المتر.

وفي سرعة، بدل الصيادون ملابسهم، يدفعهم إلى ذلك الجوع والعطش، فظهر الرجال في حلل «السموكنج» والشابات في أثواب السهرة، أما ثوب الكاهن -المتوسط القدم- فكان يلمع كأنه من الأطلس الأسود.

وكانت الخالة ماتيلد جالسة تهوّم في كرسيها الكبير أما السيد

دي موبران، فكان يرتدي حلة سموكنج قديمة الطراز وصديرياً أحمر
ذا ورد أزرق ويتعل أخفاً جليّة، ويقف على السلم مبتهجاً غاية في
الإشراق، يتأمل بإعجاب وهو منفرج الساقين قائمة الطيور، ويرجو من
الآخرين أن يعجبوا بها معه، وبجانبه وقف زميله وجاره السيد دي بارفي
دي تروازي يدخن ويجادله في عادات غراب الشوكا. كان بارفي قصير
القامة مستديرها، وكان كذلك عالماً ممتازاً من المتخصصين في دراسة
الطيور ومراسلاً للمجلات المهمة بهذا العلم مثل: «صديق الكرفيديه»،
و«الودا» و«معرفة الطيور ذات الأصابع المتصلة بجلد رقيق».

قال السيد بارفي:

- هل تعرف أن الصلات الاجتماعية للشوكا فيما بينها صلات
راقية بشكل خارق للعادة؟ فهي أرقى في العادات من بعض الأجناس
البشرية. فالشوكا في غاية الحساسية بالنسبة لصيحة الخطر ولشدة
حذرهما تطير بغاية السهولة. وتشرط فيمن يطلق هذا الإنذار أن يكون
مسناً. أما إذا كان الطير المنذر شاباً لم تجرب بعد كفايته، فإن الجماعة
لن تطير.

وأجاب المركز كعادته وهو يضع إبهاميه في ثنايا صديريته ويربت
على بطنه:

- كل هذا فيه جدال.

وسأله بارفي وقد أخذت تشتد لهجته:

- فيه جدال، كيف هذا؟ إن آلاف الملاحظات...

ولكن السيد دي موبران قاطعه قائلاً:

- على أي حال، فإن الشوكا التي تتحدث عنها ليست في جملتها سوى أغربة قبيحة الشكل حمر المناكير.

كان بارفي لا يحب المداعبة في موضوع علم الطيور، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بطيور «ساحل الذهب». فيقول محتدّاً وقد توهجت خدوده السمينة حمرة:

- إنني في سبيل كتابة مقال عن هذه «الغربان القبيحة الشكل» يا جوان، وعندما ستقرؤه ربما تعرف لأي مدى هذه الفصيلة من الغربان الكبيرة الحجم.

- لا يا سيدي الشيخ، لا... إن مسألتك هذه ليس بها أي شذوذ، إنما فقط أنت تنقاد لعواطفك... وإنني لأستطيع أن أذكر لك -وفوق بركنا فقط- عشرين نوعاً أكثر دهاء من هذه الشوكا التي تتحدث عنها.

وفي هذه المرة انفجر السيد «دي بارفي تروازي» قائلاً:

- فلتذكرها بالله عليك، اذكرها لي!

وهنا تكلم السيد دي موبران -الذي كان قد قام بكل ما يمكن عمله ليوصل زميله إلى هذه الدرجة من الانفعال- بلهجة أكثر حزمًا وبعدم ثقة تشير الإعجاب:

- أرجوك ألا تقسم هنا يا بارفي، ولو من أجل خاطر الأب القسيس، وارتفع صوت أوزمون قائلاً:

إن الخالة ماتيلد تقول لك إنها جائعة يا والدي.

قال المريكز:

- جائعة؟ يا إلهي، ونحن كذلك!

- والخالة كوريزاند وصلت لتوها إلى صالة الاستقبال، وأظن أنها أيضًا أكثر جوعًا.

- حسنًا... هذا شيء جميل جدًا... فالكل جوعان.

وانتقلوا إلى قاعة الاستقبال .. كانت القاعة شديدة الاتساع، وكان من الصعب على مصباحين أو ثلاثة مصابيح أن تبديد الظلال التي تحوم في أركان الحوائط أو تثبت على الورق المنقوش الذي يغطيها. وكان أثاثها الملكي يفرض على مظهرها جماله الهادئ، فالمكاتب والدواليب من الخشب المشغول والمطعم والمقاعد الكبيرة من طراز لويس الخامس عشر مكسوة بنسيج «الأوبسيون»، وعلى الحوائط عدة لوحات؛ اثنتان منها بريشة «ناتيه»، وواحدة للبرج بأقلام الباستيل، وأخرى للويس الرابع عشر متدثر الرأس بالشعر المستعار، بريشة أحد تلاميذ «ريجو» ومقعدان فقط من طراز لويس الثالث عشر مستقيمان شديدان كمرسوم من مراسيم «ريشليو» يعكسان خيالهما ذا الخطوط المتعبة الصارمة. وكانت الخالة كوريزاند والخالة ماتيلد تحتلانهما.

كانت الخالة كوريزاند بزواجها الأول زوجة لأخي موبران، وفي المرة الثانية تزوجت «بوتفيل» ورضيت بذلك. وكان كل ما فيها ينم عن الطيبة والرفاهية، وحب الحياة والتسامح العظيم. كانت ذات وجه ممتلئ مورّد، وكانت السمنة التي بأسفل خدودها وذقنها حسنة المنظر، كذلك كانت ذات أنف مستقيم وحواجب بديعة الرسم، وملامح نبيلة

مطبوعة بطابع العظمة الخيرة التي تكاد تنساب منها انسيابًا - وكانت ترتدي ملابس فاخرة ذات فتحة واسعة جدًا تكشف عن صدر ناضج جميل - لم يكن غير ذي مزية على الرغم من بلوغها سن السبعين. وكان بارفي يلقب الخالة كوريزاند بينبوع الخير.

وقال بول رئيس الخدم «المتردوتيل» وهو ينحني كجذع الشجرة العابسة:

- تفضل يا سيدي المركز.

وساعدت ديزي دي مويران السمرء وصديقتها جان دوبريه الشقراء السيدتين المستتين على النهوض، ثم انتقل الجميع إلى المائدة، مارّين بقاعة صغيرة للموسيقى من طراز عصر النهضة، آية في الفخامة، سقفها مطلي باللون الأزرق الذي يذكر الناظر بثياب «فرانجيليكو»، ثم بصالة لللياردو، تمتلئ حيطانها بصور الأجداد أصحاب الشوارب الضخمة. وكان خشب الأرضية البالي يئن تحت أقدامهم.

* * *

وقبيل منتصف الليل بخمس دقائق، كان أوزمون ولوي سيزار داخل قارب في الخندق، أرسياه عند أسفل برج الشمال، وفي ليل الصيف تتلألأ كالشلالات الدافقة نجوم السماء، وتنق مئات الضفادع على حافة الماء العفن، محدثةً ضوضاء كضوضاء القرون الوسطى.

ودقت ساعة البرج الرئيس اثنتي عشرة دقة، وأمسك أوزمون بالسلك المعدني المعلق بالقرب من يده وجذبه بعنف، وانتقلت الهزة

إلى المفجر الخاص على طول حوائط الحجرة المغطاة بالكريتون
- حجرة الملك - التي كانت تقطنها الخالة ماتيلد.



الفصل الثاني

ثلاث بطات مائية على الأقل، كانت قد فُقدت عشية أمس، اثنتان منهما أضاعهما المركيز بآخر طلقتين من بندقيته بعيدًا إلى الأمام خلال الظلال التي تُغرق البركة أثناء اللحظات الخاطفة لمرور تلك البطات، فإنها تطير بسرعة مذهلة تبلغ حوالي مائة وخمسين كيلو مترًا في الساعة. وظن موبران أنه لا يمكن أن يكون قد أخطأهما، ولكن حتى لو كان قد أصابهما أثناء طيرانهما بهذه السرعة بإصابات مميتة، فإنهما لا بد قد انتقلتا بعيدًا، ولم تسقطا إلاَّ حول الزيزفون المتكور بالتحديد عند رأس الغابة «سلفي» التي تحيط بالبركة.

وفي الخامسة صباحًا ركب المركيز سيارته الجيب، ثم أخرج من المرقد، كلب الصيد (الذي كان يطلق عليه لسبب غير معروف) «كانجورو»، وعبر القرية الناعسة وهو يقرع بسيارته تلك، واتجه صوب بركة موبران الكبيرة. كانت نوعًا من البحيرات التي يحيط بها الحسك الأحجن وغابات حزينة تكسو مساحة تبلغ عشرين هكتارًا تعيش في مياهها الأسماك، وقاعها من الطين، وتحف بها أيضًا جماعات كثيفة من الغاب المختلج ترتادها حيوانات الصيد المائية والطيور البحرية الصغيرة الصاخبة.

كان الضباب ما زال يحوم فوق البركة عندما بلغها السيد دي موبران.
وكانت شمس في لون النحاس تبدو وكأنما هي تولد وسط الخيزران،
والهواء يهب في نفحات رطبية، والأفق تكسوه بعض الغيوم. كانت
السماء في جميع أرجائها تخلط سائلاً ذهبياً بزرقة خفيفة، وبخضرة
فيروزية باهتة، وأطراف بنفسجية، وكل ذلك يمتد في وحدة وسكون.
وحل المركيز وثاق كلب الصيد، وأمسك ببندقته محشوة، كان
البط يتصايح وسط الغاب وانطلقت تطير من بينه في ثقل بطة قائمة من
نوع «الجيدل».

وغير بعيد من الزيزفون المتكور، وجد السيد دي موبران البطتين
متقلصتين بديعتين، لقد سقطتا في دغل من الشوك وظللتا تتخبطان فيه
حتى الموت، ثم بقيت أجنحتهما بعد ذلك مبسوطة نتيجة الجهد الذي
بذلته. أما بارفي الذي لم تكن مهارته في التصوير تمكنه من إسقاط
ولو واحدة منها. فكان يسمي تلك الطيور ببساطة «أناس كوير كويديلا»
يا له من بارفي ملعون!

كان المركيز يضحك في صمت، وهو يزن بيديه البطتين الخفيفتين،
ناظرًا في إعجاب إلى الزرقة اللامعة التي بأجنحتها، وإلى بطنيهما
الناصعين اللذين تشوبهما حمرة الدم، فيبدوان كالفجر عند طلوعه.

* * *

فتحت جان ديبربه عينيها حوالي الساعة الثامنة صباحًا، في سريرها
الكبير ذي الروق (بلدكان) إنها تمتاز بالنضارة عند الاستيقاظ من النوم،
كان شعرها الأشقر غزيرًا حولها كهجير الصيف حول ينبوع من المياه.

وتشاءبت. كان الجو صحوًا، وظهر أعلى جذعها من بين ثنايا الفراش، ثم استدارت بعنقها قليلًا لترى وجهها في مرآة التسيريحة، إن ضياء الشمس تدخل من النافذة المفتوحة بغزارة فتنسج العناكب بيوتها في أشعتها وكانت جان قد خلعت منامتها (بيجامتها) أثناء الليل لشدة الحر، وكم كان سرورها عظيمًا عندما رأت لون بشرتها النحاسي، ولكنها وجدت أن صدرها صغير جدًا، وفجأة بحركة حياء غريزية، وعلى الرغم من أنها بمفردها رفعت جان الغطاء حتى ذقنها. كانت هنالك أفكار تتصاعد متسكعة في رأسها كما يتصاعد الدخان في شكل لولبي:

- توجد براغيث في موبران، وهذا بسبب تلك المجموعة من الكلاب؛ إن برقبتي بالطبع لدغة برغوث، فإذا ارتديت قميصي الأبيض فسأكون مخيفة، يجب أن ألبس ثوبي الأحمر فإن فتحته أضيق. لست أدري إن كان هذا سيعجب الشبان، ولكن الأمرين عندي سيان. إن الأب فيليب لطيف. وإنه لمن الغريب أن أفكر أول ما أفكر في الكاهن، كان من الواجب أن أناديه «بأبي»، إنني لأتساءل لماذا اختار هذا لنفسه أن يكون أبًا يسوعيًا؟ إن «إدوارد» شارد ومشتت البال. حقيقة إنه شيء يضايق أنني لا أستطيع ارتداء قميصي اليوم. إنه لمما يريحني أن أكون خفيفة الملبس بعض الشيء. النهاية! ويجب أن أنظم حواجبي هذه المعوجة. إن إدوارد لا يكف عن إلقاء أشعار بلا مناسبة، ويبقى مفتوح الفم كالمهرج الذي يريد أن يتلع القمر، ثم يقول وهو يدندن ثلاثة أو أربعة أبيات غير مفهومة المعنى. يا له من شخص غريب... إن جونتران

يعجبني أكثر، إنه يبدو لي أكثر رجولة. والعجيب أنه في الثانية والثلاثين فقط! إنه يشبه أباه، ولكنه أطول وأنحف.

ثم عادت جان إلى النعاس وهي مملوءة بسعادة مبهمّة فاترة.

* * *

وأقام الأب فيليب دي موبران الذي كان قد قرر ألا ينام حتى الضحى -قداسه في كنيسة القصر في الساعة الثامنة والنصف. لقد كان يود أن يقوم التوأم على خدمته، ولكنهما أبيا ذلك، وأضافا قائلين لكي يُثيرا غضب شقيقهما إنهما لا يؤمنان بالله، وإنهما في الواقع يرتكب كلاهما الخطيئة مع ابنة أخ خادم الكنيسة أتعرفها أيها الكاهن؟ إنها فتاة ما زالت ترسل صفائرها فوق ظهرها؟ إننا لمن الهالكين...

إذن فلن يشهد التوأم القداس؛ واستعان فيليب باثنين من أروع الشمامسة، أحدهما يرتدي ملابس بنفسجية، والآخر ملابس حمراء. كانا يضيفان إلى اللغة اللاتينية الطقوسية مقاطع من اختراعهما، ويتلوان كل ذلك بلهجة بورجونية ماهرة، ولم يطلب جناب الأب «تايان» قس القرية إلا أن يتكرم فيليب دي موبران بأن يعاونه في صلوات يوم الأحد. ولكن الأب دي موبران كان يتذوق دون ندم لذة إنسانية بعض الشيء في أن يقوم بقداسه في كنيسة القصر؛ في هذا المكان العميق الدائري الذي تحوطه الأحجار الضخمة فيبدو كالبئر العتيقة؛ هذا المكان الذي طالما راودته الأحلام فيه، وهو ما زال طفلاً صغيراً، كانت الكلمات الأبدية فيه ذات دوي موعلي في القدم، وتبدو في الوقت نفسه وكأنها حديث ذاتي مع الله. وفوق المذبح الروماني الذي هو عبارة عن مجرد كتلة حجر رمادية اللون، بنيت

على أربعة أعمدة متداخلة إلى نصفها في تلك المادة الخام. وكان يبدو أن المسيح بلونه الشاحب لا يزال يحيا. كان الغرض هو تبيان تجلي الله عز وجل. «الكل يعبد الأرض والسماء». ونظر فيليب إلى مسيح طفولته وهو يبكي على الحائط بدموعه العاجية، لقد رآه للمرة الأولى يتألم.

* * *

أيقظ التوأم ديزي دي موبران في ساعة متأخرة، عندما دخلا إلى حجرتهما، وهما يحدثان أصواتًا تشبه أصوات البوق. كانا نحيفين، بشرتهما ذهبية، يرتديان سراويل قصيرة من نوع «السليب»، وكل واحد منهما يمسك في يده دلوًا من الخزف، مملوءًا بالماء، وقال أوزمون وهو يحييها بانحناءة كبيرة.

- سعدت صباحًا يا ديزي.

وفتحت الفتاة عينيها وهي تختلج، وبزغ من وسط الأغذية المجمعة وجه سمراء، مليء بالحوية، فاتن كلوحة من لوحات «لاتور»، وقال لوي سيزار محتذيًا حذو أخيه وفي غاية من الأدب واللطافة:

- سعدت صباحًا يا ديزي.

وتم ما بقي من عمل في سرعة، فقد اقترب التوأم من السرير، وأفرغا دلويهما المملوءتين بالماء البارد، في حركات نشطة رشيقة، فوق شقيقتهم الكبيرة.

وقفزت ديزي من السرير، وهي تكاد تختنق، وشعرها الأسود ملتصق بجبينها، والماء يسيل من قميص نومها، في حالة يُرثى لها،

مبتلة وكالحطام، ولكنَّ الولدين كانا قد هربا، وأغلقا الباب خلفهما كما كان.

كان التوأم، والحق يُقال قلقين: هل تقصى والدهما -وهو الشخص الوحيد الذي يخشيانه في العالم- شيئاً عن انفجار الصاروخ. وحسب التخمين؛ فإن الخالة ماتيلد لم تمت بعد، وإلا لكان الخبر قد ذاع وانتشر. وذهبا إلى المطابخ وأخذتا يستجوبان فيليسي بطريقة حلوة معسولة. كان خدم القصر يسكنون بعيداً؛ في البرج الجنوبي الذي يفصله عن البرج الشمالي، حيث توجد حجرة الملك خمسون متراً من الحجر الصلب، وبدأ على فيليسي أنها ليست على علم بشيء. إن حجرة الخالة كوريزاند تقع في الجزء الأوسط من الأبنية بين برج برنهو وبرج الساعة، فهل أيقظها الانفجار؟ المشهور عنها، أنها تنام نوم المعول الجامد... كان التوأم يفكران في غارة استطلاعية من جانب حجرة الملك «بعد أن يئسا من معرفة شيء، عندما سمعا السيارة الجيب عائدة، وسمعا كذلك في البهو سعال والدهما الرنان؛ سعال المدمن التدخين.

* * *

وجدت جان ديبيره الخالة ماتيلد فوسيه جالسة في قاعة الاستقبال، وفي يدها كتاب، في انتظار ساعة الإفطار. كانت نظارة السيدة العجوز منشورية الشكل، وكان شعرها الأحمر يللمع ويتلألأ. وخطر لجان وهي تتفحص هذا الوجه النحيف الجاف الذي سلم من التجاعيد، وهذا الفم الرقيق الدقيق الذي لا يكاد الصوت يخرج منه متهدجاً، وهاتين العينين، عيني الخالة ماتيلد الباردين الجامدتين اللتين تترصدان من خلف

نظارتها الحياة والموت:

- إنني لا أستطيع أن أعتاد عليها.

وقالت السيدة العجوز:

- إنني لم أنم كما يجب هذه الليلة.

وقالت جان:

- أما أنا فلقد نمت أعمق نوم.

وقالت مدام دي لاسيرنيير التي ضايقته إجابة جان:

- إذا لم ينم الشبان، فماذا عساه أن يفعل؟ أنا أيضًا كنت أنام فيما مضى. ومنذ أن أصبح نومي قليلًا، أصبح لدي وقت للتفكير.

- هذا شيء ستكتشفينه في حينه يا صغيرتي العزيزة. وإنني لأرجو ذلك على الأقل...

واستطردت جان التي لم تكن تدري ماذا تقول:

- إنني أرى أن روحك ما زالت شابة يا سيدتي.

- إنك تطرينني، ولكن سأترك نفسي يغمرها الإطراء. وعلى الرغم من هذا فيجب أن أعترف أنك على حق. فإنني في الثانية والثمانين لا أزال في نشاط النحلة.

وجلست جان بطريقة رشيقة عند قدمي السيدة العجوز، ولما رأت أن عينيها الجامدتين من وراء النظارة يبدو فيهما شيء من العذوبة تشجعت:

- هل عندما كنت ... يا سيدتي ... على أي حال فسأقول ...

- إنك ستسأليني عن إذا كنت جميلة أم لا، أليس كذلك؟

- بلى

- حسنًا، تصوّري ...

وتوقفت الخالة ماتيلد فجأةً مستوضحة من تكون هذه الفتاة
بالتحديد؟

- باختصار لم أكن حسناء، ولكنني - كما يقولون - أصبحت سيدة
عجوزًا لا بأس بها، وصحتي ممتازة - أليس هذا أفضل؟

ورفعت جان وجهها، وهي مغتبطة نحو السيدة دي لاسيرنيير،
فرأتها الخالة ماتيلد حينئذ على طبيعتها: وجه حلو، طويل نوعًا ما،
فم غاية في النضارة شفته السفلى غليظة بعض الشيء، وخدود ذهبية،
وشعر أشقر يلمه شريط أسود وينسدل على كتفيها وأعين قائمة الزرقة،
فاتنة، تظللها حواجب داكنة. وجالت في خاطر السيدة العجوز عبارة
ورثتها عن أمها: «إنها جميلة كالحب»، ثم أضافت في أعماق نفسها
«وعازمة بلطف ألا تحسب لذلك حسابًا».

وقالت جان بلهجة الحنان تقريبًا:

- أصبح ... أنه ليس من المحزن أن يهرم المرء؟

وتجاهلت السيدة دي لاسيرنيير أن السؤال غير وجيه، وأجابت
(وقد بدت القسوة الشديدة في عينيها):

- لا، إنه لا يضايقني أن أهرم، فإن لم أكن عجوزًا، فسأكون في عداد الأموات.

وجمد الدم في عروق جان بضع لحظات كان فم السيدة العجوز الدقيق، وعيناها اللامعتان اللتان لا تتحركان مثل كرتين من الزجاج وذقنها الصغير المربع الذي ينسبط فيه الجلد على العظم بدقة كأنه رق من نوع جيد، كل هذا كان يعبر عن آية حكمة مفزعة، عن أي اقتصاد في القوى عن أي إعطاء للوقت في جرعات، عن أي أنانية، عن أي توحش نفسي، مضاف إلى عزيمة لا تشني في أن تتنسم الحياة يومًا جديدًا.

وهدأت السيدة العجوز، واستردت كتابها من فوق منضدة المدفأة، مبينة لجان أن الحديث قد انتهى. وختمت في الوقت نفسه كلامها وهي تنظر إلى الفتاة:

- إن الذين يموتون هم المغفلون.

* * *

نظر السيد دي موبران بتيه وعجب، في ساعة معصمه: الظهر إلا ثلاث دقائق وتنهد، ثم أخذ في عصبية يذرع الحجرة طولًا وعرضًا، لقد حضر كل الصحاب إلى قاعة الاستقبال، ما عدا «أرتوس» والكاهن.

وزمجر السيد دي موبران قائلاً:

- ماذا عساهما يفعلان؟

إن السيد دي موبران الذي ترمل منذ حوالي خمس عشرة سنة، فانفرد بسيادة وإدارة هذا البيت الصعب القيادة، كان صارمًا بالنسبة

لاحترام المواقيت، وبالنسبة لنقاط كثيرة أخرى. ولم يخطر لأحد يوماً أن يعصاه في مواجهته، أو أن يناقش سلطته العليا.

الظهر وعشر دقائق، لقد بدا على المركز من الانفعال ما أحمده الأحاديث، وانتحى التوأم ركنًا في قاعة الاستقبال، وأخذًا يلعبان -في صمت عجيب- دورًا من الورق بورقهما القذر. وأخذ جونتران وجان دييريه يثرثران بصوت منخفض ومن وقت لآخر كان رأس بول كبير الخدم البيضاء تطل عند الباب، كما لو كان طيفًا للدقة التي امتهنت:

ومن النافذة المفتوحة على الفناء الأكبر، لاح المذنبان قادمين يشبك أحدهما ذراعه في ذراع الآخر، إن «أرتوس» الملقب «بالتركي» وهو الابن الأكبر دي موبران يقوم بجمع ثروة طائلة في تركيا (حيث كان يعيش منذ أن تحررت فرنسا)، أما الأب فيليب دي موبران فطويل القامة، يبدو على وجهه في آن واحد الرجولة والشباب. وفي موبران كان لا يذهب للنزهة إلا وعصاه معه، يلففها في الهواء بسرعة ومهارة، فلقد كان هذا يذكره بأيام أن كان بطلاً للعبة السيف. ولم يكن قد تجاوز بعد الثلاثين:

كان الاستقبال ثلجياً في بادئ الأمر، ثم ما لبث أن استدار المركز صوب أرتوس، وانفجر قائلاً:

- الثانية عشرة وربعاً... يا إلهي... ألا يمكن أن تكون دقيقاً يا أرتوس؟ ألا يوجد لدى الأتراك ساعات، أم ماذا؟ نحن لسنا في آسيا الصغرى هنا! للمرة المائة، إذا لم تكن قادراً على ضبط مواعيدك، فما الذي تجيء لتفعله في موبران؟

كان صوت المريكز ممتلئاً ورناناً، ولكن هذا اللوم العنيف تلاشى في سعاله، سعال المدمن التدخين، مما زاد غضبه، وحول لون خديه الأصهبين إلى حمرة قانية.

وأخذ أرتوس ينظر إلى والده، دون أن ينطق بكلمة، ولم يجب، منحنيًا برفق أمام العاصفة، ثم وجد لكي يظهر عدم موافقته على ما سبق دون أن يعبر عنه بالكلام طريقة أعجبته؛ فقد التفت إلى الخاليتين ماتيلد وكوريزاند، واعتذر لهما -دون سواهما- عن التأخير.

ثم تدخل الأب فيليب:

- أنا الذي أخطأت يا أبي، فقد طلبت إلى أرتوس أن نقوم بجولة، واستدرجته إلى نقاش. وعدا ذلك...

ولكن المريكز الذي كان يشعر باحترام عميق تجاه رجال الكهنوت، لم يكن ليطلق لسانه في الأخ اليسوعي؛ فاكتمى بأن أجابه في رقة:

- اسكت أنت يا فيليب.

* * *

كانت عبقرية التوأم المشؤومة مصدرًا لقلقهما. فقد كانا يفكران في صبغ رداء أخيهما الكاهن باللون البنفسجي؛ لكي تصير أطرافه أسقفية بعض الشيء.

وتوصلا بفضل مراقبتهما للحاضرين أثناء تناول الغداء إلى التأكد من أن مسألة الصاروخ لن يكون لها عواقب، فإن الخالة ماتيلد كانت على شيء من التجهم، ولكنها لن تقول شيئاً، أما السيد دي مويران الذي

خفف من حدته منظر البط الموضوع فوق تخته، فسأل عند منتصف
الوجبة تقريباً:

- لقد استيقظت على ضجة غريبة أمس مساءً، ونظرت في ساعتني
وقتئذ، فوجدت أننا في منتصف الليل تمامًا. ألم تسمعا أنتما شيئاً أيها
الولدان؟

وطرفت أهداب الكاهن الذي كان يقيم في البرج الجنوبي، ولكنه
ألقي نظرة قصيرة على التوأم، وصمت.

ولم تقل الخالة ماتيلد شيئاً، لم تقل شيئاً مطلقاً، واكتفت بأن تثقل
أوزمون، ولوي سيزار بنظرتهما كلما وجدت الفرصة سانحة لذلك،
وشعر الولدان بأن الحرب تقترب، ولكنها لن تنشب في يومهم ذاك.

أما بالنسبة لديزي؛ فإنها لم تغتبط بالطبع، بدلوي الماء وكانت
متحفزة بوضوح، لتصفية حسابها بنفسها، وكان التوأم لشدة خوفهما
يشملانها بمراقبة خاصة. غير أن لوي سيزار كان مولها إلى حد الجنون
بجان دبيريه، وكان يتمنى في ذبول وضنى أن يجد الوسيلة التي يموت
بها من أجلها.

* * *

لقد كان من المتبع في موبران أن يبقى الجميع -ولمدة نصف ساعة
بعد تناول الطعام- في قاعة الاستقبال، ثم بعد ذلك فالكل في حرية تامة
حتى ميعاد تناول العشاء.

وحوالي الساعة الثانية إلا ربع تبادل التوأم إشارات تدل على نفاد

الصبر، كما يفعل البط فوق البركة قبيل الطيران. ثم اتجها إلى الباب الزجاجي، فأوقفهما صوت المركيز فجأة:

- ماذا ستفعلان اليوم أيها التوأم؟

وأجاب لوي سيزار بصوت نحيل:

- سنهتم أولاً بالماريشال المجهول.

وحبس السيد دي موبران ضحكة، وهز كتفيه.

إن المارشال المجهول هو «أناتول موسكيه» ماريشال فرنسا، ودوق أودنا وقاهر القبائل المتمردة في معارك البابور والوادي الكبير سنة ١٨٣٧، وتجهله عامة الشعب تمامًا. ولقد تصادف أن انحدرت المرحومة المركيزة دي موبران من أسرة «موسكيه دي أودنا»، ولم تكن لديها إلا شقيقة واحدة، فلم يحمل أحد لقب دوق أودنا. ولكن هذا لا ينفي أن شباب عائلة دي موبران يتدفق في عروقهم دم هذا الماريشال الكريم المغمور. وعند هذه النقطة انقسمت العائلة على نفسها إلى قسمين: فإن جونتران الذي كان يساعد والده في إدارة الأملاك، والخالة ماتيلد المتعلقة بالدم الأزرق وبالنعال الحمراء (الخاصة برجال الحاشية) وأدوار الشاعر الذي كانت هوايته الوحيدة الشديدة هي كره الماريشال موسكيه. هؤلاء الثلاثة كانوا يعتبرون دم المركيز دمًا غير أصيل، ودوقيته -دوقية أودنا- تافهة مضحكة، وانتصاراته على القبائل سنة ١٨٧٣ بلا أثر. وعلى العكس من ذلك كانوا يتباهون بأن يحصوا من هنا وهناك من بين أجداد عائلة موبران خمسة قواد برتبة قائمقام بالجيوش الملكية، وأحد رجال بلاط هنري الثالث الذين كانوا يقولون

عنه وهم يتسمون ابتسامة سمجة «إنه غلام الملك المدلل» وابنة عم إحدى ملكات بولندا في القرن السابع عشر، وأسقفًا من الحزب غير الموالي لعودة الملكية «كان أحق بلقب الكردينال» وفارسًا من فرسان «سانت أسبري» ثم سرية كانت -فيما يقال- من حظايا هنري الرابع لبيارنيه، هذا عدا بطل قُتل في مبارزة في عهد شارل التاسع، وفي آخر مات في «دنان» بين ذراعي الماريشال دي فيلان، وكاهن صغير مرذول من ندماء البلاط الملكي، وعدا أجليه دي موبران الشابة (١٧٧١-١٧٩٣) التي احتست ثلاث كؤوس من دم الإنسان فوق المقصلة لكي تنقذ خطيبها في الوقت الذي لم تستطع فيه الأنسة دي سمبري نفسها -على حد قول الخالة ماتيلد- أن تحتسي سوى كوب واحد...

وفي مواجهة هؤلاء، كان يقف حزب المتعصبين للماريشال، وفي مقدمتهم السيد لوانتران عدیل السيد موبران؛ إذ إن زوجته سليلة لموسكيه دي أودنا. هذا اللوانتران كان رجلاً رائعاً غريب الأطوار يكبر المركز بعشر سنوات، وكان يأتي من وقت لآخر إلى موبران حيث حجزت له حجرة خاصة. ولقد كرس السيد لوانتران -وهو مؤرخ عظيم التبحر- ثلاثة أرباع عمره لدراسة غزاة الشمال (الفيكنج)، وكان لا يقوم إلا بنشر مقتطفات رسائل صغيرة وقليلة، ولكنها ذات أسانيد لا تفند عن مواضيع دموية مثل: «سكالا جريموش والسلب» و«أزواج السفاحة فريديس الثلاثة» و«المعركة الأخيرة وموت إينار تمبرسكيلفير». هؤلاء الأبطال الشماليون كانوا قد كرسوا حياتهم جميعاً لينقضوا وينهبوا ويحرقوا ويبقروا بطون معاصريهم حوالي القرن العاشر من تقويمنا

الميلادي، وكان السيد لوانتران يتكلم عنهم بألفة الصديق الحميم وحنانه.

وفي يوم من الأيام نَدَّ اهتمام العالم، من باب الهواية، إلى الماريشال موسكيه دي أودنا، باعتباره السلف المشترك لزوجته، وللمرحومة أخت زوجته المريكيزة «دي موبران»، وكان السيد لوانتران يقول وهو يضحك: «إن ابني ينحدر من هذا الفحل سواء أراد القوم ذلك أم لم يريدوا»، ثم لم يلبث أن كف عن الضحك وانشغل في جد بتاريخ قاهر القبائل، ولم يعد أحد يسمعه يتكلم مطلقاً عن غزاة الشمال، ولكنه كان يتكلم عن «بوجو» و«عبد القادر»، ولم تعد المسألة مسألة جليد النرويج، لكنها أصبحت مسألة رمال إفريقيا. كانت هذه القفزات في الزمان والمكان تعجب السيد لوانتران، ومنذ ذلك الحين والعالم يأتي أكثر بكثير عن ذي قبل عن ذي قبل إلى موبران؛ حيث بدأ في كتابة «حياة الماريشال موسكيه البطولية» باحثاً أثناء ذلك في مجموعة ضخمة من المراسلات غير المطبوعة، تنطوي على أكرم المواقف. وكانت الحجرة المخصصة لآل لوانتران مكتظة بصور ولوحات وإمضاءات ومخلفات الدوق أناتول موسكيه، وكانت عصاه، عصا الماريشالية معروضة هناك في فترينة مقفلة بالمفتاح (بسبب التوأم). ولقد كانت ديزي تساعد العم لوانتران في أبحاثه وتشاطره التحمس لموسكيه الأفريقي، وكانت تحرص شخصياً على ذكرى الماريشال حرص الأرامل.

وإلى جانب ديزي دي موبران والسيد دي لوانتران، يقف الأب فيليب الذي كانت له آراء اجتماعية خاصة، ويؤثر أن يلبس على رأسه

قلنسوة عادية بسيطة (بيريه). لقد كان يسره أن يأتي دم «جديد خشن» عن طريق الماريشال الذي «نشأ بين عامة الشعب» ليثبت القوة من جديد في دم آل موبران الذي أصابه الانحطاط بعض الشيء.

أما التوأم فكانا يبدلان موقفهما وفقاً لمزاجهما؛ لكي يضايقا الجميع. فلقد استغلا في بادئ الأمر -وبأقصى نجاح- خصال كاهن البلاط ومسألة غلام الملك المدلل. ثم ما لبثا أن غيرا اتجاههما، وركزا الآن اهتمامهما على الماريشال. وقبل ذلك ببضعة أيام، واتتهما فكرة إقامة شيء كالضريح فوق السطح، الجزء الرئيس فيه صفيحة بنزين. وكان أوزمون ولوي سيزار يدعيان بحق أنه لا يوجد في العالم إنسان بخلاف آل موبران يعرف اسم الماريشال أناتول موسكيه. إن أحاديثهما كانت تجعل ديزي كالمسعورة، ولكن تلك بالضبط كانت غايتها. وفي كل يوم كانا يتوجهان إلى الضريح، ويطوفان به ويسكبان بعض قطرات البنزين داخل الصفيحة ويشعلان بها النار تحية «للماريشال المجهول».



الفصل الثالث

كان السيد دي موبران مستلقيًا يفكر في أملاكه.

إن الامور تسير سيرًا لا بأس به عند آل «تبيو»، إن أرضهم -والحق يقال- ذات قيم متفاوتة: خمسة وعشرون هكتارًا من الأرض الجيدة الحرث، وخمسة وعشرون أخرى تكسوها أعشاب خضراء متوسطة الصنف، وتلك الأرض البور التعسة التي تمتد حوالي الثلاثين هكتارًا، وما أنسبها لارتياح دجاج الغاب والحجلان (لم ير المركيز مثيلاً لها في كثرة في كثرة الطيور التي يمكن اصطياها بها)، إلا أن استصلاحها للزراعة أمر ميؤوس منه، ثم هذا التل الوعر حيث تحاول كروم برجونيا الشديدة التلوي أن تنمو بين صفين كثيفين من الشوك الحاد الخشن. لقد كان تبيو الأب يشكو: أن الوقت عصيب؛ «اللحوم في الحضيض يا سيدي المركيز، إن الكيلو الذي كان يباع في شهر فبراير الماضي بمائة وخمسين فرنكًا، يباع الآن بالكاد بمائة وعشرين، ذلك عدا البهيمتين اللتين فقدناهما...».

لم تكن تلك الشكاوى تقلق المركيز أكثر من اللازم، إنه لم ير طوال حياته فلاحًا راضيًا أو على الأقل يظهر الرضى. وعندما كانوا يستثرونه بعض الشيء، كان موبران يرسل ببساطة مثالًا صغيرًا من تأليفه:

«يعرف الفلاح من شكواه ونواحه، كما تعرف دجاجة الغاب من مخالبيها».

والحق فقد كان تيبو الأب قد بدأ يجعل زراعته آلية، فاشترى لذلك جرارًا ألمانيًا، واستأجر مرعيين من السيد دي كتيي جار موبران، ودفع دوطة لا بأس بها لابنته، وأقام لها زيادة على ذلك فرحًا عظيمًا استمر ثلاثة أيام، جرى فيها النبيذ الوطني وامتلاّت بعجائن اللحم الريفية، وكان السيد دي موبران يقول أحيانًا: «لو كنت غنيًا مثلك يا تيبو»، فيhez تيبو رأسه الصلب الأحمر ذا الأنف الكبير الذي يدغدغه شارب رمادي كالشوك، مجيبًا:

- إنك تقصد المزاح أيها المريكيز؟

ولكن المريكيز لم يكن يقصد المزاح، فبالطبع كان لدى المعلم تيبو مصاعبه، ولكنه كان بصدد جمع ثروة صغيرة، ولم يكن كذلك على الأخص يمتلك قصر موبران اللعين، هذا الهيكل الحجري الضخم ذا الأسقف التي تعتمد على غابة هائلة من الألواح الخشبية. لقد أصبح من المتعذر تمامًا على المريكيز دي موبران أن يواجه كل هذه التبعات. لقد كان فيما مضى يدير كل هذا في أنفة وبنفس عدم مبالاة والده الذي كان يحترق الحسابات ومَن يقومون بها. ثم أقبلت الحرب، ولم يتمكن من صيانة القصر إلا جزئيًا، ثم إن الألمان أثناء الاحتلال كانوا قد فتحوا بكل بساطة ثغرة في سقف برج برنهو؛ لكي ينصبوا فيها مدفعًا رشاشًا لا فائدة منه. ولقد فكر المريكيز في نفسه وهو في شدة الغضب:

«اليوم وبعد سنوات عديدة من التحرير، فإن لجنة التعويض عن

خسائر الحرب ما زالت مستمرة في سخريتها من الناس»، فإنه لم يكن قد وصل إلى حافظة السيد دي موبران الخاوية حتى الآن مليم واحد باسم الإصلاحات. ومع ذلك فالضرائب لا تكف عن الارتفاع، وفي الوقت نفسه يستشري الفساد الشديد في الحكم.

وعاد إلى التفكير في أملاكه التي تحت يدي تيبو. كانت الحاجة ماسة لعمل حساباتها الآن، وكان موبران يحفظ هذه العملية عن ظهر قلب: ثمانية وسبعون هكتارًا بكاملها، بدخل سنوي قيمته الفعلية ثلاثمائة ألف فرنك، يُحذف منها خمسون ألف فرنك ضرائب عقارية وقسمها من ضريبة الدخل ونفقات صيانة الأبنية والحظائر والإصلاحات الطارئة، وتناول المركز وهو يتنهد من فوق منضدة صغيرة بجانب سريره ورقة بسطها كان يقرأ بصوت منخفض، غير أن شفتيه كانتا ترسمان شكل تلك الكلمات: «مقاولات سيان، إلى السيد المركز دي موبران. بيانات عن أعمال ترميم ضيعة بيك فيلور التي يديرها السيد تيبو:

غطاء من القرميد المسطح ثلاثة عشر مترًا مربعًا لحظيرة الدجاج. ٧٤٣٩٠ فرنكًا جوانب الخنادق والجزء الأسفل من الأسوار. فأضاف بصوت مرتفع وهو يرتجف من الغضب «ماذا إذن؟».

ودقت ساعة برج القلعة. كانت دقائقها الإحدى عشرة تتساقط في سكون الليل كما تتساقط قطع من ذهب، وأبعد السيد دي موبران عن فكره الأوراق والحسابات، وتمدد على سريره الواسع المربع الشكل تقريبًا، الذي يعلوه روق من الحرير الدمشقي الأخضر على حافته (أهداب) وردية باهتة. وكان أمامه على الحوائط صورتان معلقتان

عليهما إمضاء «فيليب دي شمبني»: صورة للراهبة الأخت إديلايد دي مويران بصحبة الراهبة الأم إنجليك أرنو، وأخرى للوي سيزار وأوزمون دي مويران، قائد حرس صاحب الرفعة الكردينال أرمان دي بلسي دوق دي ريشليو. كل هؤلاء كانت تبدو عليهم أمارات صرامة فوق المتوسط؛ فقد كانت الأخت إديلايد ترتدي ثياب الرهينة وتبدو عابسة غير مرحة على الإطلاق، أما قائد الحرس فكان مفزعاً له شارب كث ووجه به ندوب.

لم يكن بالحجرة سجاد؛ فلقد كان بلاطها الضارب إلى الحمرة يقوم مقامه، وكان أثاثها بسيطاً عدا مكتب محلي ببعض التذهيب المترف والجلود الفاخرة، استخدمه قديماً ذلك الخليع الذي كان وصياً على العرش.

إن مويران يرتاح لهذا (الديكور)، وإلى جانب سريره وضع المركز دولاب كتب صغيراً متحرّكاً به كتبه المفضلة، التي كاد يعود إليها في المساء، كما تعود الحيوانات إلى منابع المياه. كان المرء يجد هناك كتاباً عن «دوزيه»، ومذكرات «سوللي»، وكذلك مذكرات «الدوق دي سان سيمون»، ومجموعة رسائل مدام دي سيفينييه، وتعليقات عن حاشية لويس الرابع عشر بقلم فسكتتي، ومؤلفات السيد دي فودرا بأكملها.

ومد المركز يده وتناول كتاباً من كتب سان سيمون وآخر لمدام سيفينييه الطيبة؛ فلقد كان ذلك يمدّه بالحيوية والنشاط أثناء ساعات الوحدة والهبوط المعنوي. لقد كان يهوي أن يفتح حسب الصدفة

كتابًا مما سبق أن قرأه مرارًا، ولتحقق من غطاء جزئي لتسقيف مخزن الحبوب ... ٢٤، ١٥١ فرنكًا.

يتبع ذلك بنود مختلفة زاخرة بهذا الترف من التفاصيل المحددة، المستغلقة على الأفهام، ولا يملك سرها سوى البنائين والنجارين وواضعي الأسقف:

إعادة تسمير العروق الخشبية الوسطى ... ١٠٠٠ فرنك.

مسامير لحام بارزة ... ٤٢٤٠ فرنكًا.

طوب مقوس متداخل ... ٣٦٣٠ فرنكًا.

وأعاد مويران الورقة فوق المنضدة وهو يزمجر:

باختصار سيكون الحساب الختامي للدخل في ميزانية البيك فيلور صفرًا لامعًا!

هنالك أيضًا ضيعتا «أزوليت» و«جارينو» الكبيرتان ومزرعة «أربويسونا» الصغيرة، وغابة «سيلفس»، وغابة أخشاب «بوسيفر» ومرعى جاكليين، وتبلغ مساحتها جميعًا ثمانون هكتارًا، يضاف إليها «البركة الكبرى» و«بركة الذئب الميت» التي كان يباع سمكها بوفرة.

وبإسقاط مجموع الضرائب ونفقات الترميمات والأعمال الجارية بالضيعات، كان يتبقى للمركز بالضبط مائة وعشرون ألفًا من الفرنكات شهريًا، يعيش عليها بيت المركز: هو ذاته، والأولاد الذين يكفلهم وثلاثة من الخدم، مع وجوب تسديد مصروفات التوأم المدرسية - وكانا يطلبان العلم في باريس، وكساء ديزي بالملبس الحسن لكي تجد

فرصتها في الزواج، ومساعدة ابنة العمة ماتيلد التي لم تكن تمتلك مليماً واحداً منذ زمن بعيد، والعناية بحصانيي المركز وعلى الأخص على أن يكون «كوخ موبران» الكبير في حالة جيدة، فما الحيلة في هذا كله؟

لقد تبين السيد دي موبران متأخراً أن دخل الأرض لم يكن يكفي مطلقاً. إن جميع الأشياء القيمة التي استحضرتها معها المريضة، سليلة «موسكيه دي أودنا»، كانت قد استهلكت على مدى عشرين عاماً، غير أن المريضة كان يحس بشدة بالحاجة الملحة لإصلاح سقف برج برنهو الذي قد رمم وقتياً، ولتجديد أرضية قاعة الاستقبال الكبرى جزئياً -وكانت قد وهنت، وكذلك أرضية قاعة الموسيقى، وبناء ابتسامة في ثنايا جملة من الجمل، أو ليهز كتفيه مستهيناً أو ليرفع حاجبيه متعجباً عند ملاحظة من الملاحظات، أو ليجد عضة اجتهد صاحب المذكرات في التعبير عنها وهو يقرز فمه الصغير المتطاوّل - أو عبارة حنان وعطف من التي كانت تختم بها مدام دي سيفيني رسائلها لابنتها المائعة الحمقاء، موشاة بالذهب مبصومة بالقبل. وبالتحديد كانت صدفه أن فتح السيد دي موبران المذكرات وفي سرور وقع نظره من جديد على عبارات موعلة في التحقير والإهانة عن «ذلك البأس فولتير»، فقد كان سان سيمون يلقبه بأرويه «ابن كاتب اشتغل بتوثيق عقود أبي وعقودي». ومرر موبران في نهم لسانه على شفثيه.

ثم قرأ بعد ذلك بقليل: «مونشفري» كان من بيت عريق، لا ذكاء له على الإطلاق، متصعلك كفأر الكنيسة. وأضحكه هذا التعبير في سكون حجرته؛ لأنه كان يخيل له أنه يرى أمامه أحد أبناء عمومته.

ثم عادت إلى رأسه من جديد هموم الأملاك. وتخيل كم يطيب له أن يولم الولايم لأصدقائه دائماً، وتخيل الحاجة المهنية التي ستجعله يطلب إلى أفراد أسرته أن يدفعوا له تكاليف إقامتهم إذا نزلوا في القصر أكثر من أسبوع، ونذكر أن تيبو الأب يمتلك لوريا صغيراً من طراز ٢٠٣ جديداً كل الجدة، ومع ذلك فكل الذي يمتلكه، هو سيارة الجيب والسيارة الرينو العتيقة التي يرجع عهدها إلى ما قبل الحرب، فهمس قائلاً: «لقد تعبر الزمن».. واستصغر نفسه إذ يقر بذلك، وفتح من جديد سان سيمون، فقرأ: «إن النعمة كانت مقدرة حينذاك، فلقد عاش أبي مع أصدقائه حتى آخر أيام شيخوخته، وكانت مائدته حافلة بأحسن الطيبات كل يوم وبأحسن الخلان...».

وتنهذ موبران وأراد أن يتسلى قليلاً مع المرميزة دي سيفنييه، ولكن لم يسعد الحظ، فلقد وقع نظره على نص مشير:

«إلى مدام دي جرنيال، فيشي الإثنين مساء الأول من يونيو سنة ١٦٧٦».

«ليتهم لا ينتزعون مني هذه الأرض الساحرة، وألف غابة صغيرة، والجداول والمراعي والخراف والماعز، والفلاحون الذين يرقصون رقصة (البورية) في الحقول...».

وأغلق موبران في حدة الكتاب النحيل ذي الضلع المذهبة واستعاد إلى مخيلته شبح تيبو الأب ذي الشوارب الكثة، وتيبو الأم، اللذين لن يرقصا أبداً رقصة (البورية).

وأطفاً النور، وفي الظلام كان يرى في خاطره وبكل دقة قصره

النصف الدائري من الحجر، وقد بنيت على جوانبه الأبراج، وغاصت في أحوال الخنادق، والأسقف المنشورة بالمداخن العالية، يغطي رؤوسها القرميد الأحمر، والتي تبلغ من العمر عمر الكروم العريقة، والواجهة التي على طراز هنري الرابع الكثيرة النوافذ، المضيئة المطمئنة كالسلم الموسيقي. لقد استبقى أمام عينيه المغلقتين لمدة طويلة هذا المسكن الأثري، والعشرين هكتاراً المورقة التي كانت تحف به كالموكب. وفكر وهو سعيد بأن يرى في قصره شيئاً له «في الخارج أسوار حصينة وخنادق وفي الداخل زخرفة وحدائق!».

* * *

استيقظ السيد دي موبران في الليل العميق على تحريك للأثاث في الحجرة التي تعلوه بالطابق الثاني. كان المركز قد أسكن بها الوصيصة الأرملة الشابة «جيرمين» ومعها طفلها الصغير البالغ من العمر خمسة عشر شهراً ويُدعى ريشار، وكان ريشار هذا معبوداً للقصر، إن جيرمين، وهي شابة حسنة مصابة بالسعال منذ بعض الوقت والسيد موبران مهموم لذلك والحجرة الجميلة التي بالطابق الثاني من البرج الشمالي لم تكن مخصصة للخدم على الإطلاق، ولكنها كانت واحدة من حجرات القصر القليلة المتيسر تدفئتها في الشتاء. ولذا فقد قرر موبران منذ بضعة شهور أن ينقل إليها جيرمين وطفلها، ثم أقبل الصيف ولم يكن هنالك داع لطردهما منها. لقد قالت له الطاهية فيليسي مستصرخة: «ستنتشر الأقاويل يا سيدي المركز»، فأجابها: «فليتقوّل المتقوّلون».

وأرهِف السيد دي موبران سمعه. إن سقف حجرته المُحلي

بالرسوم القديمة، كان يعتمد على سدب ضخمة من الخشب الداكن، وهذه السدب كانت تنقل إليه الضوضاء فيسمع المركز جليًا بكاء الطفل وسعال أمه وصرير المهد الذي كانت تهزه. ولم يهدأ ريشار الصغير، بل على العكس أخذ صراخه يعلو بطريقة هائلة، وتخيل السيد دي موبران، الذي كان يحب ريشار ويخشاه، تخيل جسده الصغير ذي العضلات وأعينه النفاذة، وجبينه الناصع، وخصلة الشعر النابليونية، هذا الطفل الصغير الذي كانت الدنيا له. ومرة فترة سكون وهدوء وقتي، ثم علا صراخ الطفل وتنغيماته إلى أقصى درجات الحدة. وقال موبران لنفسه «يا للوغد! إنني لم أر حيوانًا يستطيع أن ينبج بطريقة أشد إزعاجًا من هذي»، وفي الواقع كان ريشار الصغير يتفوق على نفسه في محاكاة صوت المنشار الآلي لدرجة يختلط فيها الأمر على المرء.

وقفز السيد دي موبران من سريره وارتدى بلا مبالاة عباءته القديمة (روب دي شمبر) المحلاة بالشرائط المضفرة، وتسلق السلم الحجري الحلزوني، منتهبًا أربع درجات بكل خطوة، ثم طرق الباب. وفتحت جيرمين في الحال تقريبًا والطفل على ذراعيها، وعندما رأت السيد دي موبران استضاء وجهها.

لم تكن ترتدي سوى قميص نوم ثقيل أبيض كملاءة السرير. وكان شعرها الأسود السائب ينسدل من ناحية على كتف من كتفيها في رشاقة، وذراعاها الجميلتان عاريتين.

- أعطني هذا الولد اللعين بسرعة؛ إنه لن يتمكن أن ينام مرة ثانية من سعالك. ساعديني على إنزال المهد.

- لكن يا سيدي المركيز...

وأشار ريشار بإصبعه في عظمة إلى الحزام الذي يربط به المركيز عباءته، وأرسل صيحة جلية كصوت النفير، وكان هذا يعني أنه يريد الحزام. وأطاع المركيز أمر الطفل، ثم استولى على المهد، وحمله في يده ونزل السلم الحلزوني، بينما تبعته جيرمين وهي راضخة.

وضع موبران المهد بالقرب من سريره ذي الروق مزمعاً أن يمدد فيه ريشار، ولكن تتابعت بعد ذلك صرخات من قبيل مواء القط المتوله وشخير الخنزير المذبوح.

وقال المركيز لجيرمين:

- اذهبي بسرعة، لتنامي.

وهزت شعرها الجميل، ورفعت وجهها الشاحب الرقيق، وبدرت منها حركة نحوه، غير أنها انحنت متممة:

- شكراً يا سيدي المركيز.

ثم انصرفت، وعند عتبة الباب التفتت إليه مرة ثانية، وهي تبسم ابتسامة حزينة.

وبقى موبران وحيداً وجهاً لوجه مع ريشار الذي كان يقف في المهد، وهو يلقي نظرة يلم بها بالحجرة.

- نعم!

ورقد المركيز من جديد. أما ريشار فظل واقفاً يرمقه بنظرة السيادة وبدا للطفل المصباح الذي عند رأس السرير - وهو النور الوحيد الذي

يضيء هذا الليل المعتم - بدا وكأنه عديم الفائدة، فقد أشار إليه بإصبعه وأرسل نغمته الآمرة، وانتظر، ثم ما لبث أن غضب. فأطفأ موبران النور في حذر. وبدا له أن ذلك قد هدأ من روح الطفل. ولكن ما لبث أن علت صرخة وارتفعت حلزونية كسلم برج قديم وبلغت في شدتها قمة صراخ الحيوان. وأضاء السيد دي موبران المصباح ثانية، وتوقف الصراخ، إلى أن أعطى الطفل أمره من جديد بإطفائه.

لم يكن موبران يدري ماذا يفعل: كان يسب كفرسان «التميل»، وهو يضيء ثم يطفى ثم يضيء من جديد...

وتفتق ذهنه أخيراً عن حيلة، فوضع شمعة على منضدة أمام المهد مباشرة، ولم يترك ضوء آخر سوى لهب تلك الشمعة يومض وسط الليل كروح صغيرة نشوى، وبدأت على الصغير هيئة النشوة ومد ذراعيه نحو المركز قائلاً:

- بابا!

كانت تلك مفاجأة انفطر لها قلب السيد دي موبران. إنه لم يكن يترك نفسه مطلقاً أن يتذكر زوجته التي كان يحبها حباً جمّاً، والتي ماتت منذ خمس عشرة سنة.

لم يكن ينظر البتة إلى أي صورة من صور الأيام السعيدة، حيث كان أولاده الكبار ما زالوا يرقدون في مهدهم، ولم يضع أي صور أخرى لزوجته في حجرته الخاصة. بل ولم يكن يتكلم عنها مع أولاده مطلقاً. لقد اضطر أن يكمل بمفرده تثقيف الكبار منهم، وأن يربي التوأم، ويرى وحيداً ديزي وهي تكبر وتكتمل. كان عليه أن يتولى كل ذلك بحزم وألاً

يضعف وألاً يقول أبداً كلمة موجهة وألاً تتمزق أحشاؤه ألباً عندما يأتيه فجأة صوت ديزي، وكأنه صوت أمها تماماً. كان عليه أن يلتزم الصلابة، وأن يفرط فيها؛ لأن هذا السلوك هو أحسن بكثير من العذوبة والرقّة لرجل مثله يعيش وحيداً. وها هو ذا طفل صغير قادر على كل شيء يناديه بأبي دون حذر منه؛ لأن شمعة كانت موقدة وسط الليل كالذكرى: هذا الطفل ذو الخمسة عشر شهراً الذي يقف مرتدياً قميص نوم أبيض يبدو فيه ضئيلاً مضحكاً كـرعاة الأغنام في مصر: «بابا».

إن السيد دي موبران لم يكن يفقه شيئاً قط عن الأطفال ولا عن سلطانهم. وحاول التركيز أن يسعل، أن يمزق بقسوة هذه الصور التي تواردت على قلبه، أن يعض عضاً خفيفاً ومتكرراً على شاربه، ولكنه وجد نفسه عاجزاً أمام الدموع التي انهمرت فوق خديه. وصاح ريشار الذي لم يكن يفوته شيء:

– بابا... بابا!

لم يكن موبران يتذكر أنه بكى مرة في حياته بعد أن بلغ مبلغ الرجال، حتى يوم أن ماتت زوجته. ولكن ليس في قدرة الإنسان أن يتنبأ بشيء، فهو لا يعرف بالضبط متى سيصبح قلبه نهباً للتأثر. لقد أصابته الدهشة في الوقت الذي التفت فيه الطفل – بعد أن اطمأن إلى لهب الشمعة وأخذ يشير إليها بإصبعه كما يشير الغنم الصغير إلى لألة النجوم.



الفصل الرابع

أمير كنتي

يرجو

السيد المركيز دي مويران وأولاده

«بأن يشرفوه بالمشاركة في صيد البط الذي سيكون على أرض ضيعته يوم الأحد ٢٦ يوليو ١٩٥٣، وقد تحدد موعد اللقاء الساعة السابعة صباحًا، في استراحة الصيد بالقرب من بركة (برنيل)».

كانت بطاقة الدعوة ضخمة الحجم، ممهورة بإمضاء يدوي يُقرأ بوضوح: كونتي. وكانت شارة الإمارة منقوشة بارزة ملونة كالخاتم الذي يعلو بطاقة دعوة الصيد بالكلاب.

أخذ السيد دي مويران يقلب ويقلب هذه التحفة بين يديه. لقد رأى قبل ذلك أشياء كثيرة، ولكنه هذه المرة قد ذهل. حتى أبعاد البطاقة بدت له لفرط جمالها خيالية، أما الشعار المنقوش فقد أدهشه في تلذذ وهو الخبير بشعارات الأشراف. وبصوت منخفض، فصل المركيز الرسم:

- لنر لا بد أن هذا يعطي صورة لشيء مثل: درع نصفها من الميناء الأحمر والنصف الآخر من اللازورد وفوق المقطع الأحمر شمس ذهبية إلى اليمين وأسد منطلق ومتوج بالطريقة نفسها إلى اليسار، أما اللازورد فيحمل خمس زنبقات غرس فضية أوراقها وأغصانها فيضة كذلك، وتلتقى أعواد الزنبق الخمس في ساق واحدة، فتبدو وكأنها تنبت من سن الدرع والحواف منقوشة جميعها باللون الأخضر. يا إلهي هذه الشمس وهذا الأسد المتوج!

أما أمير كنتي...

فلقد كان السيد دي موبران يسخر كثيرًا في نفسه من كونه يتمتع بجيرته؛ لأن هذا الأمير لم يكن قط أميرًا، ولم يكن قط كنتي.

«الأمير دي كنتي يدعو السيد المركيز دي موبران...»، وتمتم المركيز قائلاً:

- إن الألقاب والأسماء لا تزال هي التي تقود العالم، وإن الإعجاب بصيت الأشخاص لشيء خارق للعادة.

هذه القصة العجيبة يحفظها المركيز عن ظهر قلب. حوالي سنة ١٩١٠ أهمل شخص يُدعى جاك ديران -وهو «معلم حداد»- أهمل اسمه في عدم مبالاة وفيها بعد جمعه في مقطعين، فكانت بطاقة زيارته تحمل اسم «السيد جاك - لوي دي ران» وبعد ذلك بعامين عين هذا الشخص «قنصلًا عامًا لجمهورية سان ماران المستقلة بباريس». وتقديرًا لخدمات غير معروفة أداها، أنعم المجلس الأعلى لسان مارتان بمقتضى مرسوم على السيد دي زوان بلقب بارون الوراثي الذي ينتقل

من الذكور إلى الذكور بحسب تقدمهم في السن. وبسبب هذا اللقب طلع على الناس ببطاقة جديدة. «السيد جاك - لوي دي ران، بارون دي كنتي»، وكنتي هذه قرية حقيقية في سان مارتان. ثم ظهرت بكل بساطة بعد ذلك ببضعة شهور صيغة أخرى هي «بارون دي كنتي» بكل بساطة.

وانقضت الحرب، وفي عام ١٩٢١ قابل صاحب مصانع الحديد الملك المسن نيقولا الأول، ملك الجبل الأسود، المنفى ببوردو والمعزول عن مملكته. وكانت تعيش مع صاحب الجلالة المعزول حاشية من الخدم والموظفين المخلصين، وعقد السيد ديران، أو جاك -لوي دي ران، أو البارون دي كنتي، أواصر صداقة مع صاحب الجلالة نيقولا الأول لدرجة أنه في مدى عام واحد -واعترافًا بالخدمات المؤداة منه- أنعم الملك المنفي على صاحبه البارون بلقب أمير -الوراثي بطبيعة الحال من ذكر إلى ذكر حسب تقدم السن- وبتاج ودرع. وتصادف أنه كان يوجد كذلك في إقليم منتنجر القديم رجل داهية يُدعى كنتي، وعندئذ لم يكن هنالك شيء يمنع السيد ديران من أن ينقش على بطاقته الجديدة «الأمير دي كنتي». وكان من الجائز أن تكون هذه هي الأخيرة، ولكن لا، فعندما علم في أواخر أيامه أن كنتي كان أيضًا اسم أحد أمراء الأسرة المالكة في فرنسا قديمًا، وأن له وجودًا في التاريخ، أنشأ ديران لنفسه بطاقة كانت هي سيدة البطاقات الأخرى، فقد كان أبناء الطبقة الراقية يقرؤون عليها في ذهول يصل إلى حد إثارة الإعجاب:

«ح.ص.أ. (اختصارًا لحضرة صاحب السمو) أمير كنتي».

وانتهى الأمر بأن جذب إليه الأنظار. وبالطبع لم يستطع صاحب

السمو الجديد أن يحظى بولوج ميدان الفروسية واستبقى باتفاق ضمني خارج نادي «موتير»، لم تكن الأوساط الأرستقراطية تعترف أبدًا بلقبه هذا، وكان الشيء الوحيد الذي يوحى إليهم به هذا اللقب هو كونه مادة لخرافة لذيدة. واستمر السيد ديران يشغل المكان الذي يستحقه السيد ديران بين أبناء المجتمع. ومهما كان الأمر فإنهم كانوا يلقبونه «بالسيد دي كنتي» من باب التلطف المحض.

وفي تلك الأثناء اختلط بهم، فأصبح يخاطب المراكز بغير كلفة، ويقول: «يا عزيزي» للأمرء، ويربت على بطون الأدواق.

وعندما مات لم تكن بطاقات العزاء التي صاغها ولده «كريستوف» وأرملته تحمل «ح.ص.ا» لكن النص المجمل بالسواد كان طريفاً: «بمناسبة الخسارة الفادحة التي منوا بها في شخص:

«جاك - لوي، أمير كنتي

وصاحب مؤسسات صناعة الحديد

وقنصل عام الجمهورية سان ماران

وكوماندور محرر فنزويلا

وحامل الوسام الأكبر من رتبة

بيتروفيتش - نيوجتش - مونتينجرو

وبعد موت أبيه، عدل كريستوف نهائياً عن لقب حضرة صاحب السمو. ولكنه بقى على الأقل أميراً، وشاءت الصدفة أن يمر ذات يوم بقرية اسمها كنتي، على «الساحل الذهبي» وبعد ضيعة كنتي بسان ماران وكنتي داهية متنجرو، كان هناك اسم كنتي آخر في بورجونيا يؤدي غرضه

على أحسن وجه، فاشترى كريستوف في بادى الأمر خمسمائة هكتار من القرية المذكورة. ثم بنى قصرًا على طراز «فيوليه لديك»، ثم أقنع نفسه في النهاية بأنه يحب هذا البلد. ومنذ ذلك الحين شيدت «قلعة دي كنتي» جديدة، براقه بأبراجها الأربعة المدببة وبفتحاتها وحوائطها المبنية بالطوب والحجر، وبالفترات التي تساعد على مراقبة أسفل حوائط التحصينات وميازيبها، وبالمراوح الزنكية التي تعين اتجاه الرياح، مشرفة على مزرعة مستحفية وجلة، وبركة كبيرة أهلة بالبط الحائر.

«إلى اليمين شمس من الذهب وإلى اليسار أسد متوج...».

وتابعت أفكار المركز السير في طريق آخر، واختفت ابتسامته:

- هذا الحيوان الملقب بكنتي ديران يتقرب من ديزي ويظهر لها إعجابه...

وفكر قليلًا، وتذكر تفصيلات دقيقة وعلائم من المجاملة، وابتسامات حانية.

إن كريستوف دي كنتي في حوالي الأربعين من عمره، حسن الطلعة. ولقد استأنف أعمال والده وتألّق في ميدانه. وبدلًا من «نادي الفرسان» استطاع أن يقتحم نادي «الموتير كلب» «السيارات»، وقادته نفس الضرورات الملحة إلى قراءة «بروست»، وإلى لعب البريدج وإلى أن يعين عنده كبيرًا للطهارة. إنه كان يمارس ببطولة خصال المجتمع الراقي، فهناك بعيدًا عن الأعمال كان طموح ضار يدفعه إلى النجاح حيث فشل أبوه، فيفرض اسمه على المجتمع، ويصبح من الأشراف المعترف بأرومتهم ويقرن بسلسلة اسم لامع ويصير أرستقراطيًا.

وفكر موبران:

- إن هذا الفتى لا يبدو عليه لحسن الحظ أي إحساس بالهزء والسخرية. ثم إنه متعجل جدًّا، فلكي يُكوّن المرء لنفسه اسمًا، لم يكن بد «دائمًا من عدة قرون. عدة قرون أو معركة»

والسيد ديران والد كريستوف لم يحارب في سنة ١٩١٤ والسيد كريستوف دي كتي خاض الحرب سنة ١٩٤٠، ولكنه كان ملحقاتًا بإدارة تموين الجيش.

- إنني أرجو أن يكون لدى ديزي على أي حال ما يكفي من الذكاء لكي تفر من ذلك المتبربر.

* * *

كان التوأم يكرهان كريستوف دي كتي، وكان كريستوف دي كتي يبادلهما نفس الشعور. إنهما يلقبانه «بالأمير ديران» وكان هذا يروق للسيد دي موبران.

لقد اكتشفا بطاقة الدعوة إلى صيد البط على مائدة قاعة الاستقبال، وكان والدهما قد قال بخصوص ذلك الأمر:

- المفروض ألا أذهب عند هذا التافه، ولكن لا بأس، سأذهب مع ذلك؛ فلديه من البط ما يزيد على حاجة شخص بمفرده، ولا بأس من اصطيد بعضه، ثم إن بركة برونيل هذه أكبر من بركتنا، وإنها أيضًا من أكثر برك الجهة وفرة في الصيد.

وسألت ديزي وهي تهز شعرها الداكن وتقطب فمها الجميل:

- ونحن؟

سأصحب معي جونتران، والتركي الأب، وستبقين أنتِ هنا مع صديقتك «جان».

هذا كل ما هنالك. كانت لهجته قاطعة، ولكن ديزي مع أنها تخشى والدها أكثر من أي شخص في العالم إلا أنها وقتذاك كانت تملكها روح فدائية:

- أظن أنني سأذهب على الرغم من ذلك إلى كتي يا أبي؟

وتوقدت عينا المركيز السوداءوان. ودون أن يرفع صوته قال ببساطة وهو يشمخ بأنفه الذي يشبه منقار النسر:

- إنني متأكد أن لا يا ديزي

وما كان لأحد في موبران أن يجرواً على إطالة المناقشة في أمر من أوامر المركيز أكثر من ذلك. فسكتت ديزي، ولكن عينيها كانتا تتطايران شرراً من شدة الغضب. كانت نظرتها هي نفس نظرة أبيها السوداء، وكانت روح المعارضة تستعر في داخلها بنار متأججة.

وسأل إدوار بدوره بعدم اكتراث:

- وهل تصحبنى أنا؟

- أنت؟ يا إلهي! هذا صحيح يا دمي المسكينة المشنوقة. إنني لم أفكر في ذلك.

هل حقيقة لك رغبة في المجيء؟

إن إدوار مصاب بقصر النظر، وهو لذلك لا يحكم الإصابة،

فلطالما أخطأ فريسة تطير بين رجليه، وصرع طائرًا بعيدًا عن مرماه بغير قصد «وبطريقة مائعة»، وكان المركز يتألم من ذلك، ويعدده بمثابة خزي للعائلة. بقي أن تسلية إدوار بالصيد كانت عبرة «يعتبر بها». هذا الولد كان يلهو باصطياد شحروور في الوقت الذي يصطادون فيه الحجلان، وبالضبط قبل مرور هذه الطيور، ومع ذلك كان يخطئ الشحروور، وعلى البرك كان ينظر إلى خنفسة تسبح أو فراشة تحوم، ولا يبصر طير الكلفير الذي يكاد يلمس أنفسه. وكان المركز يقول وهو في شدة الغيظ:

- إن هذا الولد يفسد عليّ متعتي.

- إن الأمرين عندي سيان يا أبي، أن أذهب وألا أذهب كما تريد.

- إذن، فأظن أنه من الأجدر ألا تأتي معنا في بعثة عند الأمير ديران.

سيكون لديك فرص أخرى.

- اتفقنا يا أبي، اتفقنا.

وابتعد إدوار أنيقًا شاردًا، وهو يترنم بقصيدة للشاعر الخالد «هنري

ميشو»:

وجلو

وجلي

لقد ابتلع كتته

وجلي

وجلو

لقد ابتلع قدمه

كان إدوار بعد جونتريان هو أقرب أولاد السيد دي موبران شبيهًا به، من ناحية الهيئة العامة، وكان التركيز يطلق عليه اسم «الدمية المشنوقة» وكثيرًا ما ينظر إليه في دهشة وهو يفكر دون أن يدرك مطلقًا كيف أنجب هذه العينة من الرجال.

* * *

واستولى التوأم على بطاقة دعوة كريستوف دي كنتي، ونقلها كما لو كانت فريسة إلى برج برنهو. وقرأها ثم أعادها قراءتها. وفي لمح البصر صنع لوي سيزار لنفسه بشلل من الخيط شعرًا مستعارًا كالذي يلبسه لويس الرابع عشر. وأمسك أوزمون ورقة ملفوفة كالأنبوبة من وسطها، وأخذ يهزها كما لو كانت عصا الماريشالية.

- يا سيدي...

- يا سيدي...

- أنا أمير كنتي بطبقتي الراقية وعائلتي النبيلة اللتين أتشرف بالانتماء إليهما، أرجوك أن تجد وسليلة، أن تحاول الحضور لصيد «الكوان - الكوان» على أراضي...

- وأنا التركيز دي موبران «دي ترودي شوز» أتشرف بأن أقول لك إنك تافه.

ولكن على الرغم من ذلك، سأذهب عندك لاصطياد «الكوان -

كوان»؛ لأن ما لديك من البط يا سيدي كثير على شخص واحد...

كانا يتبادلان الانحناءات الساخرة وينفخان شديهما.

ثم خطرت فكرة لأوزمون وهو يتفحص بطاقة دعوة كنتي ديران:

- ألدك بطاقات من بطاقات أبيك؟

- نعم.

لقد كان عندهما خزين من كل شيء، وكانا يحتفظان بكنزهما هذا في المخبأ الذي أعده أسفل دولابها. وقال لوي سيزار وهو يحضر ما يقرب من الخمس عشرة بطاقة مطبوعة باسم والدهما: المركيز دي رميكور بورانج دي موبران:

- حاول قليلاً أن تفهم!

وتبين هذا على الفور ما خطر لأخيه؛ لأن انتقال الأفكار بين هذين الصبيين المقلقين كان شيئاً طبيعياً.

- ماذا سنكتب؟

أخذوا يخرجان لسانهما. ويهرشان رأسيهما، ويهزان خصلات من شعرهما الأشقر فوق جبينيهما الجميلين، وفي النهاية وضعوا الصيغة التالية:

«المركيز دي رميكور- بورانج دي موبران يشكر سمو السيد أمير كنتي على دعوته الرقيقة التي سيتنازل بتلبيتها هو وكل حاشيته ومعداته. وقال أوزمون:

- إن الأمر لا بأس به هكذا ... أليس كذلك يا صديقي الصغير؟

فأجاب لوي سيزار:

- إذا علم بذلك أبي، فسُعاقب بشدة.

- ماذا تظن أنه سيفعل بنا؟

- بحزامه... ألا تذكر منذ عامين عندما وضعنا الخفافيش تحت

المنشفة في حمام الخالة ماتيلد؟

- بالتأكيد، ولكننا كنا ما زلنا صغيرين.

- وإذن؟

- وإذن فالشيء الذي نبتدعه اليوم شيء أكثر امتيازًا وأرقى، إن

ذلك له طابع آخر كما كانت تقول جدة جدتي لأمي، ثم إنني لا أظن أن
أبي يقدم على شيء مثل هذا...

- يقدم على ماذا، أن يلهب بحزامه مؤخرتك؟ ربما يتحرج!

وقال أوزمون الرهيب وهو يضحك بصوت خفيض وعلى مهل:

- يجب أن نسلبه هذا الحزام.

وباتفاق مشترك نسَخًا على بطاقة من بطاقات والدهما الصيغة التي

وضعها لتوهما، وهما يجتهدان في محاكاة خط المريكز، ثم وضعاً

البطاقة في ظرف كتب عليه هذا العنوان: « حضرة صاحب السمو أمير

كنتي»، واجتازا في بضع دقائق المسافة التي تفصل القصر عن مكتب

بريد القرية كرتل من الذئب الصغيرة المطاردة.

ولما عادا بعد ذلك انصرفا إلى قرقعة فوق ممرات الحديقة
المفروشة بالرمل بالسيارة الرينو العتيقة المطلية باللون الأحمر كعربة
الحريق.



الفصل الخامس

اتفاق فريد، نوع من الصداقة الرزينة الحانية، تولد بين الخالة ماتيلد وجان ديبريه. كانت الفتاة الشابة يعجبها في السيدة العجوز شدة ولعها بالحياة، وهذه الأنانية الصلدة التي تبدو لها جميلة، وهذه النظرات العتيقة الغريبة إلى جميع الأشياء وإلى الطريقة التي يسير عليها العالم، هذا الوجه الناعم الأصفر، وهذا التوحش النفسي. كانت جان عذبة رقيقة، ولكن كان لديها قوة اضطبار هائلة. وكانت تشعر في غموض بالتقدير الكامل للمقاومة الصلبة التي تبديها العمة ماتيلد تجاه الفناء. ثم هي تشفق عليها لشيخوختها.

أما الخالة ماتيلد فكانت عيناها الحجريتان ترقان بمجرد وقوعهما على جان، وكانت تقول عنها في نفسها «إنها تريحني»، وكان يروع جان للغاية ترف وتبرج الخالة كوريزاند التي تحب مخاطبتها بلقب «السيدة الدوقة». إن الدوقة تعتنق آراء طريفة وقاطعة، ولديها كذلك ما يمكنها من أن ترتدي الملابس من بيت أزياء ديور، وتصفف شعرها عند كارولين ريبو، الشيء الذي لم يجعلها تفقد شيئاً من عظمتها. إنها تدين بالملكية ذات يوم. (لقد قصت ديزي على جان هذه القصة) أُغْمِي على

الخالة كوريزاند في مأدبة أقيمت للاحتفال بعقد قران، ولما عادت إلى وعيها سمعوها تتمم قائلة وهي تزر بيد مرتعشة ثوبها:

«لو كنت قد متُّ، أظنون أن أمراء فرنسا وأبناءها كانوا يشيعون جنازتي؟».

كان جونتران يعجب جان ديبريه «إنه يشبه أباه»، وكانت تلك تتطلع عن طيب خاطر إلى منظر هذا الرأس الأنيق المتزن، وهذا الفم الأحمر النهم الذي يعلوه شارب مشذب، والوجنتين البارزتين قليلاً في وجه نحيف، والأنف الأشم المحذب والحاجبين الكثيفين، والعينين السوداوين اللتين يضطرم بداخلهما لهيب من الكبرياء والشهوة وصلابة الرأي.

إن جان تتصور في نفسها قصصاً، وتلك القصص تتعلق في الغالب بجونتران. إنها تتخيل أنها قد تعلمت لتوها ركوب الخيل، وأن جونتران يهنتها أمام الجميع على جلستها ومهارتها، أو أنه لاحظ الفن الرفيع الذي به تشكل بنفسها منذ بضعة أيام جميع باقات الزهر في المنزل، أو أنها كانت تنقذ طفلاً قد سقط في البركة، فأعجب جونتران بشجاعته، شجاعة السباحة الجريئة (لم تكن تعرف مع ذلك السباحة).

أما السيد دي موبران؛ فكانت جان تضعه غالباً في النطاق الخارجي لما تسميه «بقصصها». ولكنها كانت ترهبه. فقد كان يبدو لها كأنه نوع من الآلهة القصية المسلحة في آن واحد بابتسامة وسوط لا يقاومان. وكانت تنظر إليه على أنه الصورة المثلى لهذه الأرستقراطية التي تراها لأول مرة تحيا وتنفس. إنها غالباً ما تنظر إلى السيد موبران في سكون

رافعة نحوه في إعجاب تام وساذج عينيها الزرقاوين القاتمتين أنه صاحب المكان وسيده، ووريث سلالة من المُلَّاك والأسياد يرجع بهم التسلسل إلى أغوار التاريخ.

إنها منذ أسبوع وهي تعيش عند عائلة موبران، ولقد أحببتها؛ لأنها رأت منها أنها أنزلتها منزلة الابنة المصطفاة، فكانت تشعر لذلك بالفخر. وكانت تنظر إليهم جميعًا وهم يروحون ويغدون ويأكلون ويتناقشون بحدة، ويصطادون ويركبون الخيل ويتكلمون ويبالغون في تبيان أدهمهم ولطفهم وفي آلاف من حركات الاحترام البسيطة المنمقة التي يتعلمها المرء على مدى قرون عديدة كانت تستمتع بهذا كله؛ لأنها كانت هي مرهفة النفس رفيعة، ولكن لم يسبق لها أن تتخيل شيئًا شبيهًا بهذا قبل مجيئها إلى «موبران».

إن ديزي تبدي نحو جان غاية من اللطف والكياسة، وتحفظ جان لها أنها هي التي قامت بدعوتها. ففي يوم جميل من أيام شهر يوليو أرسلت ديزي -التي تبقى في باريس لمدة ستة أشهر في السنة- برقية لوالدها: «هل يمكنني أن أصطحب معي زميلة من مدرسة اللوفر، ولأي مدة؟». وأعقبها في الحال برقية من الماركيز: «نعم، ولأي مدة تريد». لم تكن هنالك حدود لكرم ضيافة آل موبران.

لم تكن جان ديبريه تحب كريستوف دي كنت على الإطلاق. كانت تأخذ عليه -بسلامة نية- أنه كان يفسد بوجوده صورة آل موبران الرائدة - كما تستطيع نسخة غير متقنة، مبهرجة لكن تافهة للوحة ما إن تشوه بمفردها أثاث قاعة الاستقبال بأكمله. ثم كانت تحقد عليه

لتودده اللوح لديزي ولإظهاره إعجابه بها «على أي حال إن لديه جرأة شيطانية، وديزي أيضًا مغفلة جدًا».

أما إدوار دي موبران؛ فكان يزعجها «إن عليه مظهر المتخلف عقليًا»، ولكنها كانت تعلم مع ذلك أن هذا الولد الوجيه المطموس الذي يحمل على شفتيه دائمًا هذه العناقيد المرة من الشعر السريالي، كان يتخلص بمهارة في باريس من مأزقه بشراء السيارات المستعملة ثم بيعها، وتعلم كذلك أن إدوار مثل أبيه وأشقائه الثلاثة الكبار، كان قدوة أثناء الحرب: فقد عمل لمدة عام في المقاومة السرية، ثم نقل بعد ذلك إلى نفس الوحدة التي يعمل بها الكاهن بالجيش الأول...

والتركي.. حسنًا، إن التركي يبدو عليه مظهر الفتى الصلب الذكي الذي خالط الرجال ومارس الأعمال. وإذا صدقت ديزي فقد أصبح عظيم الثراء، إنه أثقل بدناً، وأكثر اكتنازًا وغلظة في الشكل والخلق، وربما كان أشد جفاءً، ولكن تصرفاته أيضًا كانت رقيقة ناعمة وخاصة تجاه النساء.

وقالت جان لنفسها في سرور مبهم وجل: إن المرأة هنا ملكة متوجة.

أما ما كان يعجب جان من صفات الأب فيليب، فهو نوع ما من المتانة والقوة. كانت تقول لنفسها: ولكنني لست موقنة تمام اليقين من أنه ذو إدراك سليم، وهل آل موبران الآخرون -عدا التركي- لديهم ذلك الإدراك؟ وكان لابد لجان أن تعترف بأن هذه العائلة تنطوي على نفسها بشدة في عالم ليس هو بحال عالم الإدراك السليم. كانت

المناقشات فريدة من نوعها. فقد كان كل فرد من أفراد الأسرة يبدي آراء قاطعة عن كل شيء، كانوا يتقاذفون التوكيدات بطريقة لا تتغير ولكن ليس دون ظرف، أما الشيء الذي كان يسميه السيد موبران باحتقار «العالم العصري» فقد نُحِّيَ بعد التفكير جانباً لم يكن ليدخل القصر مطلقاً، والعادات القديمة هي التي كانت مسيطرة، فلم يسمح في قاعة الاستقبال للتركي «أن يتكلم عن أعماله»، ولا للدمية المشنوقة أن يتكلم عن السيارات، ولا لجونتران عضو المجلس البلدي أن يخوض في السياسة.

أما التوأم، فكانت جان ديرييه تخشاهما، فقد كان يبدو لها أن هذين الولدين مع أنهما ما زالا في الخامسة عشرة والنصف إلا أنهما يمتازان بنضوج وتفتح باكر من بعض الوجوه - كما يبدوان في بعض أفكارهما الأخرى كالأطفال تماماً. ولم يكن يبدو مثلاً أن المسائل الجنسية تزعجهما... بالعكس كانت قوة ملاحظتهما وخبثتهما الشيطاني تجعلانهما على دراية بانفعالات وعادات الآخرين، وكان وجهاهما الذهبيان وشعرهما الأشقر وأعينهما الصافية التي تشبه كما يقال عيني والدتهما، تضيفي على هذين الولدين مظهر الملائكة المستقيمين الأطهار. كان أوزمون أكثر خشونة وأكثر تحفظاً وجموداً، وكان لوي سيزار أكثر منه رقة بكثير، ولكن جان تبينت أنهما كليهما يعبدانها عن بعد، بكل ما لسن الخامسة عشرة من حماقة مطلقة.

وبالطبع كان التوأم قد قاما بعدة تلميحات للتعريض بالعلاقات العاطفية التي تقرب جونتران من جان في بطاء وثقة. وكانا يذكران

أيضاً وبطريقة فظة جداً الغرام الذي كان يبدو أن ديزي تشعر به نحو كريستوف دي كنتي -متنبئين «بحفنة من الأبناء الصغار غير الشرعيين من آل كنتي للعائلة» و«بمستقبل زاهر للفتاة الأم ديزي»، ومن وقت لآخر كانا يحييان أختهما من بعيد بالهتاف ثلاث مرات «فليعيش ديران». وسألت جان الخالة ماتيلد:

- ولكن ما السبب في أن هذين الولدين بمصل هذه الشقاوة؟
فأجابت السيدة العجوز جواباً جديراً بها:
- لأنهما ما زالا صغيرين!

ولم تكن جان ديرييه لتعتاد تبذل هذين الولدين في الحديث، وكلفهما باصطناع العبارات الدارجة.
وكان من الواضح أن المركز معجب بقريحة التوأم، ولهذا كان يتنازل من باب التسلية الخالصة والهواية بالسماح بهذه اللهجة إلا على المائدة وفي قاعة الاستقبال.

وكل هذا لم يكن يمنع أوزمون ولوي سيزار عن أن يظهرنا نحو السيدات أدباً فريداً في نوعه، غير متكلف. فكانا على الرغم من كرههما للخالة ماتيلد لا يحتملان أن تلتقط شيئاً وقع على الأرض، وكانت هناك طبيعة ثانية تلعب دورها عند هذين الولدين، مما كان يجعل جان تشعر بلذة عندما ترى أحدهما يندفع في حركة رشيقة، طبيعية، ويمسك بالشيء ويمده وعلى ثغره ابتسامة من نوع خاص، وشيء من المراعاة الودية للاحترام، وكان هذا يبدل من صورته.

* * *

انزوت ديزي في الحجرة المخصصة للعم لوانتران، فقد كانت تحاول أن تستعيد هدوءها باستعراض ذكريات المارشال موسكيه. كان الظلم الذي يمارسه أبوها وتحريم الذهاب إلى كنتي يدفعان ثورة ديزي إلى الغليان. وكانت دموع السخط تترقرق في عينيها. وكانت ديزي ضئيلة الحجم، سمراء، بديعة التكوين، صورة مصغرة من إنسانية عذبة رقيقة، إلا أنها كانت كالحية في سرعة الغضب: وكان الرعب الذي يوحى به إليها والدها بعيد الجذور، يرجع إلى عقوبات بدنية سابقة، وحبس في الحجرات المظلمة، وإرغام على نسخ صفحات بمقادير تدل على علم كبير بفن المضايقة.

إن نظريات السيد دي مويران في تنشئة الفتيات ظلت كما هي غاية في الإيجاز، إنها جائرة بالطبع، وديزي جموح بالنسبة لأي نوع من أنواع العبودية. وهكذا شبت في جو خليط من الثورة والإعجاب. فإنها لم تكن تعدل بأبيها أحدًا في العالم، وبدا لها أنه لا يوجد الشخص الجدير بها وبه، فرفضت اثنين أو ثلاث زيجات جيدة وأربعة أو خمسة شبان وسيمين.

كان الجميع يتساءلون لماذا لم تتزوج وقد بلغت الخامسة والعشرين.

ومنذ نعومة أظفارها وديزي تجمع أفضل قواها لكي تقاوم شخصية المركز القوية، ولقد توصلت إلى ذلك، ولكن مقابل شيء من الصلابة العميقة، ثم جعلتها تلك المقاومة الطويلة للخضوع نسيء الظن تلقائيًا

بجنس الرجال. ولم تتصور ديزي أنها تستطيع أن تتحمل سيادة رجل،
غير أنها كانت تفكر في ذلك غالباً.

ولقد كانت تظن أن كريستوف دي كنتي خليف بأن يسليها فقط،
دون أن يعجبها كان يلوح على وجهه نوع من التباهي، كلما ازداد
ازدادت جاذبيته. لقد كان كريستوف ذكياً، عنيداً، شديد العزم، وأحياناً
مملاً، ولكن ديزي كانت ترى أنه «أكثر أهمية عندها بعشر مرات من
أولئك الشبان الصغار من أبناء الطبقة الراقية الذين يراد إلقائي لهم إلقاء
الفريسة».

وكان للغرام بكريستوف مزية أخرى، هي إغاطة المركز، وقد
كانت ديزي تريد أن تأخذ بثأرها، وقررت أن تأخذ بثأرها حتى النهاية.
وقالت ديزي لجان ديبيره الذي كان رأسها الأشقر يطل من فتحة
الباب:

– ما هذا، أأنت إذن؟

– نعم، لقد جئت لأرى ماذا تفعلين.

ودخلت جان وبقيت مأخوذة: إن ديزي كانت قد رفعت شعرها
الأسود إلى أعلى، وثبته بمشط صغير به حجر كريم من أحجار الراين،
وفي اللحظة التي دخلت فيها جان بالتحديد، كانت ديزي تقف تحت
لوحة لجدتها المركيزة ماري لويز إليزابيث دي موبران بريشة ناتيه.
كانت المركيزة تصفف شعرها برفعه إلى أعلى وتمسك إياه بلؤلؤة،
وفقاً لأسلوب في الزينة روجته إذ ذاك كبرى بنات الوصي على العرش.

لقد كانت تشبه ديزي في كل لمحة، وفي كل وردة، وفي كل ظل، بطريقة
أذهلت جان فبقيت صامته.

عجباً! ماذا دهاك؟

وانقطع ذهولها، ولكنها في لمحة برق قد تراءت لها ديزي تحت
ضوء عالم آخر: تمثالاً صغيراً لإحدى شخصيات البلاط في القرن
الثامن عشر ووجهًا غامضًا لمجتمع قد اندثر، لقد كانت جدتها ماري
لويز إليزابيث دي موبران زوجة لأخ أمير من الراين، والصديقة الحميمة
لابنة من بنات ملوك فرنسا غير الشرعيين، ومن جهة إمارات أخرى قد
شاطرت ذلك العصر سيرته المخزية، فانغمست في الانحلال انغماسًا...

وقالت جان وهي تنظر إلى صديقتها نظرة صارمة:

- إنكِ لا تسيرين في الاتجاه السليم يا ديزي، أليس كذلك؟

- كلا لماذا؟

- لأنني أعرفكِ يا عزيزتي، إنكِ تدبرين عمل حماقة ما.

- وكيف عرفتِ ذلك؟

- ليس أمامي إلا أن أنظر إلى رأسكِ.

- دعيني وشأني.

- ديزي، إنني أتنبأ تمامًا بما تنوين عمله...

- إنكِ دائماً تتنبئين بكل شيء!

وراقبت جان ديرييه العينين المشعنتين والفم النحيل الممتد قليلاً

إلى الأمام واللسان الذي يمرر بسرعة بين الشفتين - وهذا المخلوق المرتعد، الخفيف العصبي.

- نحن جميعًا نشبه بعض الحيوانات، ولقد وجدت الحيوان الذي يشبهك يا ديزي، لقد وجدت سلفك. إنه ثعبان صغير سام. لقد قرأت -لست أذكر أين- أنه يوجد في أمريكا الجنوبية ثعبان طوله عشرون سنتيمترًا يقتل في مدة لا تتجاوز العشرين ثانية. أي بمعدل ثانية لكل سنتيمتر...

- هل فرغت من سرد حماقاتك؟

وانفجرت جان ديرييه ضاحكة، وعدلت مؤقتًا عن تأنيب ديزي؛ فإن صيد البط لن يقام إلا بعد غد، ولكي تلاطف صديقته أخذت تسير في الحجرة بخطوة راقصة ويدها خلف ظهرها، ثم أشارت بأصبعها:

- ما هذه؟

وقبلت ديزي هذا التلهي.

- هذه كما تقولين - هي آخر صورة للماريشال!

لم تكن على الحوائط - باستثناء لوحة نائييه - لوحة واحدة إلا وتصور للعائلة عمل وشخصية الماريشال موسكيه دوق دي أودنا.

وكان هناك أيضًا رسم به نقط عديدة، مجهول راسمه، غاية في الرداءة، يمثل أناتول موسكيه وهو في العاشرة من عمره. لقد كان صبيًا أشقر كثير الشبه بلويس السابع عشر الذي رسمته مدام فيجييه لوبران، وكان الإطار المتواضع يرجع إلى ذلك العهد ويحمل تاريخ ١٧٩٣.

إن الحجرة منشور بصورة للرجل العظيم بالزيت وبالباستيل، وبال حجم المصغر. كان هناك أناتول موسكيه وهو في الثلاثين من عمره، قائدًا لكتيبة الفرسان يرتدي ثوبًا عسكريًا غريبًا، وله شوارب ناعمة حريرية، في نفس السنة التي نشبت فيها معركة ليبيزج. وأناتول وهو بلباس الكولونيل بجيش لويس الثامن عشر، ولباس الجنرال في جيش شارل العاشر، وأناتول موسكيه بين عائلته، ومن دون عائلته، وهو على قدميه، وهو راكب فرسه، وهو في عربته، وفي عربة السفير فوق العادة لدى صاحبة الجلالة الملكة المتدينة إيزابيل الثانية ملكة إسبانيا، غداة صدور مرسوم ميكالفارو - بتوليها السلطة. وعلى الأخص أناتول، وهو بجانب رئيسه الماريشال بوجو ذي الوجه الصارم، وكأنه دائمًا يرأس مجلسًا للحرب، أو مجلسًا للتنظيم. وأناتول وهو في الجزائر، والقبائل، وقسطنطينية، الأودنا، ومعارك البابور ومعارك الخروب، وبرج بن أريريج كما صورها خيال واسع. وأناتول موسكيه خاشعًا بجانب جسد دامريمون وهو حديث المقتل وبه جرح هائل ينزف دمًا قانيًا، وأناتول وهو يستدل عبد القادر. أناتول هنا وأناتول هناك.

وأخيرًا وفوق حوائط هذا المتحف الغريب، انتشرت في كل مكان لوحات عديدة لموسكيه وهو بلباس ماريشال فرنسا، أيام مجده مرتديًا زيه الرسمي ذا الياقة العالية. وفي مكان الصدارة صورة كبيرة الحجم لدوق أودنا، بلباس التشريفية الكبرى ممسكًا بعضا الماريشالية في يده المكسوة بالشعر التي منحت بالتأكيد لكثير من أبناء القبائل، شرف قتلهم. كان وجه الماريشال عريضًا أحمر مشربًا بسمرة مغضنًا كمجرى

النهر أيام الجفاف، وجه متهلل طروب، به فم واسع على شكل هلال
وشعره أشعث أشقر أصهب ذو خصلات ملفوفة.

وقالت جان ديرييه وهي تضع يدها على كتف ديزي:

- أظن أنك مجنونة قليلاً يا ديزي.

وأجابت ديزي بصوت به نغمة من التحدي:

- لماذا؟

- لأنك أنتِ وعمكِ لوانتران الشهير، قد دستتما ماريشالكما في
كل مكان لدرجة أنه يداس عليه.

كانت ديزي تنظر فوق اللوحة الزيتية الكبرى إلى وجه دوق دي
أودنا الدامي، وفي لفظة من هذه اللفات العجيبة التي لا يعرف سرها إلا
النساء، قالت بحدة وهي تدير نحو جان رأسها الصغير الذي كان أصفى
خلاصة للوقاحة:

- نعم ليكن، سأذهب بعد غدٍ لدى كريستوف!



الفصل السادس

كانت السيارة الجيب تخترق مشاهد من التلال الصهباء والحقول التي تنحدر في رفق. وكانت الأرض تبدو كالقبة تحت سماء شهر يوليو الزرقاء التي تفوح بها رائحة الصباح النفاذة. وكان بعض الضباب يحوم فوق مساحات شاسعة من الغاب الذي تطير منه الشحارير مندفعة كالخطاطيف السوداء. ومر كالكةنة زوج من الحجلان السمينة الوقور. وسُمع من بعيد كلب ينبح.

يا لها من أرض طيبة، إنها مخططة بالكروم، والدر الأخضر ينساب في الأوراق التي كانت في انتظار الشمس الساطعة. كان الطريق الأبيض يتلوى ويصعد ويهبط وسط الريف البرجوني الجميل، يظهر فوق قمة تل يميزه بيت أبيض ذو سقف أحمر، كان يبدو من بعيد كاللعة، ثم يعود ويختفي بعيداً وسط مشهد متحرك من حقول القمح الناضج وحشائش (الترفل) والكروم.

وقال المركيز:

- إن هذا الحيوان قد أصلح البناء المخصص للصيد بالقرب من

بركة البرونيل. وإني أتساءل ما الذي سيحدثه من ذلك؟

لقد اضطر الكاهن أن يترك لباسه الكهنوتي، وانتعل حذاء خاصًا بالمستنقعات كبيرًا ذا رقبة طويلة، وحلة قديمة، وقبعة مستديرة حوافها مزخرفة كأذن قط المزاريب. وكانت ريشة الديك البري المثبتة في قبعته تكسبه نوعًا من الأناقة غير المتوقعة. أما التركي والمركيز وجونتران، فكانوا يرتدون نفس الأحذية ونفس القبعات المستديرة الموغلة في القدم. وكانوا جميعهم مستريحين لذلك.

كان كنتي ينتظرهم أمام البناء. وبجانبه تعرف موبران على شكل كان معتادًا عليه، وكاد من فرط دهشته أن يخلي عجلة القيادة. كان يتعلق ذلك رجلًا قصيرًا، ساقاه مقوستان بعض الشيء، يرتدي حذاء ذا رقبة من الجلد، وسراويل خاصة بركوب الخيل وحلة من المخمل المضلع صفراء ذات أزوار فضية، وعلى رأسه قلنسوة خاصة بالطرد.

ونزل المركيز وأولاده من السيارة الجيب، ثم صافحوا كنتي. ولكن المركيز دي موبران صاح في الرجل القصير:

- يا إلهي هل أنا أحلم، أهو أنت يا لاروزيه؟

- إنه أنا بدمي ولحمي يا سيدي المركيز.

وأخذ موبران يربت بمحبة على كتف الرجل القصير الذي كان -وهو عاري الرأس وممسك بقلنسوته المصنوعة من المخمل - يصل إلى ركبته.

وقال كنتي:

- إنني أرى أنك تعرف لاروزيه، ولذا ستسمح لي أن أتركك لحظة معه، فهناك بعض الأوامر التي يجب أن أعطيها.

- تفضل!

وانتهز المركز الفرصة لكي يثرثر مع الرجل، فهو قائد عجوز لكلاب الصيد، كان يرافقه في الطرد فيما مضى.

- إذن فأنت دائماً نشط يا لاروزيه.

- دائماً يا سيدي المركز.

- ترى ما الذي تصنعه هنا؟ إنني لم أرك منذ سنة ١٩٣٦.

وتلاشت الابتسامة من على وجه القائد الهزيل المغضن الذي يشبه الحائط القديم.

- هذا حقيقي، نعم سنة ١٩٣٦: في نفس السنة بالضبط التي رحل فيها الكونت دراماييه. لقد كنت عنده من خمس سنوات، لو كان سيدي المركز يتذكر.

- إذا كنت أتذكر؟ أتظن أنني لا أتذكر؟ لقد كان حقاً قطيعاً جميلاً: ثلاثين كلباً من الكلاب الأنجلو سانتونج كنت أنت ترعاهم مع خادم للكلاب. ألم نصطد في غابات منطقة «السون واللوار»؟ لقد اصطدنا أيضاً في السنة الماضية تيوساً جبلية ممتعة في غابات «الفرتية».

وحك لاروزيه رأسه ولمعت عيناه، وقال:

- إنه من المحزن يا سيدي المركز أن جميع سادة بورجنيا، باستثناء سيادتكم، رحلوا الواحد تلو الآخر. لقد كان المرحوم أبي يعمل عند

دوق دي روشمار، وجدي (لابريزيه) بدأ حياته في (رالي بوجوني) ولقد نشأت هناك، والله الشاهد. وإني لأتحسر على تلك القطعان، نعم إنه لشيء محزن، فما أكثر من رأيهم يرحلون، في منطقتي السون واللوار والساحل الذهبي فقط؛ السيد البارون دي لاشايل والسيد جول دي سوزي والسيد المريكز شانجي بعد أن أعاد شراء مرعاه من السيد الكونت دي سران والسيد الكونت دي برواسيا، والسيد الكونت إنري - دي جيتو الذي كان لديه كثير من الجرأة والنشاط، ثم صاحب -قبيل حرب ١٩٣٩- والسيد الكونت كريستيان دي ميجريه، والسيد تيست صاحب مرعى هائل لعين يقوم على خدمته لابرانش، أحد أصدقائي يا سيدي المريكز. وقائد كلاب صيد ممتاز باختصار.

وتركه موبران يقول، لقد كانت نفس الأحلام تراوده وكان يبكي من كل قلبه نفس هذه الرحلات للصيد في نفس هذه الغابات.

- ولكن ها هو ذا السيد دي كنتي -السيد الأمير دي كنتي، إذا سمح سيدي المريكز بأن ألقبه كذلك- يذيع أنه يؤلف قطيعاً من كلاب الصيد للخروج في غابات سان جان، وانسترين، وجراند تايي. ولقد أمكنني أن أتلقي الخبر في الوقت المناسب، والآن فإن الأمر لا بأس به، لقد عيني أول أمس بعد الظهر. لقد وجه السيد دي كنتي ثلاثين كلباً مخطأً من الأنجلو -بواتيفان- سانتنجه، سيضعهم في طريق تيوس الجبل، وسنتمكن من الحصول على خمسة وعشرين أخرى منها قبل شهر أكتوبر. ولكن الشيء الذي يضايق هو عدم وجود ما يكفي من الحيوانات في هذا الوقت. إن السيد دي كنتي سيحاول استحضار بعض

التيوس من شامبور؛ لكي يتوالدوا من جديد. إنه يملك الوسائل، لو كان سيدي المركيز يرى ما أقول...

وقال موبران الذي لم يستطع إلا أن يشيع في لهجة مسحة من الكآبة والحسرة.

- نعم، إنني أرى.

واقترب قائد كلاب الصيد من المركيز، وأسر له:

- وهناك شيء آخر يضايق، لو أذن سيدي المركيز، فبالرغم من الاحترام الذي أكنه للسيد كنتي، إلا أنه لم يتعود ذلك كثيرًا. والحاصل، أريد أن أقول...

- إنك تريد أن تقول إنه لم يضع مؤخرته مطلقًا فوق جواد، أو جواده داخل حلبة.

- أما من ناحية ركوب الخيل، فسيدي مع ذلك يركب جيدًا. لقد أخذ مكانه وهو يتقدم. أما من ناحية معرفته للصيد بالكلاب فيا إله الغاب، إنه لا يعرف مطلقًا. لو تكرم سيدي المركيز، وساعدنا.

وتلألأت عينا السيد دي موبران سرورًا:

- بالطبع سأساعدكم كما تقول!

واستطرد القائد وهو يطبق في عصبية قلنسوته:

- وهناك أيضًا شيء آخر لقد بدأ السيد دي كنتي يفكر منذ وقت في هندامه. والحق يقال أظن أن هذا أمر لا يليق...

- يا إلهي، لماذا؟

وأسر لاروزيه بصوت مبك في أذن المريكيز:

- إن السيد دي كنتي يريد أن يرتدي بدلة خضراء بلون الزمرد مزينة بأزرار ذهبية، وسراويل بنية كالبندق، وصديرياً أبيض يميل إلى اللون الوردي، وأشرطة مفضضة من التي تميز الخبراء في الصيد بالكلاب. ولقد حاولت رسم ذلك بأنابيب ألوان ابني، إن سيدي المريكيز يشك في ذلك. فسنصبح بيغاوات حقيقية.

فقال دي موبران:

- تَبَّأ... -

واستطرد القائد وهو يفكر:

- نعم إذا سمح سيدي المريكيز، فليقل له كلمة، بلا تعمد ظاهر، قبل فوات الأوان...

* * *

كان الهواء يمر في نفحات رطبة بليلة، ويدفع أمامه سحب شهر يوليو المستديرة تلك السحب البيضاء الكثيفة المزينة التي تغري الأيدي بأن تلمسها.

أما السماء؛ فقد اغتسلتها النسمة القوية، فبقيت زرقاء، وجثا الغاب على حافة البركة، وأخذت أمواج صغيرة تتحرك بفعل التغير المفاجئ للهواء فوق الماء الهادئ، الذي كانت ألوانه المعدنية تتلون حينئذ بألوان قوس قزح. فإن هذه المياه الساكنة الهادئة لم تكن تلف في طياتها سوى معادن ملونة في حالة جمود عتيقة: رصاص خرده، وقصدير، انعكاسات

زجاج مغبر حيث تتفجر فقاعات رمادية فضية مسودة، إشعاعات فولاذ ملونة، ذهب كاب من كنز غارق. وأحياناً كانت أشعة الشمس القوية تضيء سيلاً من المعادن الذائبة فوق البركة. وكانت خضرة الغاب تضحك. ثم تمر سحابة أخرى فتبدد ضوء النهار ويخيم الحزن من جديد فوق مياه البركة التي تبدو وقتئذ كالزجاج المتجمد.

كان كنتي يبدو وكأن قد خاب ظنه. فلقد انهض المطاردون عددًا قليلاً من الكلفير وبط السفليز في بداية الصيد، ولكن أجفلت جماعاتهم، ثم هربت نحو الشمال بطيرانها الخشن. بعض الضحايا ولا شيء أكثر من ذلك. ومع وجود هذا الهواء لن يعود البط. ولقد رأوا زوجاً سيئ الحظ من بط الجيدل، ولكنه كان خارج المرمى، ولا واحدة من طير الجريب، ولا واحدة من البكاسين. لم يكن هناك ما يدل على وجود طير «الرال»، ولكن لحسن الحظ فإن بط الماء الذي كان قد جفل ومعه البط العادي كان يبدو أنه متأهب جميعاً للعودة إلى بركة لابرونيل، فأشار كريستوف دي كنتي بحركة ثم انبطح وسط الغاب: فإن ما يقرب من العشرين طائرًا كانت تقترب.

ولحق السيد دي موبران بكنتي.

- يجب إطلاق طلقتين على بركة (لافيه)، وبهذه الطريقة يمكننا أن نطرد بط الماء من بركة إلى أخرى - فما رأيك في ذلك؟

- اتفقنا يا عزيزي. أتريد أن تذهب إليها مع السيد بارفي تروازيبي الذي لم يصطد بعد شيئاً؟!

كانت بركة (لافيه) تقع على بعد ثلاثة كيلومترات من هناك. واتفق

على ألا يترك صيادو بركة البرنيل النار قبل عشر دقائق كاملة. وأخذ
المركز وزميله السيارة الجيب، ووجدوا الفرصة لأن يختاروا موقعاً حسناً
بين غاب البركة الصغيرة.

كانت الريح تهب والسحب البيض تمر. وكست ضربات الرياح
التي تشبه السياط زرقة السماء لوناً شاحباً. ومن وقت لآخر كانت تقفز
سمكة من الماء الساهم، ثم تعود وتسقط فيه محدثة صوت اصطدام
مبهم. وكانت بعض طيور البحر تطير بخفة آلية، وتنزل بجناح فوق
جناح، مرسلة صرخاتها الحادة التي تشبه صرخات الساحرات، والتي
تضيق وسط رجفات الغاب. كل هذا والماء الثقيل الذي تجري فوقه
موجات من الريح كان يبدو مثقلاً للغاية بالاكثاب والحزن لدرجة
تجعل المرء يتجه بفكره إلى ما قبل التاريخ في أعماق السنين.

وكان بارفي -وهو صاحب خيال- يراقب البركة المنعزلة كما لو
كان يخشى أن يرى خارجاً منها -وعلى حين غرة- هيكلاً أسود يسيل
منه الماء لحيوان مجهول...

- انتبه يا بارفي، بطات ماء في الهواء.

لقد أقبلت هذه حاجبة للضوء، مندفة في طيرانها كالصاعقة،
مادة للأمام أعناقها، مشدودة قوائمها يرسل ريشها أحياناً بريقاً أزرق،
لقد قامت بالدوران حول البركة ثلاث مرات مرات في هدير كهدير
الهفهاف دون أن تقترب من موبران، غير أن اتجاهها الأخير جعلها في
متناول بارفي الذي ما لبث أن أطلق عليها نيران بندقيته.

لم يقع طير واحد. واستمرت البطات وهي مذعورة دون أن تكتشف

للعُدو في الدوران حول الماء أربع دورات كاملة، أطلق خلالها السيد دي بارفي لمرات عديدة دون جدوى طلقتي بندقيته. ثم هبت نسمة قوية حملت البطات بعيدًا دون أن تُمس، واختفت تلك وهي تنهب طريقها في المساء نهبًا.

وفي بطاء وظهره مقوس، خرج السيد دي مويران من وسط الغاب صائحًا؟

- هب - ي - ب !

وبدا شبح بارفي المشوش، كانت آثار المعركة بادية على قبعته، وبندقيته ما زالت تدخن في يده، واقترب أحدهما من الآخر. فقال بارفي بلهجة المبتهج المتهلل:

- أرايت إذن؟ أرايت؟ إنه بط صيفي إنه بط صغير - بط ماء صغير جميل ويقىنا صيفي (أناس كوير كودولا). كان آتيا من بركة (البرونل) حيث لا بد أن يكون الآخرون قد أطلقوا عليه نيرانهم. وبدلاً من أن ينصرف، رجع إلى بركة (لافييه)، وتستطيع أن تكون على ثقة من أنه الآن في طريقه إلى بركة (البرونل) فهو إذن ليس طيراً مهاجراً... إنه طير مقيم يا صديقي الشيخ، ولقد قلت ذلك دائماً. إنه طير مقيم...

ووضع بارفي البندقية وحقيبة الصيد جانباً، وألقى بقبعته إلى الخلف، وتنهد، ثم أخرج من جيبه دفترًا وأخذ يكتب. وتفحص المركز هذا الشخص العجيب ووجهه محتقن من الغيظ، وهو يكاد يختنق، وعيناه السوداوان تحت حواجبه الكثة تتطايران شرراً، وأنفه المحدث يتهدد جمجمة بارفي كالمنقار.

وأخذ الزميل يكتب على مهل، غير مبال، ثم نظر إلى موبران.
- سوف ترى ما دونته. هذا يتلاقى تمامًا مع ملاحظاتي السابقة. لقد
قلت ذلك دائمًا...

ثم راجع في هدوء تام مذكراته، وتلاها بصوت عال.
- مطابقة لما تنبأنا به من قبل، فإن توسيع وتحسين البرك المجاورة
لغابات كنتي وشيفالييه جعلت كمية كبيرة من الطير المهاجر يحط
رحاله في هذه القباع. والبعض منها مثل «بوديسبس كرساتوس» أو
(طائر الجريب ذو الغرة) و(أناس كوير كودولا) أو بط الماء الصيفي قد
استولت في جماعات صغيرة على هذه المنطقة الحيوية الجديدة، ويبدو
أن (ميلفاس ميجرانز) أو (الحدأة السوداء) لا بد وأنها تقيم فيها لآجال
قصيرة... ماذا تقول في هذا؟

وفي هذا الوقت بالذات مرت بطة ماء منفردة على مرمى من
الرجلين، فأقفل السيد دي موبران بندقيته التي كان قد فتحها، ووضعها
فوق كتفه، ثم أطلق النار جهة اليسار، فإذا بالطائر ينتفض وهو في أعلى
طيران له على ارتفاع أكثر من ستين مترًا، ويصعد إلى أعلى ومنقاره
ممتد في نهم إلى هواء الله الطلق، ثم يسقط في قاع البركة كالحجر.
وكان بارفي ما زال يرتب دفتره، فلم يتأثر مطلقًا، وقرر بلهجة المنتصر:

- إذن يا صديقي الشيخ، ماذا تقول في هذا؟
وانفجر موبران الذي لم يكن هذا النصر قد هدأ من حدته، انفجر
قائلًا:

- يا إلهي، إنك تزداد حماقة يومًا بعد يوم! أأنت تصطاد البط، أم تصيد السمك، أم تخترع قواعد جديدة للغة اللاتينية، أم ماذا؟
وحدجه بارفي بنظرة ودية غير أنها غير قاسية، وقال:
-إنني أراهن على أنه لولاي لما لاحظ أحد منكم مثلًا استيطان (الميلفاس ميجرانز). إنكم لا تعرفون كيف تبحثون.

* * *

لقد استطاع الكاهن كعاداته أن يبتل حتى بطنه، كان يلهث من شدة التعب، ولكنه كان مبتهجًا متهللاً جريئًا. لقد اصطاد هو وحده إحدى عشرة بطة ماء، علاوة على واحد من طيور الكلفير، وزوجًا من طير (الإلبران)، هذا عدا قط تعس قتله بجانب صف من الحسك قرب البركة، وغراب بيّن ومالك حزين، وعصفورة من عصافير (الجريف) تناثرت أشلاؤها إلى الأبد إثر طلقة محكمة التسديد.

إحدى عشرة بطة ماء، تصاب وهي تطير بآخر سرعتها، ثم تسقط سقوطًا باهرًا، باسطة أجنحتها الوضاعة كمروحة من الريش. كان رأس الكاهن يطن بدوي الطلقات وفتح بندقيته وقرب أنفه من أنبوبة البارود، لا لشيء إلا لكي يتلذذ بشم رائحته. وعلى ظهر يده بدت ريشة صهباء رقيقة ترتجف مثبتة بنقطة من الدم المستديرة كخاتم من الشمع.

وكان جونتران في شدة الغيظ؛ فإن كل ما اصطاده هو ثلاثة عصافير. وكان التركي أقل منه حظًا. أما كريستوف دي كنتي فقد اصطاد صيدًا لا بأس به، وأما المركز فقد جمع في حقيبة صيده ما يقرب من الاثنتي عشرة قطعة.

إن بارفي يتمم مدعيًا أنه أصاب فرخ غاب، وأنه متأكد من أنه
رآه يسقط. وبحث زوج من كلاب السيد دي كونتي العظيمة التي
من نوع (الجلدان ترفرز) عن الفرخ دون جدوى أمام عين الحراس
الساخرة...

وفي المبنى المخصص لرحلات الصيد، كانت تنتظرهم كتلة من
عجائن اللحم الريفية، ودجاج بالهلام، وبعض المرطبات. لقد كان
المركز تواقًا لأن يرى ما استطاع كريستوف دي كنتي أن يجعل من
هذا المبنى الذائع الصيت، فدخل إلى قاعة الصيادين. لقد كانت تحتل
الطابق الأرضي في البناء وبها نوافذ عالية مضيئة، وسقفها منقوش باللون
الأحمر والأخضر، تصطف على طول حوائطها لوحات زيتية بالحجم
الطبيعي لقطيع السيد دي كنتي الجديد من كلاب (الأنجلو- بواتفان-
سانتيجه). كان منها هنالك أكثر من الثلاثين كلبًا مرسومة في أوضاع
مختلفة: وهي واقفة في دلال، وهي تتهرش، أو في منظر أمامي لها وهي
ترقد في وداعة، أو متمددة كالكلاب السلوقية التي تنقش على بعض
شعارات الأشراف، وهي تعوي أو أسنانها تصطك أو هازة آذانها أو مادة
إحدى قوائمها، متمرغة فوق الأوراق الذابلة أو مندفعة بكامل سرعتها
خلف فريسة غير مرئية. وهذه الكلاب السود اللامعة كانت تشكل سرًّا
هائلًا يرتعد المرء عند سماع نباحه.

وقف السيد موبران بالقرب من العتبة، وظل جامدًا لبضع ثوان، ثم
دخل وهو يقول بصوت منخفض:

- تَبَّاه!

ثم رفع عينيه، ورأى مرة أخرى السقف الملون بالأخضر والأحمر
الرائع، فقال للمرة الثانية:

- تبّاً له!

وبلغ الكاهن والتركي وجونتران المائدة صامتين، ونزولاً على
دعوة كنتي جلسوا حولها. في هذه اللحظة بالضبط دوى صوت نديّ
قرب الباب:

- سعدتم صباحاً.

لقد دخلت ديزي لتوها وهي ترتدي سروالاً لركوب الخيل وسترة
سوداء، وفي الياقة رباط عنق أبيض به دبوس ذهبي، وتهز في يدها
سوطاً، وتضرب به فوق حذائها ذي الرقبة.

- هل أنت بخير يا كريستوف؟

واصفر وجه السيد دي كنتي، ثم احمر، ثم اصفر ثانية، وهب واقفاً.

- إنه ليسرني جدّاً أن أكون في شرف استقبالك في (البرونيل) يا
آنستي بعد أن فقدتُ الأمل في ذلك...

ثم قبّل يد ديزي، مما جعل أحد حاجبي المراكز يرتفع إلى أعلى
كرقم ثمانية، ولونه العادي الأصهب يصبح أحمر داكناً.

وقالت جان ديريه التي كانت تدخل القاعة بدورها:

- سعدتم صباحاً.

كانت تلبس هي الأخرى سروالاً لركوب الخيل. وأزاحت جانباً
شعرها الأشقر الذي كان يتهدل فوق وجهها. ووقف المراكز والكاهن

والتركي وجونتران.

كانت جان تبدو وكأنها ملاك التوفيق والرحمة والعفو. وألقت بنظرة إلى السيد موبران، وصافحت كنتي، ثم جلست بجوار جونتران. وقالت ديزي وهي تتأبط ذراع كنتي:

-أواه يا كريستوف، كل هذه الكلاب!

وظل السيد دي موبران واقفًا. وكانت عيناه السوداوان تتطايران شررًا. إن أدب الضيافة نحو مضيفه يمنعه من أن يطلق لغضبه العنان. وظلت ديزي تتحداه بنظراتها وتعامل كريستوف دي كنتي على أنه السعيد الذي وقع عليه اختيارها وتنتقم من والدها بطريقة شخصية... ونظر المركز في ساعته، ثم قال:

- لم يبقَ لنا يا عزيزي كنتي إلا أن نشكر، إن الصيد كان بفضلِك ممتعًا، وأظن أننا سنتركك الآن.

وأشار كنتي وهو مذهول إلى الأطباق التي كانت لا تزال ملأى إلى نصفها والزجاجات التي لم تمس تقريبًا:

- ولكن نحن لم نجلس إلى المائدة إلا منذ لحظات...

وقال السيد دي موبران متظاهرًا بأنه لم يسمعه:

- هيا بنا! إننا راحلون.

وعاد الكاهن والتركي وجوانتران بسرعة، وبحركة واحدة دون سابق اتفاق - فاغترفوا من أطباقهم، وابتلع كل واحد منهم قضمه كبيرة من عجينة اللحم، ومعها قضمه أخرى هائلة من الخبز، وعب كل منهم

كوب نبيذ (البولينى منراشيه)...

وقالت ديزي وهي تلاطف والدها:

- أأنت راحل الآن يا أبى؟

وابتسم السيد دي موبران:

- إنني راحل وسأصحبك معي!

وأجابت ديزي بأقصى ما تستطيع من الوقاحة وهي تمر بإصبعها
بإهمال فوق الدبوس الذهبي:

- كلا، أظن أنني سأمكث هنا لبعض الوقت. إن هذا البناء يعجبني
كثيراً...

واقتربت جان ديبريه من السيد دي موبران، ووضعت يدها فوق
ذراعه. وأعاد المريكيز، وهو محتقن الوجه، ولكن دون أن يرفع صوته:

- أظن أنني قلت لك منذ لحظة إنني سأصحبك.

وقالت ديزي وهي تبتسم ببشاشة:

- إنني بالغة، إنني أبلغ الخامسة والعشرين.

وقال المريكيز بصوت هادئ وخلف ظهره كانت يداه تتشابكان من
شدة الغضب:

- إنك بالغة، ولكنك عندي.

- لا يا أبى، إنني في ضيعة (البرونل) عند كريستوف دي كتي.

- كيف حضرت إلى هنا؟

- على ظهر جواد.

- على (أرميتز)؟

- بالطبع يا أبي، لقد أخذت جان (أتوس)؛ لأنه أرق طبعًا...

والتفت السيد دي موبران نحو كريستوف الذي كان يبدو عليه الذعر، والذي لم يكن يدري على الإطلاق كيف يتصرف:

- أرجو أن تعذرنا يا سيدي.

كان ذلك بأدب، ولكن بلهجة جافة، واستطرد المركيز بعد أن استعاد كامل هدوئه:

- ديزي، إنني أترك لك الخيار: إما أن تعودني بصحبتني إلى موبران، أو من دوني. في الحالة الأولى ستتكلم عن مسلكك، ولكن في الحالة الثانية لن نتكلم عن شيء قط؛ لأنك ستتركين موبران غدًا صباحًا.

وفي هذه المرة لم تثار الفتاة إلا ثأراً بسيطاً، فمدت يدها إلى كنتي كي يُقبلها مشهدة إياه على ذلك، متمردة، على حين كانت عيناها السوداوان اللتان تتطايران شرراً من الغضب تكذبان نغمة صوتها الفرحة.

- هل تتصور يا صديقي المسكين كريستوف مقدار ما كان يستطيع أن يؤديه رجل كأبي في العصور الوسطى.

ورفع المركيز حاجبيه الكثيفين، وقاطع ديزي وهو يضغط على فكيه ويتسم آخذاً ذراعها. ولا بد أنه ضغط عليها بشيء من العنف؛ لأنها أرسلت صرخة ضعيفة. ودون أن يتركها، انحنى المركيز أمام كنتي:

- يجب أن نشكر مرة أخرى يا سيدي على هذا اليوم الرائع
للصيد، ونأسف أن جعلناك تشهد بعض منازعاتنا العائلية...

ووضعت جان ديبريه وهي تمر من أمام السيد دي موبران يدها فوق
ذراعه برقة مرة أخرى دون أن تنطق بكلمة، وكان لهذه الحركة البسيطة
مفعولها المهدئ، فانبسطت أسارير المريكز. ثم استقروا على أن تعود
جان ممتطية الجياد يصحبها جونتران راكباً أرमितز.

وقال الكاهن وقد ترك لنفسه أن تظهر كل ضيقها:

- كم أنا جوعان!



الفصل السابع

«المركز دي رميكور بورانج دي موبران يشكر سمو السيد أمير
كتني على دعوته الرقيقة التي سيتنازل بتليبتها هو وكل حاشيته ومعداته»
كان السيد دي موبران يتفحص بطاقة دعوته الشخصية والنص
المضحك والكتابة الرديئة التي تكشف عن يد التوأم الآثمة، هذه البطاقة
أحضرها منذ قليل سائق كريستوف دي كتني ومعها خطاب:

«صديقي العزيز،

البطاقة التي أتشرف بإعادتها إليك أرسلت إليّ بالبريد. إنها تتعلق
بدعابة بريئة أمتعتني قبل كل شيء، ولكنني حرصت على ألا تبقى
مجهولة لديك.

صديقك المحب

كتني»

- «صديقه المحب كتني»، «ألا تبقى مجهولة لديك» لقد تخلص
الحيوان من الموقف بمهارة. «صديقه المحب» إني لأقولها كلمة
شرف، إنه من طول حمله للقب «أمير من دم ملكي» سينتهي به الأمر
إلى محاكاة أصحاب السمو الحقيقيين. ولن يتمكن أحد فيما بعد من

الوقوف في وجهه.

وفكر المركز لحظة «هذان التوأم الملعونان!» إن قريحتهما تعج بالآفكار. وكنتي لم يفرغ من الابتكار. سأعاقبهما! ولكن كيف؟ لا أستطيع مهما كان أن أضعهما تحت الرقابة المشددة أثناء العطلة. وهذا لا يجدي كثيرًا. أأتركهما على الخبز الجاف والماء؟ كلا. أعطي لهما مقدارًا هائلًا من الكتابة وهما هنا في العطلة؟ كلا إنني لا أرى إلا شيئًا واحدًا: حزامي...».

كان المركز يحتفظ بمجموعة هائلة من السيور والأحزمة «وفرقات» الكرابيج وأطواق الكلاب وأنواع أخرى، فاختار واحدًا منها، ثم أخذ يضحك عاليًا. «التي سيتنازل بتلبيتها» يا إلهي! إنهما لعلّى حق، هذان الولدان...».

وصمم السيد دي موبران على أن يكون مكان التنفيذ هو برج «برنهو» في حجرة التوأم المنعزلة تمامًا، فقد كان يريد أن يكون هذا الإجراء على درجة من الكتمان. إننا إذا لم ندخل في حسابنا اللكمات القوية، وضربات العصا فوق الأصابع، فإن آخر عقاب جدير بهذا الاسم يرجع تاريخه إلى عام ١٩٥١ أي منذ عامين مضيا، فقد بكى التوأم ما شاء لهما أن يبكي، ودام السلام بعد ذلك ما لا يقل عن خمسة عشر يومًا.

كان موبران يمسك في يده حزامه الكبير المجدول ويضرب به الهواء بشدة، وهو يستدير في ركن الدهليز عندما قابل جان ديرييه. فاحمر وجهها وحيته بإيماءة صغيرة جميلة من رأسها، وعندما همّ المركز بالانصراف، سألته:

- ترى ما الذي فعلاه ثانية؟

ونزع المريكز غليونه من فمه ودار على أعقابيه:

- مَنْ؟ أجل صحيح، ولكن كيف أيتها الشيطانة...؟

ووضعت يدها فوق ذراعه مثلما فعلت عند كنتي.

- يبدو لي بوضوح أنك ستضرب التوأم.

- وماذا إذن يا جان؟

- إذن أظن أن هذا لا يصح يا سيدي.

لم تكن بعد قد رفعت يدها، فاستشعر المريكز شبابها وحرارتها،
وتقهقر خطوة إلى الوراء. وعقد ذراعيه فوق صدره، ثم تفحصها بحزم
وشدة:

- جان يا صغيرتي إنك تبالغين، كلا دعيني أتكلم. إنني أعرف
تماماً أنك تريدين مرة أخرى أن تتشفعي - كأكرم شفيع في العالم،
ولكن الكرم نفسه ربما كان أرعناً.

فأجابت بثبات ودون أن تغض بصرها: «ويل لي»... ثم أعادتها مرة
أخرى بصوت أضعف... «ويل لي...».

- لو قد تعرض لي أي شخص سواك لرجوته أن يتركني وشأني.

- يا صغيرتي؛ هذا كل ما هنالك. أما أنت يا جان فسأطلب منك
أكثر من ذلك. إنني أطلب أن تفهميني. إنني وحيد. وأولادي ليس لهم
أم، وبيتي دون روح. لست أنا الذي أذكر بعدم وجود سيدة هنا، فإنني
أعرف ذلك أكثر من أي شخص في الوجود، ولكن يجب أن أكون قاسياً

مع هؤلاء الصغار أتفهمين؟ وإلا جرف التيار السفينة...

وتقدم نحو جان وأمسك بذقنها وأدار وجهها نحو وجهه برفق.

- أتفهمين يا جان؟ إن أولادي لم يتمتعوا بما يكفيهم من حنان، ولهذا يجب أن أكون الآن شديدًا معهم.

وأسندت رأسها إسنادة غير ملحوظة إلى صدر السيد دي موبران، ثم ما لبثت أن انتزعت نفسها في حرارة، وقالت له وهي تبسط يديها:

- نعم إنني أفهم، أنت على حق في مجمل الأمر بالرغم من أنك تذكر الأشياء بطريقة... بطريقة غريبة بعض الشيء. ولكن هذا لا يمنع من أنك سترتكب حماقة بضرب التوأم. ماذا؟ ستضربهما بالسوط؟ وفي مثل سنهما؟ إنهما يرهبانك، ولكنهما يعتزان بنفسيهما. هذا شيء لا يمكن أن تفعله الآن، إنهما كبيران جدًا...
وقست نظرة المركيز.

- حسنًا. هذا يكفي الآن يا جان. إن التوأم ما هما إلا طفلان! طفلان! أسمعين؟ كبيران جدًا! إن لديك تعبيرات...

وأدار ظهره لها بغتةً، وانطلق في خطوات واسعة إلى برج «برنهو».

* * *

كان التوأم محتقني الوجه أثناء الغداء، يتلمان فوق مقعديهما، وكان واضحًا أنهما قد أنخنا بالضرب تمامًا، وكان المركيز في منتهى المرح. يلتهم الطعام بشهية جهنمية. أما الخالة كوريزاند دوقة بوتفيل؛ فكانت تطري بطيبة مترفة شابًا محترمًا قد دخل العائلة لتوه بزواجه من

إحدى حفيدات قرية السيد دي موبران من بعيد جدًا. هذا الشاب لم تكن له سوى هواية واحدة في هذه الحياة، ألا وهي الصين، التي لم يكن قد رآها قط في حياته. وعلى الأخص الصين في القرن العاشر الميلادي؛ التي لم يكن حتى يستطيع أن يأمل في رؤيتها. إنه يدرس اللغات الشرقية في مؤسسة جامعية بالمقاطعة.

وقال ببلادة إدوار الذي كان يعرفه بعض المعرفة:

- إنه قوقعة تربوية؛ لكن في الوقت نفسه ليست مؤذية.

ولكن الدوقة الماهرة كانت من أولئك اللاتي لا يقهرن لقوتهن البلاغية:

- لا تذكر القواقع بشرّيا إدوار؛ فإنني أعبدها، ولا المدرسين أيضًا؛ فإنني أعبد المدرسين.

وأفحم إدوار من أقصر الطرق، واستأنفت الخالة كوريزاند حديثها بانتصار. فإن آيات الشاء كانت تنساب من شفيتها المتفتختين وتنضر لبها؛ لبب السيدة الشيخة اللطيفة، وارتفع قدر الشاب المأخوذ بالصين. ثم أبدت الخالة ماتيلد التي كانت تتألم للزيجات غير المتكافئة كما تتألم من جراح نصيبها شخصيًا هذه الملاحظة:

- إن أهله ليسوا من القوم المعروفين.

وأجابت الدوقة التي ارتفع صوتها فجأة إلى طبقة موسيقية أعلى:

- هذا أمر جلبي؛ فهو ليس من وسطنا، وهذا أدعى إلى الاعتراف بفضله.

وسأل إدوار وهو يتميز غيظاً:

- بأي فضل؟

قالت الدوقة بلهجة آمرة:

- إنك تعرف جيداً.

وأمسك إدوار عن الكلام معتبراً أنه سجل احتجاجه. ومع أنه كان مجادلاً لا يُبارى، إلا أنه لم يكن يعرف مطلقاً بماذا يجيب على الخالة كوريزاند.

وسمع صوت الخالة ماتيلد من جديد منغوماً تشوبه رجفة خفيفة.

- لك الحق في أن تقولي ما تشائين يا كوريزاند العزيزة، ولكني ما زلت للآن أتساءل ماذا فعل هذا الولد الذي لا يساوي شيئاً لكي يدخل في عائلتنا؟

واشتعلت وجنتا دوقة بوتفيل المترفتان حمرة، والتفتت مستشارة إلى مدام دي لاسيرنيير بأقصى سرعة تمكّنها منها هيبتها:

- لقد دخل إليها كما خرجنا منها نحن جميعاً رجالاً ونساء يا عزيزتي ماتيلد. عن طريق النساء!

وانتهى الحادث عند هذا الحد.

كان التوأم بالتأكيد تنقصهما البشاشة والجدل، ولم تُلقِ جان ديرييه ولو بنظرة واحدة للسيد دي موبران، إنها كانت تحاول أن تسترعي انتباه جونتران، كانت تتوق بالطبع إلى أن تفضي إليه بما يدور في خلدّها، فإن تعبيرات وجهي أوزمون ولوي سيزار الحزينة لم تخف عليها. ولكنها

على الأخص كانت تخشى ما سيحدث بين المركز وديزي. وكانت صديقتها قد أسرّت لها: «إن أبي لم يقل كلمة منذ أمس منذ أن كنا عند كريستوف»، ثم أضافت: «ثم أتعرفين أنني لا أخاف منه ولن أتخاذل إن الشيء الوحيد الذي يربطني به بعض الشيء هو موبران، وسيكون في استطاعته أن يطردني منها، وهذا ما لن أستطيع تحمله»... بكل تأكيد لن تتخاذل ديزي، الإباء والكبرياء الفارغة هي دائماً التي يبدو أنها تسيطر على هذه العائلة، كالقانون كالديانة المنزلة. كان السيد دي موبران ذا روح متوثبة الغضب، وعزيمة من حديد، وكان إصراره عنيداً كإصرار السادة الأصلاء. ومع ذلك لم يكن بالقوة التي تمكنه من معاملة أبنائه كما كان يفعل. لا يوجد في العالم امرؤ قوي بما يكفي.

أخذ بول يقدم الجبن على صينية من الخزف، وصاح التركي مهلاً صيحة انتصار الذواق عندما اكتشف بين الأنواع «التقليدية» نوعاً محبباً إليه، أكثر طراوة، ودسماً، وأشد رائحة من باقي الأنواع ألا وهو جبن «أبواسي».

- هذا هو النوع الأحسن، الحقيقي، الوحيد الذي لا مثيل له! وأقول لكم صراحة إنني كنت في انتظاره. لماذا لم نر شيئاً منه قبل الآن؟ أؤكد لكم أن هناك أنواعاً كثيرة من الجبن في تركيا، ولكنها ليست طرية ولا دسمة ولا تفوح لها رائحة. إنها بغير روح.

لقد وضع رئيس الخدم للخالة كوريزاند -وهي شاردة- قطعة كبيرة من جبن «الجروجونزولا»، فنادته بإشارة من يدها، وبدلت بهذه القطعة قطعة من جبن الماعز العادية. فأسف لذلك السيد دي موبران؛ لأنه كان

يسهر شخصيًا على أصناف جبنة، ويختار بنفسه أنواعه الفاخرة.
- ما هذا يا عزيزتي كوريزاند؟ ألا تريدان أن تتذوقي إنتاجي من
جبنة «الجروجونزولا»؟

وأجابت الدوقة بثبات، وبامتعاضة اتهام، أغنتها عن كل شرح:
- إنني لا أتناول منها على الإطلاق، بسبب «زولا» ذلك الرهيب.

* * *

«على المرء دائمًا أن يتمثل في نفسه أولاً محضر الله، ثم أن يعيش
بهذه الطريقة التي هي بشكل ما طريق للتقرب منه، وعلى المرء أن يتابع
بكل ما أُوتي من قوة السير في الطريق الذي رسمه له الله، ولكن كل
حسب ما ناله من عون الروح القدسي، وكذلك بالقدر الذي يلهمه به
الله، وهذا لكي لا يبدي المرء حماسًا غير ذكي».

«من مبادئ اليسوعيين».

«إن جحا فل الجماهير التي تتجه نحو الإيمان في هذه البلاد لكبيرة
جدًا، ولطالما تعب ساعداي من كثرة تعميدها، وبُح صوتي من كثرة
ترديد نصوص أسس الإيمان والوصايا».

«سان فرانسوا كسافييه».

«إنني أحاول الضحك مع مَنْ يضحكون، وأغني أحيانًا مع مَنْ
يغنون، وأجرب البكاء مع الذين يبكون، وسأرقص من أجل أي شخص،
إذا تأكدت من أنه سيستفيد برقصي».

«جاسبار بر ازيه س.ج.»

إن الأب فيليب دي موبران يقطع الطنف طولاً وعرضاً في هذا الجوار الحار الذي تطف من حرارته أغصان شهر يوليو المورقة. لقد أتم قراءة كتاب الصلاة، وكعاداته أخذ يعيد قراءة بعض النصوص من كراسة ملاحظاته الكبيرة الحجم التي لا يتركها في الغالب على الإطلاق. إنها نوع كبير من المفكرات «أجندات» ركب حولها حزام حديدي وقفل كبير، إن وزن وحجم هذه الوثيقة مناسبان ليدي فيليب الكبيرتين؛ لقد كان يدون بها -وفي غير نظام- ما يعن له من أفكار أو حكم أو ملاحظات أو طرف، ينقلها من كتابات أو أحاديث الآخرين، كما يدون من فقرات الإنجيل والكتب المقدسة ما يجد لنفسه خيراً مباشراً، ومقتطفات من مبادئ الجماعة.

كان فيليب يجيد الكتابة بشغف واسترسال أصيلين، ولكنه لم يكن يستلذ الأدب، ولم يكن يهتم بالبريق الذي ينبثق بإعجاز من تقارع الألفاظ. إنه يختار ملاحظات كراسته الشهيرة بقصد التقوية، وحماية النفس، وتسليحها تسليحاً له قيمته في كسب المعركة الروحية، ومغامرة من يصبح رسولاً دينياً. إنه يستحضر حقائق أساسية، وقواعد مبسطة، والتزامات واضحة، ينمحي أمامها الشك كما يمحو ضوء الفجر بريق النجوم. كان له نفس قائد جريء مجرب، إنه لم يكن يريد أن يخرج للعدو دون أن يتسلح، ولذا فهو ينقل معه دائماً مفكرته كخزانة للأسلحة. وكان يردد عن طيب خاطر صيغة طلب تطوعه في الخدمة الدينية، مستخرجاً من «إيناس دي لوابولا»: «أنا فيليب إيجيه جاسبار دي موبران، أتعهد أمام الله العلي القدير وأمامك أيها الأب الورع الذي

تقوم مقام الله، أمام العذراء أمه، وكل بلاطه السماوي، وعلى محضر من الجمعية، بأن أكون فقيرًا إليك حتى النهاية، طاهرًا، مطيعًا، وأن أحيّا حسب طريقة العيش المبينة بأحكام جمعية سيدنا يسوع».

إن هذا يكفيه عن أي معونة أخرى. لقد كان فيليب يمضي فترة نقاهة في موبران إثر إصابته بحمى التيفود، وكان يشعر باستعادة صحته يومًا بعد يوم، ويزداد ثقة بقواه العقلية والجسمية. ولكن مهمة (إرشاد الأميين) كما يقول إنياس دي لوايولا بالذهاب بعيدًا لنشر تعاليم الإنجيل، وممارسة التبشير رأسًا وبقوة أسوةً بكسافيه، كانت تفرّعه. لسوف يصبح مبشرًا، وكان ظنه بأنه غير أهل لذلك يتزايد يومًا بعد يوم. «إنه لكبير هذا الحشد من الناس الذين يتجهون نحو الإيمان...»

لقد كان فيليب يقول لنفسه:

- إنني غير أهل لنشر تعاليم الإنجيل بين السود، غير أهل لأن أعرفهم يسوع المسيح. كان باستطاعتي أن أكون أستاذًا لمبادئ الرياضة بإحدى مدارس اليسوعيين الصغيرة في فرنسا. وبدلاً من ذلك فهأنذا أخوض الطريق الذي كان يجب الاحتفاظ به للقديسين.

إن رؤساء فيليب طمأنوه بشدة من ناحية هذا الأمر قائلين: لا يمكن أن تقوم أنت بالحكم على أهليتك ومزاياك، إننا جميعًا غير أهل للتبشير بالإنجيل، ولكننا جميعًا مدعوون لتقليده. قم إذن بالمهمة التي أسندت إليك طائعًا أيها الأب فيليب دون أن تفكر مطلقًا في ماهيتها أو على الأقل لا تفكر فيها إلا لكي تستعد لها بكل قوتك...».

إنه لم يرَ بأسًا في أن يطيع؛ فإن الطاعة فضيلة أرسقراطية، وحرقة الجندية قد شككت أجيالًا طيعة عديدة من آل موبران على مر القرون. ثم إن القديس إنياس كان يضع الطاعة فوق كل شيء، عدا المحبة.

«لقد كان القديس إنياس نفسه جنديًا. وإنني أشبهه تمامًا في ما سبق له من الإفراط في المسرات، ولعب السيف بمهارة، والانحدار من أصل نبيل...».

ولم تعترِ فيليب أي كبرياء بسبب هذه المقارنات التخطيطية، إنما كان يريد أن يشجع نفسه. ولكنه كان يعرف نقائصه جيدًا، وحدوده التي لم يكن قط يتسامح فيها رؤساءه: التشبث بالرأي مع شيء من قلة التمييز وحسن الإدراك، وشدة الثوران والعنف، مما كان لا يتيح له أن يلم إلا بوجه واحد للمسائل (وعلى الأخص عندما كان الأمر يتعلق بالمشكلات الاجتماعية)

«لكي لا يبدي المرء حماسًا غير ذكي».

وفي مفكرته كان فيليب قد دون في مناسبات عديدة: «أن أنجرد». ولم يكن بعد قد توصل إلى ذلك على الإطلاق، فهو يعرف أنه شديد التعلق بموبران، تربطه بقلبه وأرومته أواصر غامضة لا تنفصم. لقد حارب في الجيش الأول سنة ١٩٤٥ فأحب الحرب، ولم تزل هذه الذكريات التي تفوح منها رائحة البارود والدم متسلطة عليه. ثم هناك أشياء أخرى: فقد روض فيليب نفسه حتى أعماقها، وبكل روحه، ونذر لها للطهارة والافتقار إلى الله دون جهد كبير، ولكن جسمه الضخم القوي والدم الذي يغلي في عروقه كانت تقتضي غذاء قويًا، وقدراً يوميًا

من المجهود البدني. لقد كان يُعاني من بطش جسده.

«أن أتجرد».

تحت سماء شهر يوليو الزرقاء كان الأب فيليب يعيد قراءة مفكرته الضخمة صحيفة صحيفة: «فإنه في مدى شهر باليوم سيكون في داخل منطقة تشاد، رسالته ودعوته هي تحويل الجماهير الغفيرة إلى الهدى والإيمان».

إنه حائز على درجة الليسانس في علم اللاهوت، ولم يكن نيل الإجازات أمامه عقبة ذات أهمية. إن روحه الرياضية كانت تمتزج بغير جهد بكل ما هو عظيم أو جامد في المنطق. ولقد فكر في نفسه: إن المصاعب تبدأ عند نشر الرسالة، وأما الباقي فشيء ليس له أهمية.

إنه كان يود الذهاب إلى الصين الشيوعية، حيث يجد المخاطرة الجسمانية والحرب، أو بمعنى آخر أبسط تجارب المؤمن. كان متشوقاً لأن يكون هناك بصحبة الثلاثمائة وثلاثين عضواً تقريباً من اليسوعيين، الذين يتحدثون الموت باسم سيدنا يسوع المسيح الشهيد: لم يكن لدى فيليب الجرأة لكي يشكل هذين المقطعين في كلمة يلفظها أو معنى يتصوره. ولكنه -وبطريقة لا تقاوم- كان يعرف أن اتجاهه هو الأماكن التي يحتاج الحصاد فيها إلى دماء. لماذا إذن منطقة تشاد؟ وتمتم وهو يطوي مفكرته:

- فليرسلوا أفضل المتطوعين لتعليم حياة المسيح، وأقلهم شأنًا للموت في سبيله.

ثم طرد هذه الخيالات. وبالرغم من أنه لا يستسيغ اللغة اللاتينية أكثر اللغات موتًا. فإنه استعاد هذه العبارة السحرية التي ستلخص له من الآن فصاعدًا كل شيء «لزيادة مجد الله».

* * *

- اجلسي يا ديزي.

كانت لهجة الجملة لا تحمل شيئًا من الرقة على الإطلاق. لقد كانت أمرًا.

- إنني لن أحاوركِ. لقد كان سلوككِ أفس عند هذا الحيوان الملقب بكتتي شنيعًا!

وكانت ديزي رابضة على كرسي مبطن كبير تحديق في والدها:

- لا داعي لنعته يا أبي!

وامتلأت عينا السيد دي موبران السوداوان بتعبيرات غاية في السخرية والقسوة:

- ما الذي جرى بينكِ وبين كتتي بالضبط؟

- هذا أمر لا يخص سواي يا أبي.

- كلا إنه يخصني. إنني أريد أن أعرف كل شيء عنكِ يا ديزي،

لا تحدثيني على الأخص عن كبر سنكِ، إنني أسخر من هذا الأمر ولا أعيره اهتمامًا. لكن أريد أن تقولي لي كل شيء خاص بك، ما دمت أنا في آن واحد أبا لك وأما.

وصاحت ديزي بصوت أصبح حادًا كصوت الطفل:

- كلا يا أبي... لست أمًا لي!

واستطرد السيد دي موبران:

- ما دمت أقوم مقام الأب والأم معًا. ومع هذا فقد أعطيتني كلمة بأن تقولي لي كل شيء، أليس كذلك يا ديزي؟

- نعم لقد أعطيتك كلمة، أو على الأصح كلا، فقد انتزعتها مني ذات ليلة كنا نتبادل فيها الثقة أنا وأنت، ولكنني أسحب كلمتي! إنني لم أكن أدري أن ذلك مستحيل أنسمع؟ مستحيل لم يكن من الواجب إطلاقًا أن تطلب مني هذا الطلب! إطلاقًا إن الوالد لا يستطيع أن يحتم على ابنته التي تبلغ الخامسة والعشرين أن تقول له كل شيء. لا يمكن لرجل أن يحتم هذا على امرأة، حتى ولو كانت زوجته.

- ديزي، اصمتي!

- إننا لسنا على الإطلاق في عصر أحزمة العفة!

ووقف السيد دي موبران، وبحث بعينه أليًا خلال تشكيلة «الأحزمة» والسيور عن حزامه الثمين الكبير المجدول.

فسألته ديزي التي كانت تريد أن تضع في سؤالها أقصى غايات الوقاحة:

- ألا تجد سوطك المفضل؟

ولم يحرم المركز جوابًا. إنه يتذكر جيدًا أنه وضع الحزام مكانه بعد أن ألهب به التوأم، من الذي أخذه؟ منذ زمن بعيد والوصيفة جيرمين؛ التي تحب سيدها وترهبه، لم تكن تجرؤ على تحريك دبوس في حجرتة

بغير إذنه... إذن؟

واستطردت ديزي بصوت ساخر يملؤه الغيظ:

- إنني لا أفترض بحال أن يخطر ببالك أن تضربني أنا الأخرى.

ولم يفضل السيد دي موبران بإجابة مباشرة.

- بما أنك لا تريد أن تقولي لي شيئاً بخصوص كنتي الشهير،
فسأقول أنا لك شيئاً جميلاً يا صديقتي الصغيرة: لا يمكن أن يتم بحال
زواج بينكما ما دمت حياً - أو على الأقل بموافقتي.

وقالت ديزي:

- حقاً؟

وقال الماركيز في جد:

- كل الحقيقة.

- وهل من الممكن معرفة السبب؟

- السبب هو أنني قلت ذلك.

واعتدلت ديزي فوق كرسيها، وظلت نصف منتصبّة رقيقة لينة
ترتجف وتتمايل بعض الشيء.

- كلا يا أبي كلا! هذه المرة لا تتخلص من الأمر بإصدار فرمان
قيصري؛ لأن هذا يتعلق بي... أنفهم؟

- عندما يتعلق بك فهو يتعلق بنا جميعاً.

- أصغ إليّ يا أبي، إنني أطلب منك أمراً في غاية البساطة. للمرة

الأخيرة، هل لك أن تخبرني لماذا تعارض في زواج قد يتم بين كريستوف وبينني؟

- إنك تعلمين أنني لا أقبل أي نوع من أنواع الإنذار.

ورأت ديزي أنه سيحبها، فأسرعت تقول:

حسنًا إنني أسحب (للمرة الأخيرة)...

كان المركيز يزرع المكان طولًا وعرضًا، وكان قد انتهى إلى انتقاء سوط من سياط الصيد، أخذ يضرب به فوق حذائه ضربات خفيفة وهو يتكلم.

- إنني سأشرح لك في الحقيقة الأسباب التي من أجلها أعارض أي مشروع للزواج بينك وبين هذا النوع من الأراجوز. إن هذا الكنتي ليس بكنتي، وهذا الأمير ليس بأمير، وهذا السيد يحمل وهو في سن الأربعين وسام جوقة الشرف لم يَخُضْ حربًا. وهذه الأسباب الثلاثة تبدو لي كافية. أما إذا لم تعجبك هذه الأسباب، فإليك السبب الرابع الذي سينهي المجادلة. لقد قمت بتحريات حول هذا السيد، فوجدت أنه سيئ السلوك فاسق وبشدة.

- يا سيدتي العذراء! يا والدي، ألم تفكر في أنه لم يتزوج بعد، وكادت سنه تزيد على الأربعين؟

وأوقف المركيز سيره تمامًا وضرب حذائه ضربة قوية.

- لم يتزوج.. أتظنين أن هذه لهجة فتاة شابة؟

ضربة ثانية فوق الحذاء.

- إن صديقتك جان مثلاً، التي لم يهيا لها بالتأكيد تربية مثل تربيتك، لا يمكن أن تتكلم بمثل هذه الطريقة الحوشية!

- ماذا تعرف عنها؟

وظل المريكيز مرتباً لفترة.

- إنني أفترض ذلك. وعلى أي حال فقد سمعتها تتكلم.

- حسناً، حسناً لا تصبح في مثل هذا الحال بمجرد ذكر اسم جان يا أبي...

والتفت في حدة السيد دي موبران الذي كان قد استأنف سيره جيئة وذهاباً وأخذ وهو منفرج الساقين وسوطه في يده يحقق بنظره ملتعبة حالكة من تحت حاجبه الكثيف في عيني ديزي مباشرة.

- هناك أحد أمرين اثنين: إما أنك تريدان استشارتي فتستحقين على ذلك الصفح، أو إنك تعنين -لست أدري- أي أمور، وهكذا تخفين نفساً غاية في البذاءة خلف ستار من المظاهر الرقيقة.

واعترفت ديزي بالضربة، ولكن في الوقت نفسه لم يكن معينها قد نضب فأجابت بشدة دون أن ترفع صوتها:

- لا تحاول أن تغير مجرى الحديث يا أبي. إن الأمر بأكمله متعلق بي، بي وحدي. إن كريستوف ليس أميراً وليس بكتتي، وليس بطل حرب، ولا بكراً وهو في سن الأربعين، ولهذه البواعث ترى أنت أنه يجب ألا أتزوجه. أما أنا فأجد أن تلك البواعث غير كافية إذا كنت أحبه.

ولم يغضب دي موبران هذه المرة وسأل ببساطة.

- أتحيينه؟

- لست أدري.

- اسمعي يا ديزي، ليس قصدي أن أنفوق عليك في النقاش، ولا أن أسجل ضدك نقاطاً أخرى. ولن أستطيع أكثر من ذلك أن أصغي لسفاهاتك. لتكلم الآن جدياً. إذا أبعدت جانباً حتى مجرد التفكير في أن يكون هذا الكنتي صهراً لي، فليس ذلك وليد فكرة طائشة أو نزوة، وإنك لتعرفين هذا. رجل يحاكي تقاليد أسراتنا بطريقة تثير الضحك، ولا يعرف حتى المبادئ الأولية للنزال عندما يطلب إليه النزال، وهذه هي النقطة الوحيدة التي لا يدعي هذا الجلف محاكاتها فيها - شخص معروف عنه أنه لا يرتبط بعاشقة واحدة، بل يطلق العنان لمجونه الدنيء، إن الزهو والخرق ونقص المثل العليا، التي يتميز بها هذا الغلام ستجعلك تتعذبين في كل دقيقة من حياتك..

- يا أبي هل تعرف أن كريستوف يقود سيارات السباق ويشترك فيها، وأنه يعطي مبلغاً كبيراً من المال لملجأ للأطفال المرضى؟

- وما دخل هذا في قضيتنا؟

وأجابت ديزي بلهجة مؤثرة لصبية تختلج بالحجة الدامغة:

- ولكنه إذا كان يشترك في سباقات السيارات، فهذا يدل على شجاعته بديناً، وإذا كان يقوم بأعمال خيرية، فذلك يدل على طيبة قلبه يا أبي.

ونظر إليها المركيز لبرهة، فوجد أنها مخلصـة فيما تقول، فرفع
كتفيه:

- أظن أن كريستوف دي كتي نفسه هو الذي أطرى لك مناقبه
الشخصية...

- نعم يا أبي، ولكن كان هذا لأن...

- إذنْ فلتسمحي لي يا ابنتي الصغيرة أن أضحك!

كان السيد دي موبران يحاول أن يحتفظ بهدوئه، ووضع يده على
رأس ابنته، فتراجعت إلى الخلف:

- إذنْ، إنه لشيء أخطر مما كنت أعتقد يا ديزي؟

- لست أدري...

- إن هذا هو أهم وقت يجب أن أعنى بك فيه.

وجعلت هذه العبارة ديزي تضحك بمرارة، واستطرد موبران:

- أهم وقت، إنك وأنت في سنك هذه تدعين للمظاهر أن تخلبك،
وللناس أن تهزأ بك، أوه! في استطاعتك أن تتصنعي عدم الاهتمام،
ولكنني عرفت الآن ما هناك. كلا إن كل الذي تقولينه يجعلني أزداد
تمسكاً بقراري. كتي ليس هو الزوج المناسب لك، وأظن أنني
شرحت الموضوع بما فيه الكفاية، وتناقشت معك بما فيه الكفاية-
أليس كذلك؟

وحشا غليونـه، وأشعله، ثم سعل.

وانكمشت ديزي في كرسيها الكبير، وانتفخت العروق الدقيقة

في جبهتها وهي تبذل جهدها في المقاومة، ومرت بطرف لسانها فوق شفيتها، واجتهدت أن يكون كلامها للافق وهدوء، غير أن صوتها كان يرتجف قليلاً:

- إنك تظن دائماً أنك شرحت بما فيه الكفاية يا أبي. وهذا هو الحال منذ زمن طويل. لقد شرحت كالعادة وجهة نظرك، ولكنك لم تستمع إلى وجهة نظري...

وازدادت في كل جملة سرعة إلقاءها، واشتدت لهجتها. وفي بضع ثوان فقدت التحكم فيما تقوله، فلم تدر بنفسها على الإطلاق. إن الكلمات المكسدة حطمت في فوضى الحواجز وصارت كقطع الغنم الهائج:

- لأن وجهة نظر الآخرين لا تهملك! إنك أسوأ بكثير ممن كانوا يعيشون في العصور الوسطى، أسوأ ممن يعيشون في العصور الوسطى! وكفاني منك.. أسمع أنت؟ إنني في الخامسة والعشرين من عمري وأعرف الذي ينبغي أن أفعل! ولكنك دائماً تلاحقني كظلي، ولا تدرك أنني برمت بهذا؟ كلا، ألا تفهم أنني أكاد أختنق؟ أجل إنني أتنبأ بالشيء الذي ستضعني به تحت رحمتك.. أن تبعدني عن موبران إلى الأبد إذا ما تزوجت كنتي. حتى هذا، فإنني مستعدة لاحتماله في سبيل الفرار منك، أسمع؟ إنك تستمتع بلذة سادية في إخضاعنا. والكل هنا قد ضاق ذرعاً...

ولما استفاقت ديزي فجأة، سكنت. كانت تنظر أباهما وهي فاعرة الفم، كما لو كانت تريد أن تبتلع من جديد كل هذه الكلمات، كل هذه

السموم، وأعادت الجملة الأخيرة على نفسها لكي تقيس مبلغ قوتها،
دون أن تحاول قط التمييز بين ما فيها من الحق أو الباطل، فقد لمحت إذ
ذاك وفي وجهها روعة وقسوة أثر هجومها.

وانفجرت باكية وأسرعت إلى والدها تحتضنه بوله:

- كلا يا أبي كلا، لا تأخذ هذا السم أرجوك، إنني لم أكن أعني
ماذا أقول. إنك تعرف أنني شريرة، إنك لتعرف. يا أبي أرجوك...

ولم يقل السيد دي موبران شيئاً، وإنما تخلص بغير شدة، ولكن
بطريقة لا تقاوم، ثم قاد ديزي إلى خارج الحجرة وهو يسندها، وأعاد
غلق الباب خلفها.



الفصل الثامن

وعندما دخلت جان ديبريه حجرة ديزي، وجدتھا ممدودة فوق السرير، منشورة الشَّعر، تجهش بالبكاء. فأخذتها بين ذراعيها ودون أن تسألها شيئاً، تكلمت معها بالضبط كما يتكلم المرء مع الأطفال الحزاني:

- اهْدئي يا حبيبتِي، هيا، إنكِ تعرفين طبع والدكِ: إن شدة انفعاله تعادل طبيته، وهو عنيد جداً. إنكم جميعاً عُنْد كالبغال، ولقد قمت بأعمال مضادة لأفكاره على الرغم من أنني حذرتكِ مغبة ذلك يا صديقتي المسكينة. يجب أن تقدمي له الاعتذار.

وأجابت ديزي: لن يقبل اعتذاري!

وأخذت جان وجه صديقتها بين يديها وأجبرتها على أن تتلاقى نظراتهما. وقالت في جدّ:

- هذا صحيح يا ديزي، إن عندكِ حق لن يقبل اعتذاركِ، لنترك هذا الآن.

وهدأت ديزي.

- إنني أظن أنني أَلَمْتُه أَلَمًا شديدًا! إنه لن يصفح عني أبدًا. وسوف
ترين ماذا سيحدث يا جان، سوف يظل أبي أيامًا وأيامًا دون أن يوجه لي
كلمة واحدة، وهذا ما لا أستطيع أن أتحمّله!

- لا تقولي مثل هذه الحماقات يا عزيزتي!

وكان وجه ديزي لا يزال منتفخًا من البكاء عندما تخلصت من
ذراعي جان، وانبطحت فوق السرير، رافعة نصفها الأعلى قليلًا، ومتكئة
بذقنها فوق يديها.

- إنني لا أقول حماقات يا جان، إنما أنت لا تعرفين أبي.

وأخذت تبكي في هدوء ثم استطردت بصوت طفلة نائحة:

إنه سينتهي به الأمر إلى أن يكرهني، وأنا لا أريد أن يكرهني.

* * *

«إن الشفاعة نفسها ربما كانت غير حكيمة» كان قد أعلن ذلك السيد
دي موبران، وأعادت جان هامسة الجواب الذي أجابته به: «فالويل لي
إذن».

إن جونتران هو الشخص الذي تريد محادثته في كل هذا... فبحثت
عنه ووجدته في الخندق الذي كان قد جف منذ أمس.

كان «جونتران» يرتدي قميصًا من التيل الأزرق به بقع بيضاء،
ويرفع أكمامه، فتكشف عن ذراعين مفتولتين فيهما سمرة وعلى
رأسه قبعة من القش ذات حافة واسعة. كان يبدو كالبناء وكالبستاني.
وكانت أدوات كثيرة مرصوفة أمامه على الحائط المرتفع الذي يحيط

بالخندق: أكياس من الجبس، كمية من الدبس، جرادل من الأسمنت الطري، ملاعق بنائين، معاول، فؤوس، حبال، ألواح وعروق خشب، مسامير وكلابات.

وارتكرت جان على سور الشرفة. وعلى انخفاض ثمانية أمتار منها، كان «جونتران» ينهمك في عمله، وهو يجهل وجودها. إنها تحب أن تراه وهو يعمل؛ لأن حركاته نشطة، بها ثقة وقوة. إنه يقيم سقالة على طول الحائط، وهذه حرفة يمارسها. ومن وقت لآخر كان يغني كما يغني الفعلة الذين يعملون في الخلاء.

ودارت جان حول الشرفة، ثم نزلت السلم الوعر المكسو بالأعشاب، الذي يوصل إلى الخندق، وأقبلت على جونتران، وقالت له:

- إنك تشبه البناء الحقيقي.

وأجاب في جد دون أن يكف عن العمل:

- إنني بناء حقيقي.

- هل تزعم أنك تصلح الخنادق بنفسك ووحداك؟

- بكل تأكيد... نعم.

- أظن أنك لا تأمل إصلاحها بمثل إتقان الجزء الذي أصلح فعلاً؟

- بلى بكل تأكيد؛ لأنني أنا الذي رمت ذلك الجزء.

- ماذا؟ أنت.. ولكن قل لي... السقالات؟ لا تهشم وجهك على

الأقل! وهذه أيضاً حرفة.. ألا تخشى أن تنهار الأخشاب وأن تهوي بك في القنوات إذا كانت ألواحك وعروقك ليست مربوطة كما يجب.. أو

أي شيء من هذا النوع؟

فقال جونتران:

- إنك تستطيعين أن تأكلي وتنامي فوق السقالات التي أقيمها، دون أدنى خطر يا صغيرتي «جان».

وخلع قبعته الجميلة ومسح جبينه بظهر يده - وابتسم.. إن أمامها عاملاً بالفعل، يحب عمله ويثق بنفسه.. وقال مستطرداً:

- عدا ذلك، فإنني نجّار وخشّاب أكثر مني بناءً.

وفكرت «جان» (إن هذا الولد لا يهوش). وفي الوقت نفسه سألتها، في شيء من المكر:

- أليس لك حرف أخرى؟

وأجابها جونتران في هدوء.

- بلى. إنني أستطيع أن أعطي الأسقف بشرط أن يكون الغطاء من الإردواز. وأستطيع أيضاً أن أقود جراراً، وأن أحزم المحاصيل، وأُعنى بالبهائم، كبقية الناس. غير أنني متوسط القدرة في إصلاح الآلات.. إنني أهوى هذه الصنعة، ولكن ليس لدي الفراغ الذي يمنحني فرصة تعلمها.. هذه الجيب اللعينة تسير وحدها.. أما السيارة الرينو القديمة، فإنني أرفض حتى قيادتها.. من الفضائح أن نستبقى في الجراج شيئاً من عصر الزواحف! ولحسن الحظ فإن التوأم هناك ليقوما بتدبير ما، ولقد أذنت لهما بأن يستعملاهما. وفي تمام شهر واحد سيكونان بكل تأكيد قد أتيا على هذا الأثر الذي قد

شهد مع ذلك فتح بلاد غالة ورأى كذلك أول ملوك فرنسا...

وضحكت جان. وكان جونتران في ذلك الوقت قد قبض على «قدوم»، وبدأ في تسمير بعض الألواح مثيراً بذلك ضجة كبرى، وأوقفته «جان» بحركة منها:

- جونتران، إن لديّ أشياء جادة أريد أن أتكلم معك بخصوصها..
إن ديزي قد تشاجرت مع والدك.

وألقي نظرة شاملة على عمله الذي بدأه لتوه:

- لا يا جان ليس الآن.. يجب أن أكمل عملي... إن العائلة تريد
أن تقوم بجولة في البركة الكبرى بعد الغداء، سأصحبك في القارب
ونتكلم.. أتوافقين؟

وشعرت جان بخيبة أمل، فامتعضت. ثم ما لبثت أن أعجبت بحميته
وجده واجتهاده.. اجتهد الصانع المثابر.. إنه يبدو وكأنما حوله هالة
من الصحة.. وعيناه السوداوان العنيدتان وشاربه الصغير وأنفه المحدث
برفق وحاجباه الكثيفان اللذان يرتفعان كرقم ثمانية بمجرد أقل استشارة،
كل هذا كان يجعله يشبه أباه.. ومعنوّياً كان الشغف بالريف يجمع بينه
وبين أبيه، والشغف خاصة بقصر مويران، الذي كرس له جونتران جسده
وروحه. ولكن الابن لم يكن يتقاسم بطريقة أو غيرها مع والده التركيز
التحسر على الوسط والماضي الأرستقراطيين، ولا الأنفة والترفع،
والإهمال والازدراء للحوائج والأمور.. وقد فهمت جان كل هذا..
وزادها تقديرًا لكليهما.

- حسنًا يا جونتران، سيكون لك ما تريد.

ثم ابتعدت غير مسرعة بجانب الحائط تقطف من هنا وهناك بعض
أعواد الزهور البرية من بين الأحجار العتيقة.

- إيه.. يا جان؟

كانت قد ابتعدت ولكنها استدارت.

- نعم.

ووضع جونتران يديه أمام فمه كالقوق وصاح وهو يفصل بين كل
كلمة وأخرى:

- إنكِ ذات جمال باهر نضّاح!

* * *

وأثناء الغداء بدت على السيد دي موبران جميع أمارات الجذل
الذي كان يحاول أن يكتمه. كانت عيناه تلمعان، ونظر إلى الخاليتين
ماتيلد وكوريزاند، ثم إلى جان، ثم إلى كل ولد من أولاده- ما عدا
ديزي، وقال وبصوته رجفة بسيطة:

- لقد تسلمت برقية من دون فيليب.

وسألت جان ببلاهة:

- ومن هو ذا؟

فوجه إليها المركزيز نظرة فريدة من نوعها، ربما لاحت بها لمحة من
تأفف المحبين.

- «صاحب السمو الملكي دون فيليب دي بوربون».
قالها دفعة واحدة؛ لأنه كان يريد أن يضع فيها أقصى غايات البساطة.
واستطرد:

- دون فيليب الذي يشرفنا بصداقته، سيمر بباريس بعد غد، إنه يريد أن يعبر عن رغبته في أن يقابلني هناك، لو - كما قال - لم يكن هذا الموعد يتعارض مع مشروعاتك - إن دون فيليب هو بلا شك أكثر رجل أدبًا رأيته في حياتي.
وقال إدوار مستهترًا:

- ولكن هذا هو أدنى الأشياء! هؤلاء الناس فقدوا عادة وحق إعطاء الأوامر، ولذلك فإنه يجب أن يعبروا عن رغباتهم بكبكية العالم.
فردد المركيز وهو يهز حاجبيه: هؤلاء الناس؟
وأضاف إدوار وهو يتنهد:

- إنني أعني أعضاء الأسر الملكية التي لا تحكم.
وبدا أن السيد دي موبران غير راض:
- لو أن لديك أقل إحساس بالتقاليد، لفهمت أن هؤلاء الناس هم بالتحديد الذين تعتبر رغباتهم أوامر بالنسبة لنا.
وقال جونتران بلهجة مرحة: يا والدي، هل أنت من الحاشية الملكية؟

وهز السيد دي موبران أكتافه، وقال:

- إنك لست في الصورة يا شيخي المسكين في عهد نظام الحكم القديم، هناك عدد من الأشياء ما كنت لأستطيع أن أتحملها في البلاط: أن أنظر إلى الملك وهو يتناول العشاء، أن أشهد قيامه بالكبيرة أو الصغيرة، وأن أكون قائدًا أعلى لجيوشه، ثم آتي في المرتبة بعد رؤساء المحاكم أو الأدواق الذين ليس لهم سلطة عسكرية، وأن ألاطف من تدعى منتسيان لكي أنجز أعماله، وأن أنبري للمبارزة، الأمر الذي لا أجد فيه شجاعة أو شرفًا مع العلم بأنني اجتزت في شبابي اختبارات لأكون ضابطاً لأمن الجيوش، وفي لعبة السيف عندما ينازل المرء خصمه وهو أكثر منه قوة بكثير، فهذا يعني أنه يصبح قاتلاً... وهذا هو الذي ما كنت لأفعله... مع أن رجال البلاط الذين صورهم مولير أو سان سيمون يفعلون كل هذا ويتباهون به. ثم هناك أمران آخران - كدت أنساها - ما كنت لأحب أن أقوم بهما للملك: أن أطيعه في معركة «الهوج» لو كنت مكان السيد «دي تورفيل» ولو كنت الأستاذ «بوالوديريو» لما أهديته قصيدة في تفاهة تحية الاستيلاء على «نامور»!

وشرب السيد دي موبران بطريقة رسمية كوبًا من النبيذ الوطني، كانت قطراته تفوح بجميع روائح برجونيا، ثم تابع:

- أما بالنسبة لأمير مخلوع كدون فيليب دي بوربون، الولد الوحيد من فرع الكارولين - المطالبين في آن واحد بعرش فرنسا وعرش إسبانيا، فإني على استعداد لأن أفعل أي شيء من أجله. أسمعني - أي شيء من أجله... وأنت الخالة كوريزاند بحركة نبيلة، ولكنها واخزة:

- بالنسبة لي لا يوجد سوى مطلب واحد...

- إنني أعرف يا كوريزاند، إنني متفق جدًا معك. ولكن «دوق فيليب» على أي حال هو حفيد لويس الرابع عشر، وبите هو أقدم بيوت العائلات الحاكمة وبهذه المناسبة، هل تعرفين النكتة التي رويت عن لويس الثامن عشر عندما استقبل على مائدته في سنة ١٨١٥ مجموعة من القوم المرموقين، كان في مقدمتهم إمبراطور روسيا والوصي على عرش إنجلترا؟ كانت فرنسا إذ ذاك منهزمة وممزقة، ولم يكن هناك بأس في أن يقال إن «الملك البريوني» عاد إلى فرنسا (بأيد أجنبية)، أبدى الملك كثيرًا من اللطف مع ضيوفه الذين كانوا يضعون فرنسا بين أيديهم. وعندما أتت لحظة الذهاب إلى المائدة رؤى الملك الغليظ الجسم لويس الثامن عشر يتجه صوب قاعة الطعام، ويتخطى عتبها، وحده، ويتقدم بطريقة طبيعية جدًا أمام القيصر الروسي والوصي على العرش البريطاني... وفوجئ القيصر إلكسندر بهذا وشعر بالإهانة، فشكا في نفس الليلة إلى دبلوماسي نمسوي وسأله:

- كيف يتجرأ أن يتقدم هكذا أمامي؟

وأجاب النمسوي ببساطة:

- يا سيدي إنه رأس البربونين...

وغير السيد دي موبران لهجته، وأعلن بصوت عادي جدًا:

- سأسافر إذن غدًا إلى باريس. وسأقابل بعد غد دون فيليب. وفي

خلال يومين.

- وفي خلال يومين يا أبي.. إذا سمحت سأصحبك عائداً في

سيارتي (كذلك قال التركي) يجب أن أذهب إلى باريس، فلديّ أعمال هناك.

- ولكنك ليس عندك سيارة في فرنسا، يا شيخي العجوز؟

وتململ التركي في مقعده، ثم تكلم في حرج:

- أعني.. بلى. فقد اشتريت واحدة قبل مجيئي إلى موبران.

- «واحدة ماذا؟»، وسأل التوأم في لهفة معًا.

وبدا أن التركي قد ازداد حرجًا:

- واحدة (بويك). إنما هي من طراز العام الماضي. لقد استطعت

الحصول عليها عن طريق أحد رجال السلك الدبلوماسي. وستسلم لي

بعد فحصها.

وقال المريكز وهو ينظر نظرة ساخرة: «حسنًا».

- إذن سأصحبك يا والدي؟

وأجاب السيد دي موبران وهو يصبغ طريقة إجابته بلون من معاني

التنازل:

- إذا شئت.. وشكرًا.

واستدار المريكز ناحيو جونتران:

- ربما كنت من الحاشية يا شيخي العجوز، ولكن هناك شيئًا أنا

واثق منه تمام الثقة: عندما كان يستطيع المرء أن يقول «الملك هو

سيدي»، كانت هذه العبارة تجعل الأحشاء تتحرك.

الفصل التاسع

وعندما قسمت الأفراخ، اقترب الجميع وبقيت «لولا» و«جوزي» فوق الدكة باردتين إلى درجة الصفر أمام كأسيهما الكبيرتين من النبيذ - ولقد سألت جوزي:

«ألا تظنين أن «ريتون» سيهبط الآن وسط الحلقة؛ لكي يستدرجكِ إلى رقصة الجافا؟ الأجدر أن يكسركِ أيضًا.

(نص باللهجة العامية)

وابتسم المركز. وأعاد بصوت منخفض، وهو يهز رأسه، عنوان الكتاب «لا تلمسوا النقود!» إن اللغة الدارجة كانت تبدو له شيئًا لذيذًا، بل وأحد العناصر التي غالبًا ما ينكر فضلها في تطور اللغة. حتى تحت قلم الأديب - وهو بطبيعة الحال متهم دائمًا بتجميل الواقع - فإن هذه العامية المشهورة تحمل بين جنباتها شيئًا من اللذع، والظرف، والتغذية.

«لقد شرب حتى ثمل من الخزف، في أعلى البسطة، وكرع من تلك

الخمير حتى طفحت من فمه ومن آذانه، وقد استعاد صفاته وخصاله على بعد ثلاثة أمتار من هناك «إنه نجم من الطراز القوي المخصص لجهد عظيم».

(تابع النص العامي).

كان المركيز وحيداً في مقصورته. أما التركي فقد أثر أن يأخذ قطاراً من قطارات الليل. وكان السيد دي موبران مسروراً باختراقه ريف بورجونيا، ولذا فإنه يرفع أنفه من آن لآخر كي يرى مناظره البديعة وهي تمرق بسرعة. إنه يقترب من نفق بريزي با. ولمح السيد دي موبران إلى اليسار قلعة (مالان) الشهيرة، منحوتة كالقوقعة، بيضاء كعظام الموتى، وحيدة مهيبة فوق قممها الجبلية كمثل الحلم القديم.

«أما أنا؛ فكنت أدير ظهري قليلاً عن هذه الأشياء الرثة، وحاولت أن أثني «جوزي» التي كانت تريد بكل قوتها أن «تتلفن حبيبها»».

(تابع النص العامي).

إن ما حول الريف البروجوني كان فقيراً، مهصوراً، تخترقه الصخور المدببة كالمهماز، وترتفع فيه تلال صلبة تلتف قممها بعمائم من الخضرة.

«جوزي» و«لولا» كانتا تبعثان برسائل معطرة ولم تكونا تغشان، كانت العربنة تنضح الأبهة الكبيرة على الطريقة الأرشيديوية».

(تابع النص العامي).

ثم ابتلع النفق القطار، ووجد المركيز نفسه غارقاً في ظلام عميق.

وفي هذا الوقت شعر بألم خارق للعادة ومميت في جنبه الأيسر، كأن
يداً تمسك بقلبه وتعتصره بشدة، ولكن في بطنه، ثم فجأة تضغطه
كالفاكهة التي تريد استخلاص رحيقها.. واخترقت هذه الصورة عقل
دي موبران المذعور. وابتعدت، ثم عادت، وأطلق في الظلام صيحة
خرساء. كان يحس أنه يفتح فمه، وتذكر في ومضة بطة الماء الصغيرة
التي أصابها وهي في أعلى طيران لها، تذكرها وهي تبحث عنهم عن
الهواء. وبغثة انقضت تلك اليد على قلبه بشدة، فنادى بصوت مختنق:
«النجدة!».

وانتشر الألم وتفرغ، وصعد كالسهم إلى كتفه اليسرى، وهبط على
طول الذراع، وسرى حتى وصل إلى إصبعه الأصغر. وكان المركز
-ويده على جنبه- يبحث عن القبضة غير المرئية؛ لكي يتخفف من
وطأتها عليه.

وراح يقول في حشجة: «سأموت.. سأموت وحدي..»، ثم أطلق
وهو يلتقط أنفاسه الأخيرة صرخة في الظلام، كتلك التي تطلقها الدابة
المذبوحة.

وانتهى كل شيء بسرعة.

لقد خرج القطار من النفق. ولفت المناظر المضيئة التي برزت من
بين الظلال القطار في أشعة الشمس الحريية. وانفكت يدا المركز
ببطء، ووقعتا فوق ركبتيه، ومالت رأسه فوق صدره.

كان يخيل إليه أنه يعود من بعيد.. لقد برأ قلبه.. واختفت الآلام
كاختفاء النفق الذي بدا كبقعة سوداء. ورفع رأسه، فألقى نظرة جديدة

على ضوء النهار.. كان يرى كل شيء بنفس الشعور الذي رآه به منذ وقت طويل: هذا الحسك الذي يمرق مسرعًا، هذه الأشجار المائلة كالعدائين، هذا النهر بما يعكسه كالسمك من ألوان، هذه الطرق البيضاء التي كانت تبدو كأن أصبغًا عاطلاً قد خطتها، وهذه الأوراق المخضرة المترامية إلى أقصى ما يمتد إليه البصر، والتي كانت خضرتها تتغير إلى زرقة أو بنفسجية عند نهاية الأفق.

* * *

كان السيد دي مويران يحب باريس، ويرى أنها مدينة عظيمة وملكية استغلتها الجمهورية أحسن استغلال، إنها بلا شك أول مدينة في العالم. إن المركز معروف بأنه وطني متطرف، وهو لا يستطيع أمرًا في هذا، وكلما ارتأى العالم الجديد أن يضع فرنسا في مصاف الشعوب الصغيرة ازداد هو فخارًا بانتسابه لها.

لقد ذهب في هدوء ليعاود رؤية قصر اللوفر، وقصر فرساي وكنيسة نوتردام وسان ديني، وكان في أثناء ذلك يشعر بالانتعاش وبدت له باريس في شهر يوليو وهي متألفة، عريضة، تسطع بأوراق الشجر الخضراء والسماء الزرقاء مدينة ترد الروح. كان يرى في واجهات المتاجر من الأشياء الطريفة ما يجدر بتلك المعالم العريقة، وكان يرى كذلك في الشوارع من الحسان أكثر مما يمكن أن يجده المرء في أي بقعة من بقاع العالم.

وبمجرد وصوله إلى باريس خاطب ماري انطوانيت دي لافال، الملقبة بمارتيت أونينت، والتي اتخذها عشيقة له منذ عامين، وكان

متلهفًا على رؤيتها. كانت أرملة حمراء الشعر، جميلة - جمالها نضير، في شيء من العنف. وكانت تحبه.

وأجابت نينت بأنها ستمضي راضية سهرة معه. ورجته أن يبقى يومين أو ثلاثة أيام في باريس. قالت له: إنك محظوظ لأنك وجدتني، فإنني عابرة فقط، ويجب أن أعود إلى دوفيل لو بقيت قليلًا، فإنني أبقى. ثم دعتة للغداء في الغد.

ونام موبران كالطفل في مسكنه الصغير الواقع في شارع «تاليران». كان الألم والقلق قد تلاشيا تمامًا. وصحا من نومه نضراً نشيطاً، وتناول إفطاره في نادي الفرسان دون أن يرى أناسًا كثيرين، ثم قصد «بيرلاشيز»، وهناك في مدينة المقابر التي ترتفع طبقاتها وسط الزرع الأخضر، تتبع الطرق المبلطة، وقام بنزهة بين الموتى وهو يدخل غليونه ويستمتع إلى شدة الطيور، وكانت هناك رائحة نفاذة تفوح من الأرض، حيث تتداعى فخامة تماثيل من حجر وجص ويمضي الأمر إلى نسيان رقيق جدًا.

وحوالي السادسة مساءً، توجه موبران، في ميدان الكنكورد إلى فندق «كريون»، حيث استقبله دون فيليب في الحال. كان هذا سيدًا طويل القامة، يرتدي ملابس داكنة، يشبه ابن عمه المرحوم ألفونس الثامن ملك إسبانيا. وكان يضع قرنفة صغيرة في عروة سترته، ويلوح في طواعية بأجمل يدين في العالم، ويشدد حرف (الراء). وفي باريس لم يكن دون فيليب يستحسن الكلام بلغة غير اللغة الفرنسية:

- يا صديقي العزيز موبران! تفضل بالجلوس هنا بالقرب مني، وحدثني عن أخبار فرنسا.

وانحنى موبران إلى أسفل جدًّا، ثم جلس.

ودامت المقابلة أكثر من ساعة، وكان سليل البيت المالك يشرب كأس ويسكي من نوع جيد باعتدال، أما موبران الذي كان يكره الويسكي أو بالأحرى يمقته، فكان يغمس في كأسه شفته من باب الأدب، مع شعوره بأنه يكفر عن ذنب اقترفه... إن مولاي كان يريد أن يعرف إلى أين وصل الحزب الشيوعي في فرنسا، وما هي عقلية كبار موظفي الجمهورية- وماذا يتصورون عن البريون الإسبان. وقد احتج المركز بشدة على جهله ونقص معلوماته الجدية، ولم يجد هذا شيئًا، فقد أصر دون فيليب على أن يعرف رأي «المركز العزيز المخلص جدًّا ذي البصيرة النفاذة».

ثم نهض دون فيليب، وفعل موبران مثله في الحال.

- هل تريد أن تسرني سرورًا كبيرًا؟

- سيدي يعلم أنني...

- إذن يا عزيزي سأتي لك من أقرب الطرق، أليس كذلك؟ وسأقول:

هل تستطيع أن تستقبلني في موبران خلال شهر أكتوبر؟

وانحنى المركز:

- إن سيدي أكسبني شرفًا تأثرت له غاية التأثير.

ثم أضاف بتأثر:

- لسوء الحظ إن سيدي لا يعلم أن موبران في حالة لا تسمح لها

باستقباله. الرطوبة أحدثت إتلافات كثيرة، والألمان ثقبوا سقف إحدى

القلاع، ولا يوجد في الحجرات حتى عوامل الإقامة المريحة، والفتحات التي تغذي (الخنادق) أصبحت نصف مستهلكة لدرجة أن...

وبحركة من يده الجميلة المبسوطة أوقف دون فيليب التعداد:

- إذن أنت لا تريد أن تستقبلني في موبران يا عزيزي دي موبران؟

وظهر على وجه المركز المهتز سرور عميق:

- آه! بما أن... على كل فسننتظر قدوم مولاي بكل سرور!

- لنقل، أول أكتوبر إذا كان هذا الموعد يوافقك.

- إنني طوع أمر مولاي.

وقبل أن يستأذن أراد المركز أن يبين نقطة تفصيلية لها أهميتها.

وعندما رأى دون فيليب أن دي موبران يريد أن يسأل سؤالاً ساعده على ذلك:

- هل هناك شيء يمكن أن أفعله؟

- إنني أريد أن أعرف فقط إذا كان سيدي يسمح أن أخصص له في

موبران حجرة الملك؟

- بكل تأكيد، بكل تأكيد... ولكن قل لي ما هي حجرة الملك

تلك؟

- حسنًا إنها أعدت في سنة ١٦٨٥ لجذكم العظيم لويس الرابع

عشر. لقد قيل إن الملك كان يعد العدة لزيارة بورجونيا، وإنه كان يسره

أن يبقى ليلة في موبران. كان جدي قائدًا أعلى لجيوشه.

وبدا وجه دون فيليب الطويل المحزون حالماً... وسأل:

- ولم يأتِ الملك؟

- لا يا مولاي، لم يأتِ الملك، ولكن لم يحدث أي تغير في الحجرة منذ ذلك الحين.

وابتسم الأمير ابتسامة جذابة، كما لو كان يعتذر عن ذلك بعد قرنين ونصف من الزمان.

* * *

كانت «نينت» مركيزة لافال، تحمل بمولدها اسم أسرة «كارمان» تاجر العطور الذائع الصيت. لقد فقدت زوجها الذي أحبه دون وله، وبكته دون إفراط، بعد عامين من زواجهما.

إنها مصبوغة بصبغة أرستقراطية من رأسها إلى أخمص قدمها، ولكن كان يكفي أن يحك بالظفر حتى ينقشر هذا الطلاء المحبب.. وكانت هذه هي لعبة السيد دي موبران المسلية.

كان المركيز يمضي - كل سنة - نصف شهر مايو في باريس على حد قوله؛ «لكي يزيل الصدأ عن نفسه»، وكان مسكنه الصغير بشارع تاليران يبدو له عذباً ناعماً عميقاً.. ولكن نينت كانت تحتفي به ولا تتركه أبداً.. كانت تحبه على طريقتها الخاصة، فهي لا تدعي أن تخلص له بقية الأحد عشر شهراً الأخرى. وأحياناً كان المركيز يأتي ليومين أو ثلاثة إلى باريس، فيدعو صديقه. إنها لم تكن بالنسبة له سوي عشيقة شابة مسلية شغوفة به. إنه لم يستطيع أن يدمغ بطابعه هذا العصفور المتنقل،

ولم يكن لديه أي لبس في هذه الناحية، لكنه كان يعرف جيدًا هذا النوع من النساء، ولم يكن يطلب منهن ما لا طاقة لهن به.

لم يكن يريد أن يظهر مع هذه المخلوقة الجميلة؛ لأنه كان أرزن رجل في العالم، متكتمًا، متوجسًا وإن لم يكن متكبرًا على الإطلاق، وبالعكس كان يعجبه أن تظل علاقته تلك في الخفاء، كان يحب أن يلقي مدام دي لافال في حفلة كوكتيل وهي تختلج برفق، وتنقل كالمشعل سكير شعرها الأحمر، وتبعثر جاذبيتها، وتسرف في نظرات عينيها المشعة الخضراء. كان يتظاهر حينئذ بأنه يعرفها معرفة سطحية، وكانت كبرياؤه تجد غذاء ممتازًا عندما يفكر أنها ستكون له وحده في ذلك المساء بعينه دون أن يشك أحد في ذلك.

ودعته نينت للغداء عندها، وأضافت قائلة: «إذا كنت ترى وجودي معك بمفردي شيئًا محتملًا». وكان السيد دي موبران قد أرسل لها زهورًا. إنها تسكن في شارع «فوبور سانت أونوريه» في شقة لا يتلاءم أثاثها القديم البديع مع اللوحات الزيتية الحديثة جدًا، وتنسيق صناع الديكور السيراليين.

لقد وجدها ترتدي ثوبًا من الأطلس الأبيض المطرّز بالذهب. وراق لها أن تتزين بقرطها وقلادتها ذات الزمرد الأخضر، وكان شعرها الأحمر الرائع مفكوكًا ينسدل على كتفيها.. قال المركز:

- إنني أحضر إليك شيئًا من الشامبانيا والفواجرا.

- كم أنت لذيذ!

ثم أمسكت يده:

- إنني أعلم أنك لا تحب خدمي الكثيرين، ولذلك فقد أعطيتهم جميعاً إجازة.

لقد نسي موبران نهائياً الدقائق المقلقة التي عرفها في القطار. وكان جوعان. وأحياناً كان يستعيد في ذهنه مقابلته مع دون فيليب بأدق تفاصيلها. وفكر دي موبران «إنني أستطيع أن أتسلى بأن أبهر نينت بهذه التفاصيل، ولكنني أخشى ألا تفهم، فتضايقني». واستقر رأيه على ألا يتكلم نهائياً عن تلك المقابلة.

لقد تناولا الغداء منفردين في قاعة طعام مدام دي لافال الفسيحة. كانت مدام دي لافال تثرثر من هنا وهناك.. كانت تعبد الكلام، وكان هو يحب الاستماع، فكانا منسجمين معاً.. ورفع السيد دي موبران حاجبيه قبل أن يلمس الدجاجة المثلجة، وقال بلهجة جافة:

- كانت هناك لوحة لـ (هوبير) في هذا الجانب، وإن لم تكن ذاكرتي تخونني كان هناك أيضاً رسم لفراجونار.

ورفعت المريكيزة أصبعها كالتميذة التي تريد الكلام، وقالت:

- لقد تخلصت منهما.

- كيف هذا؟ تخلصت منهما؟

فانفجرت ضاحكة:

- حسناً... نعم، ماذا في ذلك؟ أزحتهما، تخلصت منهما، بعتهما.

وارتسم على وجه المريكيز التعجب الذي سرعان ما حل محل

الفضول الشديد.

ثم أمعن النظر طويلاً في اللوحة -موضوع الحديث- حيث رأى نوعاً من عجائب المخلوقات أخضر اللون له ثلاث أذرع، ثم جسمًا عجيبًا لأشياء لا يمكن استشفافها ملونًا بالأزرق والأحمر، وبين كل هذا رسم لصدر عار يمكن تمييزه. هاتان اللوحتان كانتا قد احتلتا -على الترتيب- مكان لوحتي فراجونار وهويير- مما أفسد شهية المريكيز.

- لا نقولي لي إنك تفكرين جديدًا في الاحتفاظ بهذه الأشياء البشعة، وفي هذا الموضع بالذات الذي كانت تشغله أعمال بالغة الروعة.

فنهضت واستدارت حول المائدة، ثم قبلت موبران في وجنته قبلات صغيرة وقصيرة، ثم قبلت أذنه، وكان يكره هذا:

- إنك لذيذ يا جان.. إنك لا تفهم شيئًا في الرسم بالزيت، ولكنك مع هذا للذيذ.

وعادت إلى مكانها. واعترى المريكيز شيء من القلق. وفكر «إن نينت تبدو صادقة فيما تقول»، إنها لم تكن تهوى محاكاة الناس في كل شيء يقبلون عليه، لم تكن تهوى ذلك كثيرًا «وما كانت لتشتري هذه اللوحات الحديثة لمجرد أن تجاري العصر. وإذن بما أنها هناك في مكان الصدارة فلا بد أنها تحبها.

وألقي السيد موبران، والعزيمة تملؤه، نظرة على المخلوق الأخضر العجيب، فتقلصت على أثر ذلك معدته.

وكانت مدام دي لافال ما زالت تشرح له بصبر بالغ، كما لو عمدت إلى تعليم طفل حروف الهجاء.

- إنها لوحات رمزية، بل وتجريدية. إن اللوحة ذات الأزرق والأحمر عنوانها «الأمومة». وإنها على درجة كبيرة من الصراحة وامتزاج ألوانها بديع. إنها من صنع «ميراندوهاز» الذي يعتبر -من وجهة نظر الخبراء- الأمل الأكبر للرسم في فرنسا... إنك لا تصغي لي!

كان موبران يشرب الشمبانيا رشقات، وينظر إليها بعين حاملة:

-الآن هذا السيد.. ميراندو فرنسي؟

فامتعضت، ولم تجب... ونظر المركز للحظة قصيرة لوحة «الأمومة» الحمراء الزرقاء... وقال:

- وهكذا... فأنت تحبين هذا؟

- نعم.

لقد كانت صادقة.

- وإنني أظن أنك لست الوحيدة التي ترى هذا الرأي؟

- بكل تأكيد. فيما يتعلق بلوحة ميراندوهاز مثلاً، لو عددت لك...

- لا لا تجهدي نفسك يا صغیرتي نینت... إنني أصدقك.

واختفى سروره، وبدا رزيناً وقوراً:

- ولكن، هناك إذن أشياء قد تغيرت في العالم حقاً!

وفكر لحظة «ربما كان الفن هو أعمق شيء يوجد في نفوسنا...
فإذا تغيرت الدواعي الفنية إلى هذا الحد... فقد تغير إذن كل شيء».
وأنها تأمله القصير قائلاً بصوت مرتفع:

- لقد حاولت دائماً أن أفهم يا نينت، ولكن هذه المرة أظن أنني
شخّْتُ كثيراً.

وانتقلا إلى قاعة الاستقبال، وفتحت مدام دي لافال ثوبها قليلاً
وتمددت فوق أريكة، ونادت إلى جوارها موبران الذي كان يتظاهر بأنه
سيجلس على كرسي، ومدت له شفيتها.

ودقت الساعة العاشرة مساءً، وكان الظلام قد أقبل. وكانت جلبة
باريس الصماء تسمع من خلال نافذة مفتوحة على الحدايق كمواء قطّة
سعيدة.

ونهض موبران، ونظر إلى صديقه في عينيها مباشرة، ثم قال لها:
- نينت، إن لديّ كثيراً من العمل هذا المساء، إن لديّ غداً اجتماعاً
في (لجنة إثبات أنساب الأشراف)، ويجب أن تكون ملفاتي معدة،
وسأتركك تستريحين. اعذريني!

وقفزت واقفة:

- ماذا تقول؟! إنك مجنون.. أفي أول مرة أستبقيك، وأول مرة
أراك؟

- أرجوك، يا مارينت...

وتكلم موبران بهدوء، خوفاً من أن تتمادى في عتابه، وأن تصرّ على

احتجازه، ولكنها استدارت بخفة؛ لأن عينيها كانتا بغير شك تمتلئان
بالدموع. ثم دارت على كعبيها العالين ونظرت إليه مبتسمة:

- إنني لا أريد إلا ما تريد يا جان.

فابتسم، وقبّل راحة يدها.



الفصل العاشر

كانت سيارة التركي البويك سيارة ضخمة طويلة، لونها أصفر هادئ، يغوص المركيز في وسائدها اللينة، وتلمع لوحة عداداتها كواجهة محل الجواهر.

كان الطريق الكبير يمتد أمامهم شبه مقفر، وتبدو السماء زرقاء بين أوراق الشجر الخضراء وظلالها المنعكسة، والجو الجميل، والهواء رطب. وخلال هذا المنظر الفرنسي تظهر من آن لآخر باقة من الأشجار الخضراء العالية الشامخة، دالة على وجود قصر تلمح من بعيد أبراجه.

وسأل السيد دي موبران:

- كم لتراً تنفق في المائة كيلومتر؟

وامتعض التركي، ومط شفتيه:

- خمسة وعشرين لتراً تقريباً.

- يا إلهي!

وأخرج المركيز من جيبه غليوناً أنيقاً محشواً إلى حافته. ثم أشعله:
- إنني أعلم جيداً أنك لست متزوجاً يا أرتوس، ولكن على أي حال.

- على أي حال... ماذا؟

- حسناً إنني أرى أنك تنفق المال بإسراف...

وحبس التركي ابتسامة. وتذكر إنشاءاته في الأناضول، ومكاتبه في اسطنبول، ووكالاته في أنقرة وبروس وأطنة، وفكر في المناقصات التي فاز بها، والمعدات التي أوصى عليها من فرنسا، والمشروعات التي يعدّها لتنمية أعماله في الشرق الأوسط، ثم ألقى نظرة قصيرة على والده، وأعجبه خداه المدبوغان ومنظره الجانبي الذي يشبه منظر جوارح الطير:

- إن هذا يسوؤك يا أبي.. أليس كذلك؟

- ما الذي يسوؤني يا شيخخي العجوز؟

- السيارة...

وفكر السيد دي موبران بصدق:

- لا يا أرتوس إنها لا تسوؤني.. إنها تغيظني!

- لماذا إذن؟

- لأن المال يغيظني، إنني على ثقة من أنني لا أحب المال. أترى!

ولذا لا أستطيع أن أشعر بتجاوب نفسي مع هؤلاء الذين يمتلكونه.

وبدا على التركي التآلم.

- إنني لا أقصدك بقولي هذا يا ولدي... أنت تحصل على المال من وقت لآخر، وتنفقه أولاً بأول... إنك لست غنيًا في الحقيقة، أو على الأقل أفترض أنا ذلك.

وغير أرتوس اتجاه السيارة في شيء من السرعة، فأحدثت العجلات صريرًا، وترنحت العربة اللينة.

- ما هذا الذي على عجلات القيادة؟ نعم، هناك، هذه الدرع؟

- إنها العلامة المبينة لطراز السيارة. إن الأمريكيان استعملوها هم أيضًا. كل العالم في حاجة إلى شارات الشرف.

وسكت التركي برهة ليمسك بحبل تفكيره.

- قل لي يا أبي، إنني أودّ أن أجيب عما كنت تقوله الآن عن المال وعني. هل سألت نفسك بماذا تقدّر ثروتني؟ وكم عساني أربح؟

أجاب السيد دي موبران غير مكترث: يقينًا لا.

- هل تريد أن أخبرك بذلك؟

ونزع المركز غليونه من فمه، وتفحص التركي بعين يقظة:

- إن لديك فكرة ما في رأيك يا أرتوس؟

- ليس لدي أفكار أبدًا.

- على كل حال، فلديك رغبة في أن تخاطبني بشأن دراهمك..

أليس كذلك؟

- ولا حتى هذا يا أبي، لكن لدي مشروع سأشرحه لك عندما ينضج قليلاً. وبالنسبة لهذا كله، إنني أريدك أن تكون على علم بوضعي.

وأخذت المحادثة سياقاً كثيباً. وحدث السيد دي موبران فيما حوله من المناظر فرأى أنهما يقتربان من (أفللون)، فتنهد وقال:

- أكمل...

- إنك تعرف أن عملي ذو شقين، مقاولات الأشغال العامة وتخزين وبيع الأدوات الزراعية والصناعية. إن الحكومة التركية تثق بي، وقد حصلت على عدد كبير من التوكيلات الفرنسية والأمريكية، وحصلت حتى على توكيل ألماني في عملي هذا... أرجو أن تقرّني على أن العمل في تركيا كثير جدّاً.

وقال السيد دي موبران الذي كان يضجّره هذا كله كثيراً: أُوْفُ.

- كان ولا يزال هناك أعمال كبيرة يمكن القيام بها في تركيا. ولا تنسَ أنني هناك منذ تحرير فرنسا. إن زميلي ريشار الذي أمدني برؤوس الأموال أراد أن يستعيدها، ولقد أخطأ؛ فإنني الآن سيد عملي الأوحد. إن مخزوني من الأدوات يقدر بحوالي الثلاثين مليوناً، وعماراتي بخمسة وعشرين مليوناً، بقية استثماراتي لو بعته اليوم لدرّت عليّ خمسين مليوناً على الأقل... احسب أنت بنفسك. العام الماضي ربحت من سبعة إلى ثمانية ملايين صافية، وهذه السنة بفضل صفقتين أو ثلاث صفقات دسمات ربما وصلت إلى الضعف في هذا المبلغ، إنني أعيد استثمار المال أولاً بأول، وعلى الرغم من ذلك فإنني أمتلك تحت يدي الآن خمسة ملايين كاملة.. هذا هو الموضوع!

وحَدّق المركيز في ابنه باهتمام... كان فخورًا بهذا الوجه الممتلئ حيوية، وهذه الأكتاف الصلبة العريضة. وخاطب المركيز نفسه قائلاً: «إن هذا ولدي». ولكنه فكر أيضًا أن تلك الملايين كثيرة جدًا، وأن المال الكثير مفسد للرجال... ولم يجد حرجًا في أن يقول هذا لابنه.

- إنني أردت أن تكون على علم بالأمر يا أبي. فقط، أرجو منك ألا تتكلم بشأن هذا المشروع مع الآخرين، وألا تخبر به أحدًا. وأظن أنني في خلال بضعة أيام سأستطيع أن أعرضه عليك.

- كما تريد يا شيخي العجوز.

وابتهج المركيز لانتهائه مؤقتًا من الحديث في مشروعات الأعمال، وانبسط بعظمة فوق الوسائد. كانت السيارة البويك قد اخترقت لتوها مدينة «أفللون»، وسارت في الطريق الجميل الموصل إلى (سوليو). ودوى صوت نفير، ومرقت سيارة منخفضة سوداء.

وقال المركيز: لأول مرة أتنزه في سيارة فاخرة، ولكنني أفضل ألا يسبقني أحد.

- إنها سيارة كوميت يا أبي، ويمكنها السير بسرعة ١٤٠ كيلو مترًا في الساعة.

- وأنت؟

- أنا؟ أنا أستطيع أن أصل إلى ١٦٠ كم إذا كان الطريق جيدًا.

- وما رأيك في هذا الطريق؟

- إنه ليس رديئًا يا أبي.

وارتفع حاجبا المركز، ولمعت عيناه واستدار إلى ولده:

- يا إلهي، إذن ماذا تنتظر لكي تسبق لي هذه الكوميث؟

* * *

كانت الساعة قد بلغت السادسة مساء عندما اجتازت «البويك» باب القلعة السري. إن المركز يحس دائماً بهزة قلبية حارة عميقة؛ إذ تطالعه من جديد أبراج وأسقف القصر وواجهته المضئنة وساحة شرفه الشاسعة المشمسة.

واستقبلت ديزي والدها وأخاها، وقبلتهما، وبادرت بمعاونتهما في إنزال الحقائق، ووضع المركز على جبين ابنته قبله متكلفة باردة، وتقلص وجه ديزي الصغير القلق.. وقالت:

- لقد أعددت لكما وجبة خفيفة.

وشربوا - مع عجينة اللحم الريفية - جرعات كبيرة من نبيذ «بويي» المبرد ذي الطعم «الجاف».

وسألت ديزي بلهجة ملاينة: هل سار كل شيء على ما يرام؟

أجابها المركز ببرود: على ما يرام، وهنا هل من جديد؟

- الخالة ماتيلد متعبة قليلاً، واضطرت اليوم إلى ملازمة الفراش، كانت بمفردها أمس في قاعة الاستقبال وكانت النافذة مفتوحة، وأنت تعلم أن الجو مال إلى البرودة منذ يومين... إن الجو متقلب جداً!

- هل هناك أي خطر على ماتيلد؟

- لا أظن؛ إن لونها قرمزي وحرارتها ثمانٍ وثلاثون ونصف درجة،

وقد وضعت لها جان كاسات هواء.

قال المريكز بشرود: هذا شيء لطيف... وبهذه المناسبة، أين هي عزيزتنا جان؟

- لقد خرجت على ظهر الحصان مع جونتران.

- آه! حسنًا.

ونفض السيد دي موبران عن المائدة، ثم قال موجهاً الكلام إلى التركي وليس إلى ديزي:

- هذا يكفيني كعشاء. تناولوا أنتم طعامكم من دوني في الوقت المعتاد أنني سأصعد إلى حجرتي كي أستريح قليلاً وحوالي التاسعة والنصف سأنزل وأصحب معي إلى البركة الكبيرة من يريد أن يصحبني. لا بد أن القمر بدر ساطع هذه الليلة، والسماء صافية... هذا الجو رديءٌ بالنسبة لمرور البط، ولكنه بديع بالنسبة للنظر والتأمل.. اعتذروا بالنيابة عني لكوريزاند.

وعندما انصرف السيد دي موبران، استدار أرتوس نحو شقيقته:

- ماذا يعني هذا؟ أبي الذي لا يعتمد إلى الراحة أبدًا!

وفي هذه اللحظة برز التوأم في الحجرة.

- أرتوس، لقد رأينا البويك وركبناها! هل ستصحبنا معك لنقوم

بجولة؟

- هل يمكن صعود ونزول الزجاج آلياً؟

- هل تظن أنك تستطيع أن تفوق الرقم القياسي لسرعة سيارة

السباق «لاجو»؟

- يجب أن تبلغ المائة وخمسين على الأقل.

- أعود إليها؟

واختفيا فجأة كما حضرا.

كانت فكرة مرة تسيطر على ديزي. قالت:

- إن أبي يحقد عليّ، وإنني على يقين من أنه يقاطعني. ألم يقصص

عليك شيئاً؟

وسأل التركي: بخصوص ماذا؟

- بخصوصي.

- لا يا صغيرتي، لا شيء ألبته،ؤكد لك. فما الذي حدث؟

- لقد تشاجرنا.

- حقيقة؟

- نعم يا أرتوس لقد قلت له أشياء فظيعة إنه لا يريد أن أتزوج

كريستوف دي كنتي...

- إنه على حق كبير جداً في هذا!

وتطاير الشرر الأسود من عيني ديزي.

- إذن أنت الآخر ضدي؟

وأمسك التركي بذقنها برقة، وشرح لها بصوت رزين:

- إنني لست ضدك... إنني ضد كريستوف دي كنتي...

- ولماذا؟

- لأن... حسنًا لأنه أمير، كما لو كنت أنا راهبًا «ترايست» أو راقصة على الحبال، بالتقريب!
وأبعدته ديزي بحركة مباغته:

- إنكم في هذه العائلة لن تتغيروا أبدًا! فأنتم لا تعتدون إلا بالرقوق التي نُقشت عليها الأنساب قديمًا، أو بطريقة لعق أيدي السيدات، أو بترتيب القوم حول المائدة، أو بتقديم بعض الشخصيات إلى بعض، أو بالاستعراضات، أو بالحديث مع أصحاب سموّ مهملين كالآثار التاريخية...

- ديزي! إنك تقولين حماقات يا صغيرتي.

- وأنت... أنت أيها المحنك رجل المغامرات الكبيرة، عندما يتعلق الأمر بزواج شقيقتك...

- إنني أفضل ألا أعطيها لأي سوقي كان، هذا صحيح.

- أن تعطيها؟ خذ حذرک، وإنها قادرة على أن تعطي نفسها بنفسها!

- لا تكوني بذيئة يا ديزي.

كان التركي غاية في الهدوء. وبدأ عليه كما لو كان أبًا محزونًا، مما أثار نائرة شقيقته - فقالت له:

- إذن أنصحك بأن تقوم بدور الأخ النبيل! لا بد أن لك صلوات قديمة غير شرعية ببعض التركيات أو الأرمنيات.

كانت تقول «تركيات» وأرمنيات باشمئزاز من يتكلم عن الحيوانات.

- هل ترين أن هذه لغة فتاة عذراء؟

وتغيرت ملامح ديزي فجأة، ثم حدقت إليه في لون من الفزع:

- أرتوس... إنك تتكلم تمامًا كأبي... هذا مستحيل...

- وماذا إذن؟ إنني أستطيع أيضًا أن أرى أبي عندما يتعلق الأمر بمنعك من ارتكاب حماقة. ثم أتريد أن أقولها لك صريحة؟ إنني لا أصدق حكاية حبك الخاطف لهذا السيد... لهذا الوعل... نعم لأنه وعل وهذا كل ما هنالك... كلا. هل تتصورين ذلك: أن تصبح مرجريت دي موبران، أميرة كنتي؟ حقيقة إنه شيء خليق بأن يضحك كافة الناس في البلد.

وانفجرت ديزي هذه المرة:

- إن الأميرة تقول لك: طظ!!

ودون انتقال تمهيدي أشارت له بحركة بائسة إلى المائدة والأطباق والشراب التي اعتزت بإعدادها.. ثم قالت بصوت يشبه صوت الطفلة الحزينة:

- إن أبي لم يشأ حتى أن يشكرني...

* * *

انطلقت السيارة «الجيب» تحت قبة ممر طويل بين أفنان المساء المتشابكة، حيث كان السكون مخيمًا، وحيث كان يُسمع أحيانًا صوت

حيوانات مختفية لا تُرى. إن السيد دي موبران هو الذي يقود. ولقد سار مسرعاً، وجعل السيارة الجيب تقفز وهي تمر فوق جذر شجرة ممتد في أرض الممر كالثعبان. ووصلوا إلى التقاطع المسمى بتقاطع «شجرة الزان الغليظة». كانت الشجرة الماردة لها شكل وأبعاد شجرة «البواب» الاستوائية: ساق مكسوة بالألياف، قصيرة، مكنتزة، يبرز منها فروع قوية مفتولة كعضلات الصدر، وغصون منخفضة أفقية تحمل فوقها هرمًا هائلًا من الأوراق. وحول «شجرة الزان الغليظة» يتفرع على شكل نجم عدد من الطرقات الصغيرة. وانحرف السيد دي موبران بالسيارة انحرافًا حادًا، ثم لزم المسلك المؤدي إلى الطريق العمومي. وأثناء سيره لاحظ أن المقاعد الخشبية الدائرية التي تحيط بالشجرة محتاجة إلى شيء من الطلاء.

كان المركيز يدخن غليونيه. وأخذ التركي والكاهن يشدوان بصوت رائق منطلق، يشدو أحدهما مقطعاً، ثم يعيد الآخر ترديد شطر منه، وهكذا بالتبادل... ولم يكن صوته متنوع النغمات، لكنه كان هادئًا وعميقًا كالأرض التي تنبسط أمامهم حتى الأفق. كان أسفل السماء كله ذهبياً خافت البريق، وهناك أخذ صقر أسود يتعد ببطء وجناحاه يخفقان بشدة.

لقد استولى الرجال الأربعة والفتاتان الشابتان على المراكب التي فوق البركة، واختار السيد دي موبران واحدة صغيرة مسطحة رغبة في الانفراد... فقالت له ديزي بصوت عذب:

– هل آتي معك يا أبي... إذا لم يكن ذلك يضايقك؟

فألقي عليها نظرة جافة ساخرة:

- هل هذا حقيقة يسعدك كثيرًا يا ديزي؟

وتقلص وجه الشابة لحظة، وعضت على شفتيها، ثم رفعت عينيها
السوداوين - وقد عاودهما التحدي - صوب السيد دي موبران:

- في الحقيقة لا. ليس إلى هذا الحد...

لم يكن الكاهن قد فاته شيء من هذا الحديث، فأركب ديزي بالقوة
في مركب كبيرة مخربة، وانضم إليهما التركي. وابتعد دون انتظار داخل
الغاب وهو يتغنى ببعض مقاطع من قصيدة «مسدس ذو شعر أبيض»
لأندرية بريتون:

تمثال لوتريامون

على قاعدة منحوتة من الكينا

يحف به حقل...

وصاح التركي في مرح غير عابئ بتعكير سكون الليل:

- أغلق فم الحيوان هذا!

وفي الوقت نفسه اصطحب جونتران جان ديبيره. ورآه الكاهن قبل
أن يختفي خلف الغاب القمري واقفًا فوق مقدمة المركب يحرك مجدافه
الطويل، وقد ارتدى ملابس صيادي المستنقعات، كقائد جندول غريب.
وكان الرجال الأربعة قد أخذوا معهم بنادقهم، ولكنهم باتفاق
ضمني قرروا عدم استعمالها.

وحاول «الأب فيليب» أن ينعزل بفكره عنهم، ثم تهادت المركب
كما لو كانت تسير فوق مخمل أو حرير. وكان لا يزال هناك شاطئ

من الذهب يمتد في أسفل السماء يعلوه من فوق رؤوسهم الفضاء
الواسع الأحذب ذو الزرقة الباهتة تزينه النجوم الباكرة، وكانت كيمياء
الأمسيات برمتها تتجلى في الماء الهادئ الذي تنبعث منه رائحة الطين
وصوت انسياب الخمر من زق عتيقة، وضوضاء ارتشافها، ورنين
قبلات باردة. لم تكن هذه ساعة ذكر الله؛ لأن الهواء أخذ يسير مفرقاً
الغاب مخيفاً وحزيناً كأنه إنسان.

وأوقف السيد دي موبران قاربه خلف كشة من الخيزران، لم يكن
يرى من خلالها ضفاف البركة الغارقة في الظلام، وتصور أنه تاه وضل
الطريق فوق بحر خضم، وفجأة تذكر أنه وحيد تماماً، والحق أن الوحدة
قد جاءت له من ورائه في صمت قبضت عليه من كتفيه. غير أنه لا
يحب الشكوى ولا يطيق أن يتحسر على نفسه. أما من الناحية البدنية
فهو يحس بحاجته الماسة إلى انتفاضه. ثم تذكر ديزي:

يا لها من فتاة صغيرة غريبة لا تطاق... تنبه أيها الرجل الطيب:
يجب أن تكون قاسياً إذا أردت ألا تتغلب عليك بلطفها. لقد أسرفت في
القول، في ذلك اليوم «الكل بدأوا يضيّقون بك ذرعاً» هل هذا صحيح؟
هل خطر لي أن أسأل نفسي فقط هذا السؤال؟ وهل حقيقة أنني لا أفكر
إلا في شخصي؟ إنني مستعد أن أقولها وأمام الله: إن هذا الكلام غير
صحيح.

ثم تساءل عن السلوك الذي ينبغي أن يستمسك به في مواجهة
ديزي:

- يجب أن أخضعها، وإن احتاج الأمر سأحطمها.. لمصلحتها..

لقد أخطأت في حقي، وهذا في حد ذاته لم يكن ليهمني، ولكن الناحية
الخطرة في الأمر أنها أهانت في شخصي ولاية، ولاية عليها أستمدّها
من الله... إنني وحدي، وعليّ أن أسوس كل هؤلاء، ليس من حقي
أن أترك الأمور تسير حيثما اتفق، وفي الوقت نفسه ليس لدي الرغبة
في ذلك مما يدل - وهذا شيء عرضي - على أنني لا أهرم. هناك تلك
الكربة التي داهمتني في القطار، سأفكر فيها فيما بعد، لا، يجب أن
تخضع ديزي وأن تطيعني وأن تترك هذا الديك البري الملقب بكنتي،
ثم تأتي بنفس راضية تطلب مني العفو، إنني أعرف صغيرتي ديزي: إن
الإهانة ستريحها وتُهدئها.

وسمع التركيز بجانبه صوت الماء الحريري، وهو يشق ببطء. ومر
قارب كاد يمس قاربه الذي كان غير مرئي تقريباً وسط الخيزران. وفوق
القارب الشبح كان طيفا جونتران وجان ديرييه يتعانقان.



الفصل الحادي عشر

كان السيد دي موبران يقوم على خدمة القديس الذي أقامه ابنه الكاهن. وكان حتى هذه الساعة قد رفض أن يفعل ذلك من باب الوقار. إن فيليب لا يرى سبباً لذلك، فهو الكاهن المقدس، وأبوه هو خادم القديس، والاثنان يعملان في ظل إيمان صادق وصليب. إن إقامة القديس، وظهور جسد ودم سيدنا يسوع المسيح هو الآية التي تتكرر كل يوم، هو منبع الحياة، وهو الحافز للصلاة «وهو جوهر الكهنوت وغاية كل شيء». لم يكن فيليب يتصور أن يمر يوم من أيام وجوده في هذه الحياة دون أن تتم تلك الآية، وعلى يديه هو. وكان ينتظر لحظة تقديس الذبيحة بالضبط كعابر الصحراء الذي يتلذذ بتلك اللحظة التي ستلمس فيها شفتاه الماء: «هذا هو جسدي»، وكان يردد وقلبه محزون باقي الكلمات التي تفصل الجسد عن الدم، ما دام المسيح، حمل الله، يريد أن يذبح: «هذا هو كأس دمي»، وبعد ذلك، عندما يلمس الذبيحة أو يمسه بين يديه كأس المقدسة كان يجد نفسه مغموراً بالسعادة إلى أبعد الحدود المستطاعة؛ إنه يصدق نفسه، فهو لا ينكر مدى التضحيات

التي قبلها نهائياً، ولكنه يشعر بأنه كُوفئ على ذلك بطريقة مجيدة يحس إزاءها بالوجل والخجل. إن عينيه تغروران بالدموع كلما تذكر ذلك، وأحياناً ينسى أمام المذبح أنه الكاهن المقدس، ويتملكه شعور جارف بالعرفان الصادق فيردد: «حقيقة لقد فزت بالكثير الفائق».

* * *

وبعد انتهاء القداس صاحب فيليب والده إلى الحظائر. كانت الأبنية فسيحة تتسع لما يقرب من العشرين حصاناً. ولكنها لا تُستعمل في الحقيقة إلا (لأتوس) و(أرميتز). إن فيليب يعرف الأحصنة ويركبها بأناقة مثل جميع آل مويران تقريباً، وهو يحب الجياد المخلطة ذات اللون الرمادي المحمر، المتناسقة الأعضاء القوية الظهور. وكان يأتي كل يوم إلى الحظيرة لكي يستمتع باستنشاق تلك الرائحة النفاذة الطيبة، ويستمتع إلى الجياد وهي تحك بحدواتها الأرض، وتسهل بصوت عذب.

وبمجرد أن دخلا إلى الإسطبل، وجدا أن الأمر ليس على ما يرام؛ كان جونتران وهو مشمر عن ذراعيه، وبول رئيس الخدم العجوز -الذي كان حوذيّاً فيما مضى- يروحان ويغدوان حول أرميتز، ويخاطبانه مشجعين بلهجة أخوية.

- هيا أيها الحصان الطيب، هيا يا ولدي! سيذهب كل هذا... لا تتحرك.

كان الحصان المخلط واقفاً، يرتجف كل جسده، وشعره الجميل الأملس مبتل بالعرق، وفجأة قلب مشفره وسهل، ثم نظر نظرات مجنونة، وارتمى على الأرض بعنف وتمرغ، ثم وقف يرتجف من

جديد، بشدة لا مثيل لها، ويحك البلاط بحدوة من فقد صبره، ويتطلع إلى جانبه لكي يبين مكان أوجاعه... وقال بول العجوز:

- إنه مغص شديد.

وأدار جونتران وجهه المهموم صوب والده. وقال بدوره.

- إن المسكين يحاول أن يُفرغ ما في جوفه. لقد ركبته أمس قليلاً وكانت صحته على ما يرام. هذا المغص الملعون لا شيء ينبئ بحدوثه. لا حرارة ولا شيء.

وقال المركيز مكرراً بحزن وثقال:

- لا شيء.. وهل عالجتمه أنتما الاثنان؟

- لقد حاولت أن أجعله يسير لأجنبه أن يهيج فيجرح نفسه يا أبي. ولقد دلكناه جيداً بول وأنا بحزمة من التبن كي نزيل عرقه، وفحصته أنا جيداً بيدي... وعاد الحصان إلى الرقاد مرة أخرى وهو يصهل بشدة ويتمرغ فوق الأرض بسرعة.

لم تترك للسيد موبران إلا برهة لكي يتعد عنه ووقف الرجال الأربعة بجانبه، واجمين، متأثرين لألم الحيوان المسكين، يتشاورون بطريقة فيها شيء من الوقار كما يتشاور الأطباء، كانت رأس بول تتحرك كالكرة الهزيلة البيضاء، لقد نشأ وترعرع وسط الجياد، ولذا لم يكن له مثيل في معالجة إجهاد المفصل وشفاء المتشققات الجافة التي في داخل الحافر وتورم أسفل الساق، ولم يكن كذلك يقوى على تحمل رؤية الجياد في ضيق أو ألم. ولخص بول الرأي العام في هذه العبارة.

- يجب أن تعمل له حقنة شرجية بالماء الدافئ والصابون وأن يتجرع شيئاً ما.

والتفت الكاهن ناحية بول:

- إنني أذكر أنكم تعالجون أمغاص الجياد بشراب الأفيون ورؤوس الخشخاش، أليس كذلك يا بول؟

- نعم يا سيدي فيليب: ٦٠ جراماً من خلاصة الأفيون مع لتر ماء مغلي.

وهز جونتريان رأسه فإنه كان يفضل رطلاً من نقيع البرغل الساخن وزيت التربنتين.

وترك السيد دي موبران الإسطبل بخطوات واسعة سريعة، وبقي الآخرون في انتظاره يملكون أرميتز الذي كان لا يزال يتألم. وعاد المركز بعد بضع دقائق، شاهراً في يده دفترًا صغيراً مجلدًا بجلد ثور، مذهب الحوافي، وفتحه أمام أولاده فقرأوا هذا العنوان، مكتوباً بخط جميل «مغص الحصان»، وتحت هذا العنوان كتبت أسطر بالحبر الباهت وبخط حسن منتظم دقيق. وقرأ الكاهن الدفتر بصوت وقور كما لو كان أسماء موتى من شعب كنيسته.

«استعملوا للحصان المريض شراباً حسب الوصفة التالية التي استعملناها شخصياً بنجاح مرات عديدة:

١- لتر من الخمر المركزة.

٢- أوقية من خلاصة النطرون المحلو.

٣- أوقية ونصف من كسر الزنجبيل.

٤- أوقية ونصف من بذور زهرة المنثور.

تنقع هذه الأشياء المتقدمة والمقدار المستعمل هو ثلاث أوقيات من السائل الذي يحصل عليه في لتر من اللبن الساخن كل عشرين دقيقة حتى الشفاء».

وصاح جونتران:

- ولكن هذا خليك بأن يقضي عليه.

وقال الكاهن:

- وإذا لم يقض عليه، فإن الوقت الذي يمكن أن تعملوا فيه كل هذا، كاف لأن يموت أثناءه عشر مرات.

وأصر المريكز على رأيه قائلاً:

- لقد أعطيت الأمر للمطبخ. ولدينا كل المطلوب ما عدا النطرون، ولا يحتاج الأمر إلا لوقت النقيع، ثم يصبح الشراب معداً... صدقوني... وأضاف وهو ينظر بطرف عينه إلى السائق العجوز كي يحصل على موافقته:

- هذه على أي حال وصفة من وصفات أبي.

وهز بول رأسه موافقاً.

وفي هذه اللحظة دخلت فيليسي الضخمة وهي تلهث إلى الإسطبل تحمل دلوًا كبيرًا من الماء الدافئ وقطعة من الصابون، ونظرت إلى أرميتزا الذي كان لا يزال يرتجف ويحك بحدوته الأرض.

- يا لنا من بؤساء! هاكم ما يلزم لغسل جوف هذا المسكين...
وبدأ الرجال في العمل.

* * *

وطلب السيد دي موبران أن يعني بأرميتز وحده، وعندما ظهرت
فيليسي للمرة الثانية وهي تحمل بين يديها القويتين دستًا مملوئًا
بالشراب العطري، طرد الجميع قائلاً:

- جونتران، يكفيك ما لديك من أعمال البناء في الخنادق، وأنت
يا بول يجب أن تعد المائدة طعام الغداء. وأنت يا فيليب اذهب لتتنزه،
إنك لم تجد مثل هذا الصيف البرجوني في تشاد، أليس كذلك؟ أريد أن
يكون الغداء في موعده كالعادة. بول ماذا عندنا؟

- لدينا يا سيدي المريكيز بيض مخلوط بعش الغراب، ولحم بقري
محمّر معه بطاطس صغيرة محمرة.

- حسنًا... ستقول إذن للتوأم أن يحضرا لي هذا في وعاء من
الألمونيوم على أن يكون ساخنًا جدًّا، وإلا قطعت أذنيهما! هنا يا أرميتز،
على مهلك أيها الحصان الطيب، على مهلك جدًّا.

ظل المريكيز وحيدًا، يدخن غليونيه. ومن وقت لآخر يدلك أرميتز،
الذي كان ينظر إليه بعين جميلة ندية حانية. وقال المريكيز لنفسه: «إنها
تبدو كعين فتاة شابة قُبِّلَتْ لتوها قبلتها الأولى، في صورة مكبرة» وظل
كذلك يعطي الحيوان الأصيل جرعة كبيرة من الشراب كل عشرين
دقيقة، ومن حوله الذباب يطن في الهواء كالحمى. كان الجو حارًّا

حرارة غير محتملة في الحظيرة.. وبقي الحصان يرتعد والنوبات لا تفارقه. وحوالي الساعة الواحدة، أحضر التوأم الغداء للسيد دي مويران مع زجاجة يعلوها التراب كالطرق في أشهر الصيف.. وقال المركيز:

- يا إلهي!

وأخذ التوأم يدوران حول أرميتز، ويربتان على جلده المصقول، ويقبلانه على فمه، وفي الوقت ذاته كان أتوس يصهل في المربط المجاور.

- يا أبي، إن ديزي تود الحضور.

- لنتنه من الغداء أولاً، ثم بعد ذلك لن تجد نفسها في حاجة لسفير كي تحضر، كما أعلم!

- إن الخالة كوريزاند تتمنى لك أكلاً شهياً يا أبي.

- شكرًا.

- والخالة ماتيلد تقول لك إنها تحسنت قليلاً.

- حبذا ذلك!

ثم حك المركيز رأسه مفكرًا:

- أترون حقيقة.. لقد نسيتهما بسبب أرميتز...

ثم أشار إشارة عريضة تبين مدى حرج الموقف.

- بكل تأكيد يا أبي.

- يا أبي هل يمكن أن نخبرها أن أرميتز مريض.

- نعم... ولكنها ستسخر من ذلك.

- يا أبي، هل تعلم أن جونتران ربما يقص «فاتنه».

- يقص ماذا؟

- فاتنه، شاربه، ماذا في ذلك... بسبب جان فإنها لا تحب هذا

الشارب. إنهما ينسجان قصة غرام عظيم!

وجرى تقلص خفيف فوق وجه السيد دي موبران يشبه التموجات

التي تحدث عندما يُلقى حجر في ماء هادئ، ثم أدار وجهه، بعد أن هدأ

وابتسم للتوأم، ثم قال بلا اكتراث:

- حقيقة؟ إنني لم أكن أعرف.

- ومع ذلك فإن الأمر ظاهر للعيان.. يا أبي.

- يا أبي، هل يمكن اصطيد الغربان التي فوق شجرة الصنوبر

الكبيرة التي في مدخل المتنزه؟ إنها أخذت تأكل رؤوس الأشجار

الحديثة السن، هل أنت على علم بذلك؟

- أعلم ذلك... اقتلا الأغربة يا صغيري، ولكن لا تقتلا أشخاصًا،

أليس كذلك؟

- يا أبي، أتعرف أن العم فريد لونتزان قد كتب لديزي عن أمر

يخص المارشال المجهول. إنهما مثيران للضحك بشيخهما موسكيه

هذا، وربما يحضر العم فريد في خلال أيام، سيكون هذا الأمر مضحكًا

ومسلّيًا.

وأبدى المركيز رأيه في وقار قائلاً:

- نعم سيكون الأمر مضحكًا ومسلّيًا.

وأخذ التوأم يدوران حوله يهيمهمان، ثم تسللا كما أتيا فجأة، فقد كانا يشاركان القطط خاصية التلاشي في الفضاء.

وأكل المريكيز، وعالج أرميتز، وألقى نظرة على أتوس، ثم أشعل غليونيه، وأخيرًا بدا أن الألم قد هدا... إن أرميتز يرقد ببلادة وهو يتناول الآن الشراب دون أي احتجاج، ملقيًا من آن لآخر إلى السيد دي موبران نظرة حنان سقيم، فقد كان يريد أن يُدلل.. وحوالي السادسة مساءً أقبلت ديزي:

- طاب يومك يا أبي... هل تحسن أرميتز؟

- نعم إنه أحسن، وشكرًا، بعد أن تعبت في ذلك.

- إن حرارة الخالة ماتيلد تبلغ تسعًا وثلاثين درجة هذا المساء، ونحن متضايقون لذلك.

فقال المريكيز:

- سأذهب لرؤيتها فورًا، بمجرد أن أتأكد من عودة أرميتز إلى حالته الطبيعية، إن المغص كما ترين مؤلم.

- إنني أظن أن الخالة ماتيلد مصابة بالتهاب رئوي يا أبي.

- صحيح هذا؟ إننا بالتأكيد لن نفرغ من ذلك أبدًا.

وأدهشته فجأة طريقته غير المهذبة في الكلام، واحمر وجهه الذي لفحته السمرة، ونظر إلى ديزي بطرف عينه، ثم تصنع السعال كي يقطع هذا السكون.

- ماذا فعلتم اليوم يا ديزي؟

- لقد اصطاد التوأم الغربان... وعمل جونتران دون انقطاع في الخندق... وقامت الخالة كوريزاند بجولتها في المتنزه، وصحبتها لكي أطعم دجاج البستاني. وأظن أن جان أمضت وقتها بجانب جونتران، أما إدوارد والتركي فقد تناولا بعد الظهر وجبة خفيفة عند آل «شاستليكس» مع الكاهن، وأما أنا فقد عملت من أجل العم فريد دي لونتران، وصنعت أشياء من التريكو لأولاد «البيك فيلور» الصغار... هل قال لك التوأم؟

- نعم... ألم تفعلني شيئاً غير العمل طوال اليوم؟

- بلى لقد اصطدت بطّي ماء على البحيرة.

- البحيرة الكبيرة؟

- لا يا أبي، إن الريح تهب هناك، وقد قطع الخطابون بعض الأشجار في غابة «بواسفلي»، ولذلك كنت واثقة من أنني سأجد بطاً في بحيرة «الموتون مور».

وفكر المركز ثم قال مؤمناً:

- نعم لقد أحسنت التقدير يا ديزي.

وخيم سكون، ثم جذب المركز غليونه من فمه، لكي يضيفي على سؤاله شيئاً من الوقار:

- أليس لديك شيء آخر تقولينه لي يا ديزي؟

كان يتأمل الصغيرة السمراء، إنه يحب منظر هذا الرأس، والقلق الممزوج بالكبرياء الذي يغمر هذا الوجه الملوّح، والرشاقة، كان

يحب فيها هذه العصبية التي تمتاز بها الشابات... وهذا الاطمئنان، وهذه الأعين السود التي تحف بها أهداب كثيفة طويلة، والتي تستطيع أن تعبر بقوة، وبالتحديد عن الحنان أو الغضب. ثم فكر «المركز» هذا الشعر القصير وهذه الخصلة التي على جبهتها يلائمها جدًا.. إنها لم تكن جميلة بهذا الشكل يومًا من الأيام. لكنني لم أنجب هذه التحفة الصغيرة لألقي بها لأول عابر سبيل... مستحيل قطعًا مستحيل!! ثم انشغل في تقديم قدح ملآن معطر ببذور نبات المنثور لحصانه، وبعد ذلك، من خلال السكون الذي يملأه طنين الذباب، أعاد عليها السؤال:

- ديزي يا صغيرتي، أليس لديك شيء آخر تقولينه لي؟

فابتسمت له قائلة:

- بلي يا أبي.

وارتمت على صدره، واحتضنته بشغف كالطفلة الضالة. وكان هو يمسك بكتفها دون أن ينطق بكلمة، مسندًا خده فوق شعرها- ثم قال في النهاية:

- لقد كنت على ثقة من أنك ستفهمين.

وتخلصت ديزي منه.

- هل نستطيع الآن أن نتناقش بهدوء في جميع هذه الأمور يا أبي؟

وشعر المركز بوخزة في تجويف معدته:

- فيمَ نتناقش يا صغيرتي؟

- عن كريستوف وعني يا أبي!

وخطت خطوة إلى الوراء:

- إنني أود أن تراه. وهو في الوقت نفسه يريد أن يتكلم معك بنفسه.

وانتزع السيد دي مويران الغليون من فمه:

- أتكلم مع هذا الحيوان؟ عن ماذا؟

وتصلبت عضلات ديزي:

- عني يا أبي.

- إنني كنت أظن أنني انتهيت من هذه المسألة!

وطأطأ برأسه ناظرًا إلى بلاط مرقد أرميتز القدر، وفجأة رن في أذنه

من جديد دوي كلمات ديزي فقال:

- ولكن كيف عرفت أيتها الشيطانة أنه لديه رغبة في أن يراني؟

لا بد إذن أنك رأيت كتي مرة أخرى!

كان يتكلم بصوت خفيض شبه كسيف. وتكورت عضلات فكه،

ورأت ديزي هذه العضلات البدينة المتقلصة تظهر وتختفي على وجه

أبيها البرنزي، فلم تفكر ثانية واحدة في الكذب.

- نعم يا أبي. لقد رأيته. مرارًا.

ثلاث جمل اعتراف صغيرة حفرت في أغوار السيد دي مويران

ثلاثة جراح عميقة... ظل لوقت يشعر بإيلامها.. كان يردد في نفسه

«تمالك أعصابك! لا تدع الغضب يتسلل إليك وإلا لطغى عليك»..

تمالك أعصابك»، ونظر ألياً إلى يديه اللتين ترتعدان، ووضعهما خلف ظهره:

- هل تذكرين يا ديزي هذا الذي قلته لك يوم جئت عند كنتي:

وحدقت في عينيه:

- نعم أن أخضع أو أن أرحل، أليس كذلك؟

- بالضبط

ومرت فترة سكون:

- إذن متى يجب أن أغادر موبران يا أبي؟

ولاح الغضب على وجه المريكز إثر هذا السؤال المتكلف الهدوء.
واتقدت عيناه السوداوان:

- لم يحن أوان هذا بعد يا ابنتي الصغيرة. كلا، وإنما يجب الآن أن تقولي لي كل شيء عن... مقابلاتك مع كنتي! ها أنذا أستمع.

ونظرت ديزي إلى هذين الحاجبين الكثيفين اللذين قرب الغضب بينهما، وهذه النار المتأججة في عيني والدها، ونظرته التي صارت قاسية غير رحيمة، في وجهه الذي يشبه وجه الصقر.. فحاولت بذل جهد جديد في سبيل المصالحة. وتكلمت بصوت عذب مرتجف قليلاً:

- حاول أن تفهمني يا أبي. إنني أود أن أكون واضحة معك، وإنني لم أكن لأسبب لك أي ألم أو جهد لمجرد نزوة عابرة. وفي الوقت نفسه إن حياتي الخاصة ملك لي.. ولكنني ما دمت تحت سقفك..

لقد استندت بخفة على قائم مرقد أرميتز الخشبي، ثم أخذت

تداعب بيدها خصل شعر والدها الأسود الفاحم وللمرة الأخيرة، حاولت أن تبسم به مستطردة في جهد:

- بما إنني أعيش تحت سقفك، فإنني شديدة الرغبة في أن أتنازل مؤقتًا عن حريتي، ولكنني لم أنقطع لحظة واحدة عن التفكير في كريستوف. إنه شاب له قيمته، حسن البنية، أنيق، إنه كريم وطيب، وأنا على ثقة من ذلك. وهو يحبني، وإنني واثقة من ذلك أيضًا الآن.. إنه متفتح لجميع الأفكار العظيمة، والمسائل الدينية تهمه.

وسكتت ديزي.. إنها تنظر الآن لأبيها كما لو كان إنسانًا غريبًا: عيناه اللامعتان اللتان لا تطرفان وحركة عضلات فكه ونظراته الساخرة المخيفة، وهذا الإصرار الذي كأنما يغلفه بقناع خشبي.

- لقد قلت إنك واثقة من أنه يحبك (الآن)، هل يمكنك أن تشرحي لي هذه الكلمة؟

- لا.

كان أرميتز بجانبهما يفرغ ما في جوفه بجلبة، وكانت آخر خيوط الألم تجعله يسهل للمرة الأخيرة. وأخذ السيد دي موبران يرت على كتفه بحركة تلقائية:

- أيها الحصان الطيب، أرميتز، أيها الولد الطيب...

واستدار المركز ناحية ديزي وابتسامته المرة على شفتيه:

- كم مرة رأيته؟

- ثلاث أو أربع مرات، لا أدري كان ينتظرنني فوق صهوة جواده

عند أقصى المتنزه. كنا...

- وهل أنتِ عازمة على رؤيته مرة أخرى؟

- إنني لا يمكن أن أستغني عن كريستوف يا أبي.

قالت ذلك بحرارة وهي مرتعدة، وقال المريكز مغيرًا صوته:

- آه!

ثم أضاف بلهجة هادئة تقريبًا:

- لقد بلغتِ هذا الحد!

ثم عاد الغضب يملأ صوته الذي كان لا يزال يكتُم حديثه:

- هل أفهم...

وأدار عينيه، وتردد لحظة للمرة الأخيرة. ثم ما لبث أن أجتاز السؤال

شفتيه

- هل أنتِ... هل أُنتم... هل تقاسمتما الفراش... نعم أم لا؟

وتقلصت عضلات ديزي. وأجهشت فجأة بالبكاء، دون أن تسيل من عينيها دمعًا.. وقالت وقبضتاها الصغيرتان متشابكتان أمامها بقوة:

- لا، لم أجيبك أبدًا... إنك جلف جدًا! ليس من حقك! إنني أقول لك إنني أحب شخصًا وأنت لا تفكر إلا في أشياء مثل هذه.

وأحس السيد دي موبران بوجوب معرفته لهذا الأمر، وبأي ثمن، وإلا فإن السؤال المقلق سيظل يتعقبه.. إن ديزي ترتمي في أحضان شخص فاسد حقير واقعة تحت تأثيره، مجروفة في تياره كأنها في فخ!

وأنت على شفتيه كلمة «ديوث» بكل ما تستوجه من سخرية وفجاعة.
وبدت له ديزي وهي تتكلم هكذا بصوت متهدج معبر مشبهة والدتها
حتى في الصوت واللهجة... ومر السيد دي موبران بيده فوق جبينه، ثم
اتجه مسرعاً نحو ديزي وقبض على يدها بغلظة:

- لا بد أن تجيبيني!

- اتركني!

ثم شعر في يديه بعنف اضطره إلى أن يتركها.
وقبل أن تولي هاربة، صرخت فيه بصوت شديد الحدة، صوت
صبية مجروحة مكلومة:

- سأذهب عند كريستوف، هل تسمعي... سأذهب عنده!

* * *

أخذ السيد دي موبران يربت للمرة الأخيرة على جنب أرميتز.

- هاك يا ولدي كل شيء يسير على ما يرام... استرح.

وفجأة شعر في جانبه الأيسر بالألم الخارق للعادة الذي ألم به
في القطار، وانتشر هذا الألم وسرى في كتفه، فأسند موبران ظهره إلى
القائم الخشبي للمربط، ومال بخصره قليلاً إلى الأمام كالمصارع، وبقي
ينتظر القبضة الخفية وهي تتحسس في ظلام حياته العميق باحثاً عن
قلبه. وفتح فمه، ثم شعر باليد العمياء تقترب وتمسك قلبه برفق، ثم
تعتصره لحظة بأطراف أصابعها كما لو كانت تلعب به: إنني سأموت
هنا، في مربط حصان مريض.

وانسحبت اليد ثانية، وهي ما زالت تتحسر، واختفت في الظلام.
وشعر موبران أنه قد بُعث، فاستنشق الهواء بشدة، وخرج من الإسطبل وهو يترنح.

وجد المركز جان دبيريَه أمامه، وتفحصته تلك، فرأت آثار الضنى
بادية على وجهه، فلم تقل شيئاً.

- طاب مساؤك يا جان.

- طاب مساؤك يا سيدي.

وأضافت قائلة:

- كنت أتوق للحضور لرؤيتك في الإسطبل بعد ظهر اليوم.

- كان يجب عليك ذلك يا صغيرتي.

- لقد خفت أن أزعجك.

- أنت لا تزعجينني أبداً.

وأبانت لهجة المركز رغماً عنه تفاهة الحديث، ثم انبسطت
أساريه المتقلصة، وابتسم قائلاً:

- ماذا فعلت اليوم يا صغيرتي جان؟

وهزت هذه رأسها، وضمت فمها ممتعضة، فصيرته مستديراً تمام
الاستدارة، ثم حدقت في عينيه. وفكر موبران: «إن لها طريقة في أن
تلخص نفسها في نظرة واحدة»، وتكلمت جان بهدوء وبطء وهي
تفصل الكلمات جيداً.

- إني رأيت لتوي ديزي تصعد إلى حجرتها كالمجنونة، وبعد خمس دقائق خرجت منها ترتدي معطفًا واقياً من الأمطار ومعها حقيبة سفرها الصغيرة، لقد مرت أمامي دون أن تقول لي كلمة واحدة.. وأخذت دراجتها، ثم اتجهت نحو القرية.

قال مويران:

- نحو القرية.. ثم بعد ذلك؟

- هل طردتها يا سيدي؟

- كلا.

واتخذت ملامح جان طابع الجدية:

- هل تعلم أن ديزي كان وجهها كوجه الموتى؟ لا تقص عليّ الذي حدث. إني أقول لك فقط إنها أثرت في كثيرًا.
كانت جان تتقي الكلمات الملائمة.

- لقد رأيت مرة حادثة، كان هناك جمع من الناس، وبعيداً منهم بقليل وقفت امرأة شاحبة تضع يدها على صدرها، ثم عرفت أن تلك المرأة ماتت بعد ذلك بساعة، لقد كان وجه ديزي مثل وجه تلك المرأة بالضبط في الشكل والتعبير.. أنفهم؟
- كلا.

واقتربت منه جان حتى لامسته، وشعر عن قرب بأنفاسها الممتزجة برائحة اللبن الطازج الذي لا بد قد شربته منذ لحظة.

- إني أود أن أتكلّم معك يا سيدي. ويجب أن لا تغضب مني. إنك تستضيفني منذ خمسة عشر يومًا كواحدة من أفراد أسرّتك، فلا تظن أنني أنتهز الفرصة لكي..

وتوقفت، ثم استدارت، ثم نظرت إليه من جديد بعينها قاتمتي الزرق، واللتين يبدو أنهما تريان كل شيء:

- هل تسمح لي أن أكلّمك؟

كان موبران لا يزال ينظر إليها عندما قال:

- نعم، فإننا سنسير قليلًا.

وتوجها صوب المتنزه. كانت غصونه المتشابكة -غير بعيد منهما- تفتح ممراتها التي تشبه مدخل المعبد العتيق، وتلقي بظلالها الذهبية. ودق جرس الساعة. كان الضوء جميلًا جدًّا فأقبلت الطيور تنهل منه. وقالت جان:

- كل شيء يرجع إلى ما نتوخاه من هذه الحياة، ولذلك نستطيع بوضوح أن نتصور أن أمور الغير لا تهمنا.

وتأبطت ذراعه، وأضافت:

- ولكي أرى أن أمور الآخرين تهمنا.

- أكملّي يا جان أكملّي..

- أتدري يا سيدي؟ إني أعرف ديزي بعض المعرفة، إني أعرف أنها ليست سعيدة في حياتها، أعلم ذلك؟

- أكملّي.

- إنها فرعة منك فرعاً أزرق، وهي تسحق أعصابها في سبيل إخفاء ذلك الرعب.

- حقيقة؟

- لا تكن ساخراً، فإنني لا أستطيع تحمل سخريتك

ومرت بعض النحلات البرية أمام وجهيهما تطن كالنحلة الخشبية. وبعيداً هوى غصين إلى الأعماق، وكانت هناك صفحات من الروائح منشورة تحت أوراق الشجر الملتف الكثيفة، وكان الجو ساكناً مخضراً اخضرار الزبد العتيق.

- إن ديزي فرعة منك يا سيدي، وهذا ليس محل فخار لك.

وسكت المريكز، واستمرت جان:

- إنها تعبدك وتعبد كذلك موبران، لا تقل لي إنك تجهل ذلك أو أنك غير واثق منه.

- أنا! إنني لا أقول شيئاً يا جان.

واستطردت وبصوتها شيء من المرارة:

- نعم إنك لا تقول شيئاً

- إنك لا تساعدني، هذا أكيد، وعندما أفكر ماذا يعني حديثي لك بهذه الصورة...

- أنا لا أجبرك على أن تبيني ذلك.

- إن ابنتك تحب كريستوف دي كنتي.

- كلا.

- أظن أن نعم هي الجواب الأصديق يا سيدي

- لا تنادينني بكلمة سيدي هذه.

- بماذا تريدني أن أناديق؟

- لست أدري.. بصراحة يا جان إن مسألة كنتي وديزي لا تعنيك.

وارتجفت جان؛ فإن يمامتين طارتا في نفس اللحظة من فوق شجرة زان بضجة تشبه قرعة السوط، كانت الشمس الغاربة تغرق بأشعتها المائلة أمهات الأشجار، وتجعل جذوعها تلمع بوضوح، أما أوراقها فكان المساء قد بدأ يلفها في رفق.

- كلا، بكل تأكيد هذه المسألة لا تعنيك، لقد كنت أقول لك إن كل شيء متوقف على ما يتوخاه المرء في هذه الحياة.

- لا تحزني نفسك دون فائدة يا صغيرتي جان. إليك شيئاً أستطيع أن أقوله لك: إنني لن أوافق قط على إعطاء ابنتي لكونتي أبداً.
وقطف غصن زان صغيراً، وأخذ يضرب به سيقان الأشجار أثناء سيره:

- صدقيني إنه قرار بذلت وقتاً في وزنه. ولن نتكلم فيه أبداً بعد الآن، أتوافقين؟ ولم تقل شيئاً. ثم استدار لكي يرجعاً.

- هل لديك الشجاعة في أن تضعي ذراعك في ذراعي يا جان؟ بعد النهار الذي أمضيته، أشعر أنني في الواقع قدير، ولا بد أن رائحة الجياد تفوح مني وتزكم الأنوف...

- إنني سعيدة بأن أضع ذراعي في ذراعك.
- لقد قلت لي مرتين على الأقل أثناء كلامك إن كل شيء متوقف على ما يتوخاه المرء في هذه الحياة. هل تعتبرينه فضولاً مني لو سألتك عما تتوخينه أنت في هذه الحياة؟
- وفكرت قبل أن تجيب:
- إلى حد ما، إن الشيء الذي أتعلم به هو أن أجعل من يحيطون بي أقل... أقل تعاسة.
- هل هذا كل ما تتوخينه؟
- أظن أنه ذلك.
- ولكن مستقبلك، مستقبلك أنت؟
- حسناً إنني أستطيع أن أقول لك إجمالاً، إنني لا أفكر فيه كثيراً.
- هذا جواب رديء يا جان.
- أوه بكل تأكيد إنني أحب أن أتزوج، إذا كنت تقصد ذلك. أود أن أسعد رجلاً.
- وهذا أيضاً جواب رديء يا صغیرتي، إنك لم تقولي إنك تريدين أن تكوني سعيدة. إنني لا أحب فلسفتك هذه، فلسفة الصليب الأحمر، نهائياً.
- إنني أريد أن أخلق السعادة كما يخلق الفنان لوحة أو تمثالاً!
- قالت جان هذا وعلى وجهها الجميل المستطيل بعض الشيء تعبير

عن العناد فريد من نوعه:

- إنك مغرورة.

وضغطت على ذراعه فجأة.

- لماذا تقول ذلك؟

ثم أضافت بسرعة:

- نعم إنني واثقة من أنني مغرورة.

- كم تبغين من العمر؟

- السابعة والعشرين تقريبًا.

- أمر غريب! لقد كنت أقدر لك سنًا أقل من هذا بثلاث أو أربع

سنين على الأقل... ألا تخشين عندما تبالغين قليلًا في البحث عن سعادة
الآخرين أن يكون في ذلك شيء من قلة الحيلة؟

- كلا...

- إنك لشديدة الثقة بنفسك.

- ربما ليس من عادتي أن أحلل نفسي هكذا.

- أترين أن لديك ثقة كبيرة في الله؟

- إنني لست مؤمنة يا سيدي

- يا للشيطان! أنت لا تؤمنين بشيء؟

- نعم أوّمن، ولكن ليس بالله.

وأخذ المركيز يحك ذقنه في حيرة:

- إنك شخصية فريدة في نوعها يا صغيرتي جان. إنك تروحين وتجيئين كالجنية المتعطلة، وتصرين على أن تعتني بجميع الناس في الوقت الذي تنقصك فيه البراعة.

واعترت جان رعدة لهذه العبارة، وكانا قد وصلا إلى الشرفة، فتركت ذراعه:

- إنني لا أتوخي أن أكون بارعة. ولكن الناس عميان، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أريهم الشمس في وضوح النهار عندما يبدو أنهم لا يرونها.

- هل تقصدينني بما تقولين؟

- بالتأكيد.

- إنك تناورين يا جان. ولكي ننتهي من هذا الأمر، سأقول لك شيئاً! حسناً. إن المسألة التي بيني وبين ديزي هي مسألة ولاية.

- هذا لا يعني شيئاً بالنسبة لي.

- إنني أتوقع ذلك. إنك ذكية، ولكن مفاهيم أساسية تغيب عنك.

فابتسمت وسألته هذه المرة بخجل:

- إنك لا تحب أن يعارضك معارض، أليس كذلك؟

واستندا إلى سور الشرفة. وتابع السيد دي موبران بعينه طيراً وحيداً كان يطير على علو شاهق، مجدفاً ببطء في ظلمة المساء:

- لقد بينت ما بنفسي لديزي، وعليها الآن أن تطيعني. إن ولايتي

عليها لا تتوقف عند بلوغها سن الرشد القانونية؛ وذلك لأنني أستمدها من الله.

كان التركيز يتكلم بلهجة تملؤها العقيدة التي لا حدود لها. فأجابته جان بحدة:

- إنك أكثر غرورًا مني.

فضحك وقال:

- هيا يا جان، لنلق نظرة أخيرة قصيرة على أرميتز.

ولكنها كانت تتابع تفكيرها الخاص بإصرار:

- إنني أرثي لديزي يا سيدي.

قال موبران وهو يقطب حاجبيه:

- حقيقة؟

- حقيقة أنا التي لا أؤمن بالله، أشفق عليها. وأنت، ألا تحس إلى

أي مدى يمكن للمرء أن يذهب محتميًا خلف إله لا يقول شيئًا؟

- إن الله يتكلم يا جان، ولا يتوقف عن الكلام، وإنك على خطأ

شديد عندما تغضبيه.

وزالت ثورة الفتاة دفعة واحدة. وفتحت فمها كما لو كانت تجيب،

ولكنها أثرت السكوت.

ووصلوا إلى الإسطنبول. ووقف التركيز لحظة أمام البناء، ونظر إلى

جان متخليًا عن طبيته.

- هيا قولي الذي تريد أن تقوله!

وترددت، ثم تكلمت بصوت حزين:

- عندما يكون هناك مخلوق جريح، فيجب ألا تمشي فوقه، بل تنهضه، حتى لو كان هذا المخلوق ابتك، وحتى لو استوجب الأمر أن تتخلى قليلاً عن كبرائك. هذا ما كنت أحب أن أقوله لك، لو كنت في مقام الله.



الفصل الثاني عشر

وحتى الحادية عشرة مساءً لم تكن ديزي قد أعطت أي نبأ بأنها على قيد الحياة.

كان السيد دي موبران يرى أن ابنة عمه ماتيلد -على حد قوله- في حالة سيئة حقاً؛ وقد وعد الطبيب بزيارتها في صبيحة اليوم التالي، وصعدت جان ديرييه وبقيت إلى جانب السيدة العجوز التي كانت تهذي من حين لآخر، متشبثة بيدها لا تريد أن تتركها.

وأحضر بول بعض المرطبات إلى قاعة الاستقبال، فشربت الخالة كوريزاند، وكانت تروح بمنديل من الدانتلا، كوبين كبيرين من عصير البرتقال المثلج الواحد تلو الآخر.

وقال السيد دي موبران:

- بول أرجوك، اذهب لترى كيف حال أرميتز.

فهز رئيس الخدم رأسه الهرم الأبيض هزة عتاب:

- ليطمئن سيدي الماركيز، لقد ذهبت لتوي ورأيت، ويبدو أنه بخير، وقد بدأ في النعاس الآن، أما أتوس فهو الذي لا يزال قلقاً.

- شكراً يا بول، اذهب لتنام.

- أعني...

ونظر المريكيز طويلاً وفي سكون إلى رئيس الخدم، ثم استقر على رأي:

- إنك لن تظل تنتظر ديزي طوال الليل على أي حال!

- كلا بالتأكيد يا سيدي المريكيز. فقط سوف يتعذر عليّ النوم إلى

حد ما. ولكن إذا كان سيدي المريكيز يأمل في مكالمة تليفونية، فأود أن

أقول له إن التليفون معطل منذ أمس، وسيأتون لإصلاحه غداً صباحاً إذا

تذكروا ذلك، إن سيدي المريكيز يعلم جيداً...

- ألم تكن تستطيع أن تقول لي هذا من قبل؟

- إن سيدي المريكيز لم يطلب إليّ ذلك.

وكان في هذا الرد الكفاية.

وظهرت حيثنذ فيليسي بوجه بدين يكسوه الذعر تتبعها جيرمين،

وبقيت الاثنتان تتهامسان بجانب الباب وانفجر المريكيز.

- يا إلهي.. ادخلا أو اخرجنا! كلا، إن الآنسة ديزي ليست هنا، ولا

أعرف أين هي، والأمر لا يهمني.. أهذا ما تريدان معرفته؟

وأجابت فيليسي وحدها، ثم أسرفت في الندب والتحسر:

- يا إلهي!

ثم انسحبت تجر وراءها جيرمين مثل سفينة كبيرة تجر وراءها قارباً

صغيراً.

وتتمم المركيز:

- هذا شيء بهيج!

قالت حينئذ الخالة كوريزاند التي جعلها عصير البرتقال المثلج
تميل إلى التفاؤل:

- لا تقلق، إنه مجرد هروب مؤقت!

وعقد المركيز يديه على صدره وحاول أن يحدّ من ثورته:

- أتسمين هذا مجرد هروب مؤقت يا كوريزاند؟ هذا بديع! هروب
مؤقت!

وكان صوته المعبر يضغط على الكلمات الأخيرة فيضخمها،
كما تنفخ الريح القوية شراع المركب، ثم كانت هذه هي اللحظة التي
اختارها لوي سيزار لكي يقرر فيها:

- إننا نبدو أصحاب اليوم!

وزأر المركيز هذه المرة كالأسد:

- ماذا؟ أما زلتما هنا أيها التوأم؟

وتقدم نحو الولدين مهدداً إياهما:

- هلا أخليتما الجو؟

واختفيا. ورأت الخالة كوريزاند أن الوقت قد حان لكي تعلن
وجهة نظرها.

- جان، يا صديقي، لقد تشاجرت مرة أخرى مع ابتك، أليس

كذلك؟ هذه الفتاة لابد أنها ركبت رأسها وذهبت إلى «إيواس» أو «بوريبسي» أو إلى «شاستلكس»، ولابد أنها نزلت في ضيافة أولاد خوولتها. وغداً ستعود طالبة منك العفو، وستفتح أنت لها ذراعيك، هيا، هيا..

وآثر المركز السكوت.. فقد كانت تتصاعد إلى شفثيه كلمات نابية، تعليقاً على وجهة نظر زوجة أخيه. واصلت دوقة دي بوتفيل حديثها، وهي مفعمة بالرحمة والتسامح، عامرة بالذكريات المحببة:

- إنني أذكر أنني في أيام شبابي قمت أنا أيضًا بالأعيب أستحق عليها الشنق. خذ مثلاً يوم أن بقيت محبوسة لمدة خمس ساعات في خزانة بالحائط مع ابن عمي الصغير (رشمار). لم أكن قد تجاوزت الثالثة أو الرابعة عشر عاماً، وعلى أي حال..

ثم نهضت في جلال:

- سعدت مساء. سأذهب لأرى حال ماتيلد المسكينة، يبدو لي أن صحتها لا تبشر بخير. هل ستذهب العربة غداً إلى ديجون؟ فإني أود أن أقضي بعض الشؤون هل تعلم أن الفريد دي لوانتران سيصل إلينا خلال هذه الأيام؟ أظن أن الجو سيكون جميلاً غداً، أثناء خروجي النهاية. مسكينة أنت يا صغيرتي ديزي!

كان جوانتران وإدوارد والتركي والكاهن على وشك الانتهاء من لعبة «بريدج» في ركن من أركان قاعة الاستقبال. فنهضوا وحيوا السيدة العجوز، ورافقوها حتى الباب.

قال الكاهن:

- إن الخالة كوريزاند مثيرة للإعجاب.

قال التركي:

- إنني لا أمل الاستماع إليها.

قال المريكيز:

- إنها تجعل بدني يقشعر.

أما إدوارد؛ فاكتفى بترديد آخر أبيات لشاعر يُدعى «أزیدور إیزو»
بلهجة واثقة وفي تمجيد:

«بیدلنجي - تنجي - تنجي

فنجلنجي - كلنجي - دنجي

كلينجي لينجي، رنجي لنجي

يو!». .

ثم ترك قاعة الاستقبال أنيقًا شاردًا دون أن يقول حتى مساء الخير.

همس المريكيز وهو يهز رأسه:

- يا لك من دمية مسكينة.

قال جوانتران:

- إنه مخبول تمامًا!

* * *

وفي صبيحة اليوم التالي، في حوالي الساعة التاسعة، أوقف كنتي سيارته المازيراتي «للسباق» بالقرب من الآبار التي تزين ساحة الشرف، وسأل بول عمّ إذا كان السيد دي موبران يأذن له بالمقابلة، وظهر المركز على الفور تقريباً، فقاده إلى حجرة الموسيقى، ثم أغلق أبوابها بإحكام. قال كنتي وهو يتسم ابتسامة متكلفة:

- إنني أعتذر عن إزعاجك في مثل هذه الساعة المبكرة يا سيدي.

- العفو.

- لقد... لقد أعجبت كثيراً بأصص الأقحوان والجيرانيوم التي رصبتها أمام الشرفة، إنني في كنتي أريد أن أزرع البتونيا... هل تظن... في يقيني نعم... البتونيا تحسن هنا وأعتقد أن فكرتك هذه فكرة طيبة.

وتجراً كنتي:

- كنت أفكر أيضاً في بعض الورد. إنني أعترف أنني أؤثر زهرة «البول نيرون» على ما عداها. وبستاني العنيد كالبلغلة يريد بكل قوة أن يستحضر «السان في» هل تظن أن البول نيرون تنمو جيداً هنا؟

كان السيد دي موبران يبذل قوة خارقة لكي يخفي ما كان يفتك به من نفاد الصبر. لقد حزم رأيه على ألا يطرق معه الموضوع الشائك.

- لو كنت مكانك يا سيدي في كنتي لاستجلبت «الماليزون»؛ إنه ورد ذكي حساس، يحب بلاد برجونيا. وخيم على الجو سكون ثقيل جداً.

وكان السيد دي موبران أثناءه يراقب صاحبه بعين جامدة، إن كنتي طويل القامة، عريض المنكبين، ممشوق أنيق، ولكن كان هناك نوع من التكلف المثير في تلك الأناقة، لم يتمكن السيد دي موبران من تحديده. إن أول ما يلفت النظر في كنتي هو ملابسه لا محياه، فهو يمتاز بسترته «التويد» الزرقاء الفاتحة وحذائه المصنوع من جلد الغزال، ويخلبك لون رباط عنقه قبل لون عينيه. ومع ذلك فملامحه دقيقة، وبشرته بيضاء، وشعره أحمر قصير مجعد، وله فم مستحب يعلوه شارب صغير أحمر. على أنه يسرف في الابتسام، الأمر الذي يجعل بياض أسنانه الناصع بغيضاً. وأحياناً يحك أظافره المستديرة التي تشبه اللالئ في كم سترته، وينظر نظرة آلية راضية إلى يديه تجعل المرء يتحسر على بؤس آدم عليه السلام...

وأخذ كنتي شهيقاً طويلاً من الهواء، ثم قال:

- إنني أريد أن أتكلم معك بخصوص ابنتك يا سيدي.

- وإنني مستمع لك.

كان السيد دي موبران غاية في التبلد والبرود. وجلس كريستوف دي كنتي بجانب قيثاره قديمة بالية، وجذب أحد أوتارها جذبة جعلت الروح الموسيقية تندب سوء حظها.

- إن ابنتك وصلت مساء أمس إلى كنتي، في حوالي الحادية عشرة مساءً، غاية في الإجهاد، فقد تعطلت دراجتها في الطريق.

- استمر يا سيدي!

- لقد طلبت مني أن أستضيفها بعد أن أخبرتني أنك طردتها من مويران، ولقد أمرت بإحضار العشاء لها، ثم حاولت أن أتصل بك تليفونيًا، ولكن دون جدوى.. فقررت أن أعود بابتك إلى مويران بالسيارة، ولكنها رفضت.

وتابع كريستوف دي كتي الكلام بصوت ازداد ثباتًا ورنينًا:

- وحوالي الثانية عشر والنصف مساء زهدت في إقناعها، واستدعيت زوجة رئيس الخدم التي سهرت على خدمة ابتك. وكانت الأنسة دي مويران تبدو لي كأنها فاقدة أعصابها. وأؤكد لك أنني عاملتها بكل الاحترام الواجب عليّ لها. ولا داعي لأن أضيف أنني لا أسمح لأحد أن يشك في كلامي.

كان وجه كتي شديد الاحمرار، وكانت الكلمات تتعثر في حلقه، لكن نظراته الزرقاء كانت تتلألًا، وتحقق في عيني السيد دي مويران.

ووضع المركيز في لهجة جوابه شيئًا من التعالي:

- لم يخطر لي أن أشك في كلامك يا سيدي، كما لم يخطر لي أدنى ارتياب في ديزي.

- أشكرك لكن ابتك لا تجسر على العودة إلى مويران...

- لو تكرمت، أخبرها أنها إذا لم تعد قبل هذا المساء، فإنها لن تضع قدمها بعد ذلك عندي.

فتنهذ كتي ووقف:

- ألا يمكنك يا سيدي العزيز أن تبدي مزيدًا من التفهم لكل هذا؟

تطايير الشرر من عيني السيد دي موبران:

- يا سيدي العزيز، إنني لا أفهم ماذا تريد أن تقول. وليس لديّ ما أضيفه سوى أنني حرمت دائماً المقابلات السرية في متنزهي.

* * *

وقبل أن يغادر السيد دي موبران قاعة الموسيقى، أراد أن يختبر مدى ضعف خشب أرضيتها، فجعل الخشب يضح ويئن في عدة نواح تحت قدميه، وهز رأسه، ثم تبين أيضاً أن السوس قد داهم معزفه الصغير من الخشب المدهون المعاصر «لجان سبستيان باخ»، فحزن لذلك.

كان بول يدلك السلم الكبير بحركات سحرية كمن يصقل جوهرة، فقال موبران:

- دع أرميتز يخرج قليلاً، لقد زال عنه الخطر، ولكنه لم ينتعش بعد تماماً. أليس كذلك؟

- نعم، ليس تماماً يا سيدي المركيز.

- والسيدة دي لاسيرنير؟ ألدك أخبار عنها هذا الصباح؟

- إن سيدتي البارونة تعاني من الحمى، ولقد سعلت كثيراً، ويوجد إلى جانبها الآن الأنسة جان وسيدي فيليب، إن سيدتي البارونة صلبة في مواجهة المرض، ولكن الخطر يكمن على الأخص في تقدم سنّها.

- حسناً، سأصعد إليها.

* * *

وفي حجرة الملك، لم يرَ السيد دي موبران في أول الأمر سوى

السرير الواسع ذي الروق (البلدكان) المصنوع من الحرير الدمشقي الأصفر، الذي جعله يفكر -رغمًا عنه- في أنه فراش الموت. كان رأس السيدة دي لاسيرنيير النحيف مستندًا إلى وسادة ضخمة بيضاء ناصعة، ووجهها شاحبًا، وبوجتها نقط حمراء. إن السيدة العجوز تنفس بصعوبة، مثبتة نظراتها في إمعان في أعلى الروق. وقد جلست جان بالقرب منها ممسكة بيدها، ووقف الكاهن بالقرب من النافذة يتظاهر بالتطلع إلى المناظر الخارجية.

وخطى موبران بضع خطوات داخل الحجرة، فجلست مدام دي لاسيرنيير، وأدارت نحوه عينين. لاح له أنهما زائعتان بعض الشيء.

- كيف حالك هذا الصباح يا عزيزتي ماتيلد؟

وبدا أن السيدة العجوز تستجمع أفكارها. ثم أجابت بجهد منتزعة المقاطع بصوت ضعيف لكنه عجيب الجلاء:
- إنني أتحسن.

ثم داهمتها نوبة سعال وكادت تختنق، فارتمت إلى الخلف على وسادتها وأغمضت عينيها.
قالت جان:

- لقد عادها الطبيب. إن حرارة مدام دي لاسيرنيير مرتفعة جدًا وتعاني التهابًا رئويًا حادًا ويرى الطبيب عدم استعمال المضادات الحيوية، لقد وصف لها...

وقالت المريضة مقاطعة، وهي تتكلم ببطء، وتبرز كلمات بكل قواها:

- إنني أريد لزقة قوية جدًا. وكاسات هواء!

وظلت مغمضة العينين:

- جون، أعد... لي هذا!

وابتسم ابتسامة مخيفة، بدت على جانب واحد من فمها:

- إنني أريد دواء.. فعلاً!

وأجابها السيد دي موبران بصوت أراد أن يشيع فيه التودد:

- إنك ستبرئين حالاً يا ماتيلد! هيا وسوف أعود لزيارتك.

وتبادل نظرة مع جان ثم ترك الغرفة وانصرف.

واقترب الكاهن من السرير:

- أيتها الخالة ماتيلد، إنني فيليب.

وفتحت هذه المرة عينيها:

- أنتظن أنني لا أعرفك؟

- بلى، بكل تأكيد، أيتها الخالة ماتيلد.

وجلس الأب فيليب بتثاقل فوق كرسي. ونظرت إليه جان من

الناحية الأخرى للسرير نظرة ضارعة.

- لعلك لا تتألمين كثيراً أيتها الخالة ماتيلد.

فحدقت فيه:

- أنا لا أتألم... إنني أتنفس بصعوبة، هذا كل ما هنالك.

وقالت جان بصوت منخفض:

- لا تجبرها على الكلام. إنك تتعبها.

- نعم إن الآنسة ديريه على حق، لا تجيبيني إلا بإشارات... أيتها

الخالة ماتيلد، هل فكرت في الله جل جلاله هذه الأيام؟

- هذا... شأني

- هذا شأننا جميعاً... إننا نحبك كثيراً. وكنت أريد فقط أن أسألك

عمّ إذا كنت خاضعة تماماً لمشيئته.. إنه هو الذي يختبرك هذا الاختبار
لكي...

قالت السيدة العجوز:

- إنني أحمد عليه!

ولاحت على جانب من فمها بسملة أخرى مخيفة ساخرة.

استطرد الأب بصوت رزين:

- في الحقيقة يجب حمده على ذلك.

وابتسم بدوره، ابتسامة كريمة:

- أيتها الخالة ماتيلد، ألا ترغبين في الاعتراف بخطاياك؟

وجاء الجواب بصوت بطيء لكن دون تردد:

- إليك يا ولدي؟ هذا محال.

- ليس الأمر مرتبطاً بي. أترين أن السيد قسيس القرية لم يستطع

الحضور لرؤيتك؛ لأنه الآن في إجازته السنوية معتكف في «لايبر
كيفيف»، ولكنني كنت سأقترح عليك استدعاء أحد قساوسة المناطق
المجاورة.

- لماذا؟

وتشبت الأب بشجاعته:

- إن صحتك بالتأكيد لا توحى بالقلق، ولكن يجب على الإنسان
دائمًا أن يكون على استعداد.

وتجعد أنف السيدة العجوز، وقالت لابن أخيها بصوت يرتجف
قليلاً:

- إنك تظن أنني هالكة لا محالة؟

ولم يستطع الأب إلا أن يخجل:

- اسمعي أيتها الخالة ماتيلد، إنني لم أقل شيئًا مثل هذا... كوني
حكيمًا. إنني فقط...
وسكت.

وبمجهود ضخم، انتصبت مدام دي لاسيرنيير حتى قاربت الجلوس
مستندة إلى الوسادة. وارتكزت بكامل جسدها الهش على يد جان التي
كانت تشبت بها وبقيت لحظة صامتة تترقب سعلة شديدة كان اقترابها
يخنق أنفاسها، ثم قالت وهي تزن كلمة بحركة صغيرة من ذقنها:
- إنني لن أموت... لا هذه المرة ولا هذه السنة، اتركني..

* * *

إن فيليسي الطاهية ترتدي الثياب السوداء صيفاً وشتاء. وهي جزء لا يتجزأ من موبران، منغمسة فيها دائماً كما ينغمس عش الغراب في قلب فطيرة ريفية.

إن الخالة ماتيلد لا تقبل أن يقوم على خدمتها أحد سوي فيليسي وجان ديريه. وبذا أضافت فيليسي منذ أيام إلى عملها الشاق كطاهية عملاً آخر هو التمريض، دون أن تضيف في الوقت نفسه، هذه المقدرة التي كانت تمتاز بها تلك الإنسانية القوية.

وفي عصر ذلك اليوم طرقت فيليسي باب المركز بشدة، وهي تشهر في يدها برقية، فضها السيد دي موبران وقرأها بصوت مرتفع:

«سنصل بالعربة هذا المساء، أرق مشاعر. أسرة لوانتران».

سألت الطاهية بلهجتها المنعمة التي يمتاز بها أهل برجونيا:

- ألا يرى سيدي المركز أنهم أساءوا اختيار يوم قدومهم؟
- بلى أيتها المسكينة فيليسي، ولكنهم لن يضايقونا كثيراً ما دامت
أخت زوجتي معها عربتها، وزوجها لديه أوراقه التي لا طائل منها...
وقالت فيليسي مؤمنة:

- نعم إنهم قوم طيبون.

وبقيت ساهمة، ثم قالت:

- ولكن مهما يكن، فإن الأنسة ديزي لم تعد بعد، والسيدة البارونة
دي لاسيرنيير ملازمة لفراشها! دون أن نضع في حسابنا أيضاً أن ريشارد
الصغير يرقد مريضاً هو الآخر.

- ريشارد؛ ولكنني كنت ألاعبه أول أمس، كان يصرخ كعادته لكي يحصل على قطعة من السكر، وقد نادني بـ«كي» اختصارًا للكلمة مركيز،
إني أظن... ما الذي ألم به؟

- لا شيء سوى أنه يسعل بشكل يذيب القلب، وحرارته بلغت الأربعين يا سيدي المركيز. إن الطبيب سيحضر ليعود السيدة البارونة دي لاسيرنيير، وسنعرض عليه ريشارد، إن الجو رديء ورطب جدًا منذ يومين.
وقال المركيز في جد:

- هذا يكفي لفصل الصيف.

وفي تلك اللحظة دوى صوت نفير سيارة، فأسرع السيد دي موبران إلى النافذة:

- إنهم آل لوانتران. وفي الحقيقة أن هذين الزوجين يهبطان دائمًا في الموعد المحدد... وبهذه المناسبة يجب أن تعني بأن تقدمي لهما أوفر ألوان العناية... أليس كذلك يا فيليسي؟
وضعت الطاهية يدها على خصرها، وأجابت بلهجة حادة بعض الشيء:

- هذا المساء سأقلي بعض الأسماك التي ذهب بول لاصطيادها من البركة. ثم أقوم بعمل فطيرة من الرقاق باللحم المفروم وعش الغراب وأسقيها بنبيد المادير.

لم يكن هناك محل لأي اعتراض، وخضع المركيز، ثم نزل مسرعًا إلى البهو، حيث كان السيد لوانتران يقف بقامته الطويلة وجبينه العريض

الأصلع مشبهاً بذلك غزاة الشمال.

قال لوانتران:

- طاب يومك يا شيخي جون.. إن زوجتي ما زالت تنظم العربة.
أأنتم جميعاً بخير؟

ثم من دون مقدمة، كما لو كان لديه أمر عاجل، قال العالم مسراً:
- تصور أنني وجدت أثناء بحثي في دفاتر أرشيف أورليان عقد
زواج جدّي الماريشال موسكيه!

وقطب المركيز حاجبيه، كان يتأمل أخا زوجته بدهشة مجددة.
ورفع السيد لوانتران نظارته فوق جبهته المغضنة، وأخذت عيناه
الزرقاوان الصغيرتان تطرفان. وأضاف:

- هل تعلم أن إحدى جدات الماريشال كانت من النبلاء؟

ولما لم يجد موبران ما يقوله، هز رأسه وتمتم:

- حسناً، حسناً...

إنه يفكر في ديزي، وكانت هناك بعض أفكار العنف تجول
بخاطره... وسمع صوت سيارة تقف أمام عتبة الدار ثم فتح باب البهو،
وظهر الدكتور جيار وهو يحمل حقيبة من الجلد. فاستقبله موبران وقام
بتقديمه. قال الطبيب:

- لقد استدعاني ولدك جونتران مرة ثانية. إن السيدة دي لاسيرنيير
لم تكن صحتها بالأمس على ما يرام، فلقد ظهرت عليها مضاعفات

الالتهاب الرئوي. إن قلبها سليم، ولكن حرارتها ترتفع، وقربيتك في الثانية والثمانين. وكل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنني خائف...

فاقترب السيد دي لوانتران:

- أرجو معذرتي إذا قاطعتك يا دكتور. إنك لست برجونيًا، أليس كذلك؟

وبدت الدهشة على وجه الطبيب:

- في الحقيقة، يا سيدي...

وغيرت ابتسامة بسيطة ملامح وجه المؤرخ:

- كلا يا دكتور إنك لست برجونيًا. إنك بكل تأكيد من المستوطنين في شمال نهر السين. إن «الجيار» كثيرون في منطقة نهر الواز. ولتعلم أنني أعرف أحد الجيار الذي كان محصلًا للضرائب في منطقة شومن حوالي عام ١٧٥٠.

وألقي الطبيب إلى السيد دي موبران نظرة قلقة. ثم حيا السيد دي لوانتران، وتمتم ببعض كلمات الاعتذار، واتجه صوب السلم الكبير.

وتفحص موبران وجه عديله بعين ساخطة، وانفجر قائلاً:

- جميل منك أن تكون مغفلًا! ولكن الطبيب سيظنك مخبولًا أيها المسكين «ألفريد».

ونظر إليه السيد دي لوانتران بطيبة:

- إنك تبدو عصبيًا ومتعبًا يا جون. لا بد أن هناك شيئًا ليس على ما يرام.

وارتسم القلق على ملامحه، وأمسك بقبضته ذراع موبران، ثم سأله فجأة بصوت محتد:

- أليس هناك أحد مريض، على الأقل؟

وقبل أن يجد موبران وقتاً للإجابة، دخلت السيدة دي لوانتران إلى البهو محملة بمتاع متناثر الأحجام.

- طاب يومك يا صغيري جون! لطيف منك أن تستضيفنا هكذا! أرجو ألا نكون قد أزعجناك بتقديم مجيئنا بضعة أيام! ألفريد يا عزيزي، ساعدني في إحضار الحقائق. لقد لمحت التوأم يجريان في أثر دجاجات البستاني. إنهما في منتهى الذوق واللطافة! هل الجميع بخير؟ سنصعد لكي نستريح قليلاً إذا سمحت.

كانت لمدام دي لوانتران مقدرة التدفق كقوى الطبيعة الجارفة، فمنذ بداية زواجها، كان تحويم زوجها في سماوات الأبحاث يضطرها إلى أن تكون سيدة نشطة حازمة الرأي. إنها لم تكن تهاب شيئاً، أو شخصاً، حتى زوج أختها موبران. وهي على الدوام يجيش بصدرها بركان نائر من الآراء أو المشروعات، وطبيعتها الترحال، وخاطرها مشئت.

ورجا موبران بول العجوز أن يصعد حقائبهم إلى أعلى، ثم رأى أن الحوادث تسبقه. ما الذي سيقوله بشأن ديزي؟

لقد قرر أن يقوم بزيارة لريشارد الصغير، وجد أمه جيرمين جالسة عند رأس سريره، فوقفت وابتسمت ابتسامة حزينة. كان شعرها الأسود الجميل معقوداً خلفها على طريقة «ذيل الحصان»، ولاحظ موبران آلياً

أن إحدى حمالات قميصها الداخلي ظاهرة.

كان الولد شديد الحمرة، يتلمس أنفاسه، وانتصب فوق الوسادة، ثم سعل بطريقة عنيفة يائسة، لم يتمالك على إثرها السيد دي موبران شعوره، فأمسك بالطفل كالفريسة، وضمه إلى صدره وهو يربت على ظهره الذي بلل عرقه قميص نومه الأبيض الصغير.

- لا أيها الرجل الطيب، برفق، لا يا ريشار، أيها الطفل اللطيف، برفق جدًّا.

كان يكلمه بحنو، تمامًا كما كان يفعل مع الحصان المريض وهدأ الطفل وأرقده المركيز في مهده. ثم أخرج موبران غليونًا في لون زبد البحر رأسه على هيئة رأس أحد الجنود المغاربة من ذوي اللحي، وقدمه إلى الطفل، لكن ريشار هز رأسه ورفضه بصوت ضعيف منهك.

وأعاد المركيز الغليون إلى جيبه من جديد، وتقهقر لبضع خطوات وظل يفكر «إنني أستطيع أن أتحمل كل شيء، ما عدا ألم هذا الطفل المريض، إلا هذا».

وسأل جيرمين:

- إذن صحة هذا الرجل الطيب ليست على ما يرام؟

- إن الطبيب يقول إنه التهاب رئوي يا سيدي المركيز.

- يا إلهي؛ هو أيضًا؟ ماذا جرى هذه السنة؟

- إن الجو متقلب. وبكل تأكيد هذا بسبب كل تلك القنابل

الذرية. لا بد أن البرد أصابه في نفس اليوم الذي ألم فيه بسيدتي البارونة لاسيرنيير. هل يتذكر سيدي المركيز كم كان الجو رطباً؟ إن حرارة ريشارد تزيد على الأربعين، تزيد على الأربعين.

واختنق صوت جيرمين بالعبرات، وأشارت إلى الطفل بحركة مؤثرة، ثم أدارت عنه وجهها المتعب وعينيها المليئتين بخوف شديد. ثم عادت وجلست، دون أن تفتح فمها، وأخذت تهز رأسها بحركة مستمرة كالدابة التي تتألم.

وفحص موبران الدواء الذي أحضره الطبيب، ثم همس: «مضادات حيوية» وكان ريشارد قد أغلق عينيه في المهد - ورأى السيد دي موبران ظلالاً على وجه هذا الطفل الصغير المغمض العينين.

* * *

وتقابل موبران مع جان على السلم، كانت بادية الإرهاق، ولكنها ابتسمت بملاحظتها المعتادة، فأمسك بذراعها، وأوقفها:

- إلى أين تذهبين؟

- ذاهبة لأعد الكمادات لمدام دي لاسيرنيير، ولأبحث عن بعض القطن الطبي لكاسات الهواء.

- حسناً يا جان، إنكِ في الحقيقة تعنين بهذه السيدة العجوز كما لو كنتِ ابنتها التي ولدتها.

- نعم...

- وفي الواقع إن مَنْ يراكِ يظن أنكِ خبيرة بحاجات المرضى!

- نعم. لدي... لديّ شهادة الدولة في التمريض. لماذا تسألني هذه الأسئلة؟

- لأن... هذا من الصعب أن يقال يا جان. إنك تستبسلين في بذل العناية!

وطأطأت رأسها وهي تبتسم ابتسامة غامضة بعض الشيء، كما لو كانت تنظر إلى أعماق نفسها، وتبحث عن انعكاس صورتها في ماء بئر عميق.

- انظر يا سيدي، إنني لم أقابل أحدًا في حياتي يمكن أن يقارن بالسيدة دي لاسيرنيير من حيث قوة رغبتها في الحياة، مطلقًا.

- لا تناديني «بسيدي» يا جان أرجوك.

ونظرت إليه دون أن تبتسم، وتابعت:

- إنني أريد حمايتها؛ فهي متعلقة بي، وتشعر أنني في جانبها، إنني كثيرًا ما سهرت على شيوخ... وكنت أرى دائمًا أنهم وحيدون. وهم يعرفون ذلك. إنهم يعرفون أن أحدًا لا يريد لهم الحياة جدّيًا، ولهذا يغرقون. وإذا انهارت السيدة دي لاسيرنيير، فسينهار معها جزء مني.

- جان... هل تعلمين أن ريشار أيضًا يُعاني من التهاب رئوي؟ هذا شيء غير معقول طفل مريض، هذا شيء مثير! وأنا لا أدري ماذا أفعل لقد وصف له الطبيب عدة أدوية، وأمه تبذل قصارى جهدها، ولكنني سأكون أكثر اطمئنانًا: لو أنك...

وهزت جان رأسها برفق:

- بكل تأكيد سأذهب لرؤيته، ولكنني لن أستطيع السهر عليه، إنني في شدة الألم لذلك. إن السيدة دي لاسيرنيير في حاجة إليّ. ولقد استحضرت مرتبة لي في حجرتها، فهي تناديني أثناء الليل.

وتطأيرت عينا المريكز شرراً:

- عجباً يا جان! هل تسمحين لي أن أكلّمك بصراحة؟ إنني أعرف ماتيلد، صدقيني إنها منذ سنين وهي لا تفكر إلا في نفسها، إنها لا تفيد بشيء ولا تنفع أحداً، لقد ولى زمنها، وإذا كان أحد قد استفاد بحياته... في الوقت الذي فيه هذا الطفل...

- لا أحد ولى زمنه كما تقول.

واجتاح غضب شديد قلب المريكز، ولكن ذلك الغضب لم يكن موجّهاً ضد جان:

- إنني أشكرك على إخلاصك يا جان، ولكنني لن أفهم أي شيء في الوجود إذا الطفل مات، وإذا العجوز...

فاتكأت على سياج السلم المبني من الحجر، وحدجت السيد موبران بنظرة طفلة صارمة:

- لا تقل هذا... لا يوجد شخص ليست له فائدة... إن مدام دي لاسيرنيير لا بديل لها.

- ليتك رأيت مثلي كيف تتحمل مدام دي لاسيرنيير لبخات الخردل... إنها تعرف ما تحتاج إليه، ويجب أن أضع لها كثيراً من دقيق الخردل في اللبّخ. إنني عندما انتزعت لها اللزقة أمس - بما أنك تريد

أن تعرف كل شيء - كان ظهرها شبه محروق، فكان عليّ أن أضع فوقه بودرة «تالك» ، ومع ذلك ظلت تتلوى من الألم لمدة ساعة. إنها تصر على وضع لبخة أخرى هذا المساء، ولكنني لن أطاوعها، فإن لبخة حقيقية أخرى من الخردل ستؤلمها تقريباً مثل وضع الكبريت فوق جرح مباشرة، إنني سأقلد لها واحدة، وأكذب عليها. فإذا كنت تهوى الشجاعة...

- حسناً افعلي كما تريدين! إننا نشكرك جميعاً من أعماق قلوبنا يا جان، فقط عندما تقولين إن ماتيلد لا يمكن أن تعوض.. فإنني أسألك بالنسبة لمن؟

- بالنسبة لي أنا التي أسهر عليها!

وتركته عند هذه الكلمة، ونزلت وهي تنتهب درجات السلم أربعاً أربعاً.

* * *

كان التوأم يهيمن كالأرواح القلقة. إن الحالة الصحية للخالة ماتيلد لا تعنيهما إطلاقاً، كما أنهما لم يفكرا قط في الطفل المريض ولكن كان محتمماً عليهما عدم القيام بأي ضجة في المنزل.

لقد عادت الحرارة وأصبح جو الصيف ثقيلاً طناناً، كما لو كانت كل برجونيا عبارة عن خلية نحل. ولحسن الحظ كان العم ألفريد دي لوانتران قد وصل. إنه سيقص عليهما قصصاً من قصص غزاة الشمال «فيكنجز» بعد الغداء، وسيصحب التوأم إلى المتنزه في الصباح،

ويشرح لهما أي موضوع يريدانه، وسيلعب معهما «الشيش» بالعصي القديمة وفروع الشجر المقطوعة، وسيلعب معهما حتى «الاستغماية» في الدلواروبيزو الصغرى. هذا عدا جلسات لعبة مونوبولي التي لا تنتهي، والتي في خلالها كان العم دي لوانتران يدهش التوأم بعدم نزاهته الشديدة.

لكن مغامرة ديزي كانت تقلق الصبيين، ولقد فكرا في لحظة أن يذهبا إلى كنتي ويضربا هذا المضلل الفاسد، وبالرضى أو بالقوة يعيدان في احتفال أختهما إلى بيت أبيها.

وسأل في غير خبث أوزمون:

- هل تظن أنه قريبها؟

- كلا بكل تأكيد. إنها مغرمة به، وهذا كل ما هناك.

- ألا تظن أنه سيحاول استغلال الفرصة؟ وبذلك يستطيع إرغام والدي. إن الظروف مواتية، كما كان يقول زميلي الصغير نابليون.

- مواتية أو غير مواتية، فلن يعمل شيئاً؛ لأنه يحب ديزي، وهذا حقه، هذا الرجل، أم ليس حقه؟

وفي هذه المرة صاح أوزمون صيحة احتقار:

- إنه يحب ديزي؟ الأجدد أن تقول إنه يريد أن يتزوج درعاً أصيلاً؛

لأن درعه مغشوش من الجوانب...

قال لوي سيزار في جد:

- إنك لا تعرف شيئاً عن الحب.

وانتهت المسألة عند هذا الحد. وذهبا يطرقان باب العم دي لوانتران.

كان المؤرخ يرتدي سروالاً قصيراً أزرق، وجذعه عار، ووجده التوأم بهذا اللباس منحنيًا أمام حقيبة من تلك الحقائق الحربية التي كان يستعملها قبل حرب ١٤-١٨، وفي داخل هذه الحقيبة كانت أوراق قديمة تختلط بملابس داخلية وملابس خارجية. وقدر الولدان الموقف بنظرة صائبة، وبالتخمين توصلا إلى أن السيد دي لوانتران كان قد بدأ في ارتداء ملابسه ليكون مستعدًا للعشاء، ثم جاءته فكرة فنسي العالم أن يغتسل، وشرع في التنقيب في الحقيبة باحثًا عن إحدى الوثائق، وقاده هذا التنقيب نفسه إلى أن يقرأ أوراقًا أخرى، بحيث اختفت من ذهن السيد دي لوانتران مفاهيم الصابون والهندام والمكان والزمان، تلك المفاهيم العابرة.

- أيها العم ألفريد، لماذا ترتدي سروالاً أزرق؟

«إنني أرتدي دائمًا السراويل الزرق»، أجاب بعظمة كمن يبشر بعقيدة، وحك بأظافره الحجة الرمادية التي تغطي صدره القوي.

- سيكون العشاء معدًا بعد حوالي ثلاثة أرباع الساعة أيها العم «ألفريد».

- حسنًا جدًا، حسنًا جدًا، والآن اتركاني أيها الولدان، فإنني كنت أرتدي ملابسي.

- إن السيد دي بارفي سيتعشى معنا هذا المساء.

- بارفي؟ إنني سأسر لرؤيته! يا له من ظاهرة طبيعية، أليس كذلك؟
بقصص عصافيره.

- إنه يقول نفس الشيء عنك أيها العم «ألفريد»، وعن قصصك عن
غزاة الشمال وعن كل أبحاثك عن الماريشال المجهول.

- ومن هذا المارشال المجهول؟

- إنه الأب موسكيه، أيها العم «ألفريد».

وبدت الصرامة على وجه السيد دي لونتريان المرح، فمال برأسه
الكبير نحو التوأم، وعقد في جلال ذراعيه فوق صدره، ولكن التوأم لم
يأبها به؛ لأنه كان لا يزال مرتدياً سرواله القصير.

وقال بعجلة لوي سيزار:

- إن سروالك يتمزق من الخلف أيها العم «ألفريد».

وبدا على السيد لونتريان الحرج. واكتفى بأن طرد الولدين:

- والآن ستخيلان لي المكان أليس كذلك؟! كيف تريدان أن أرتدي
ملابسي بهذه الطريقة؟

* * *

كان المركيز دي موبران قد قال لأولاده:

- إن عمكم وعمتكم لونتريان حضرا هنا للراحة. ولدينا متاعبنا
الصغيرة مع ديزي، ولدينا كذلك أشخاص مرضى بالقصر، ولكن
الأمور لا تخص سوانا. أريد منكم أن تكونوا مرحين على المائدة وأن
يكون اللوانتريون مغتبطين بإقامتهم بيننا... مفهوم ذلك؟

ثم أضاف وفي صوته نبرة تأثر:

- أنتم تعلمون أن ابنهما «جيل» سافر منذ عامين متطوعاً في الحرب الدائرة في الهند الصينية.. لقد سألتهما عن أخباره، وعلمت أن كل شيء على ما يرام، ولكنه اعتُبر مفقوداً مرتين، وهذا شيء مثير جداً للانفعال بالنسبة لهما. إنهما على جانب كبير من الشجاعة، ويفضلان أن لا يكلمهما أحد عن «جيل»...

كان العشاء مليئاً بالمرح. ولم تكن ديزي حتى الآن قد حركت ساكناً. وبادئ الأمر لم يتعرض لسيرتها أحد، إلى أن سأل بارفي، وهو يتذوق سمكته المقلية:

- يا للشيطان! أين صغیرتنا ديزي؟ لعلها ليست هي مریضة.

وأجاب باقتضاب المركيز دي موبران:

- إنها عند بعض الأصدقاء.

وأصدر السيد دي لوانتران صيحة تنم عن خيبة الأمل:

- أرجو أن تعود إلينا عن قريب؛ لأنني في حاجة ماسة إليها في عملي.

وسأل ببراءة لوي سيزار:

- أي عمل أيها العم «ألفريد»؟

فأجاب السيد دي لوانتران بقوة:

- التقديم لحياة «أناتول دي موسكيه ماريشال فرنسا» البطولية.

سأبدأ بفذلكة عن عائلة الماريشال، وبعض الأشياء الصغيرة
المسلية للغاية. فقد وجدت أن موسكيه هو ابن خالة عبد القادر، عن
طريق زميل من أسرة البوركون دي لابرينييه كان قد تزوج إحدى
أميرات البربر حوالي ١٦٦٢، وهذا يفسر ولع لموسكيه ببنات القبائل
الصغيرات.

صاحت مدام دي لوانتران: «ألفريد!».. فقد أحست في فزع أن
إحدى قصص المغامرات النسائية على وشك أن تبزغ، وبحركة وافية
أشارت إلى التوأم اللذين رفعأ أعينهما الزرق الجميلة.
وقال أوزمون ببساطة:

- إذا كنت قد توقفت بسببنا أيها العم «ألفريد» فيمكنك الاستمرار!
إننا نعرف كل شيء عن حياته، وعن كل المغامرات.

وعض السيد دي موبران على شفتيه لكي لا يضحك، في الوقت
الذي تبادلت فيه مدام دي لوانتران ودوقة بوتفيل نظرة قلقة.

وظلت جان ديبريه صامته. كان السيد موبران قد أصر وبصورة
قاطعة على أن تحضر العشاء. وانتفضت جان عندما سألت مدام لوانتران
عن أنباء السيدة دي لاسيرنيير:

- لقد مررت لرؤية هذه المسكينة ماتيلد قبل العشاء، وأقول لكم
بصراحة إنني... إنني لم أسر لحالتها.. ماذا تظن في ذلك يا صغيري
جون؟

قال موبران:

- أنا؟ إنني أظن أن لديها اثنين وثمانين عامًا.

وامتنع وجه جان. وحطت الشوكة التي كانت ستحملها إلى فمها، وحدقت في موبران.. وكان العم ألفريد دي لوانتران بالرغم من شروذ ذهنه المعروف، لديه القدرة على أن يرى ما لا يراه غيره، لقد لاحظ تعبير هاتين العينين القاتمتين الزرقة البديعتين وقد اتسعتا.

فابتسم:

- إنني أظن أن آنستي تود أن تقول شيئًا بخصوص هذا الموضوع.

والتفتت إليه جان متحفزة مرتجفة، ولكن صوتها ظل هادئًا:

«نعم أردت أن أقول إن جدتي ماتت في الرابعة والتسعين، وإن في المستشفى»... ثم سكت.

وغير ظهور فطائر الرقاق -تسبقها رائحة نبيذ مادير المجيدة- سياق الحديث لكن السيد دي لوانتران لم يكن ليترك بسهولة فكرة ما، فرفع نظارته دون أي سبب فوق جبينه العريض، وقال لموبران وهو يطرف بعينه بسرعة:

- إنني متفق مع الآنسة أيها الشيخ جون. يا للشيطان! لماذا يموت المرء في الثانية والثمانين؟

وقالت العمة كوريزاند:

- ألا يمكن أن يكون حديثكم أكثر إبهاجًا؟

وعلى أثر ذلك بدأ بارفي جدالًا حادًا مع الأب والتركي وجونتران بخصوص الصيد الذي كان يدعي أنه من عارفيه. ونتج عن ذلك ضجة

هائلة، ولكن السيد دي لوانتران الذي كان يتابع فكرته، وكأنها خيط آريان، انتهز الفرصة وأسر إلى جارته دوقة دي بوتفيل:

- هل رأيت بول العجوز؟ ولقد أدى علامة الصليب عندما تكلمنا عن الموت... لقد أحسن رسمها وهو مستدير ناحية الحائط، ولكنني رأيته رغم ذلك.. هذا شيء مضحك، لقد لاحظت ذلك كثيرًا: إن عامة الشعب تميل دائمًا إلى التهويل...

وأجابت الدوقة بقصة لم يستمع إليها قط السيد لوانتران، بالرغم من أنه كان يميل بأدب ناحيتها. فقد كان يدير في ذهنه فكرة سبق أن بات يقلبها أثناء لياليه، وهي «إذا كان عليّ أن أعرف الأرستقراطيين، فإنني سأبدأ القول بأنهم قوم يتميزون بالاستهانة؛ إنهم يمزحون مع الموت، ومع الحب، مع كل شيء. إن الاستهانة شيء هام، فالأرستقراطي هو قبل كل شيء من يتكلم باستخفاف عن الأمور الخطيرة.

وخيم سكون، أرادت مدام لوانتران أن تقطعه بلطف:

- قل لي يا عزيزي جان، صغيرتنا ديزي ألن تزوجها قريبًا؟



الفصل الثالث عشر

كان السيد دي موبران خارجًا من الإسطبلات، عندما رأى عربة فاخرة لونها أخضر قاتم يزين جميع حوافيها طلاء معدني، تعبر بوابة الجنوب، ووقفت العربة المتبرجة في ساحة الشرف، ونزل منها جمع من القوم تبدو عليهم أمارات السرور والانشراح.

وقال موبران وهو يزمجر:

- هذه زيارة كالسخرة!

إن قصور موبران معدود من الآثار التاريخية، وعندما تسمح ميزانية الدولة -وذلك نادرًا ما يحدث- فإنها تقوم بدفع نفقات بعض الإصلاحات. وكان مدير الإقليم يزكي بنفسه راضية مطالب المراكز. ولشكره على هذا، كان السيد موبران يمنح أصدقاء ذلك الموظف الكبير امتياز زيارة القصر. وكانت هذه الزيارات السياحية تحزنه، ولكنها تجلو قريحة التوأم وتطلق لسانيهما...

وجاء المراكز لاستقبال الزوار. كان كلب الصيد الذي يملكه يسير في أثره. وبذل موبران جهدًا فوق طاقة البشر لكي يتسم لتلك القبيلة.

قال له رجل بدين تبدو عليه السعادة وهو يمد يده الوردية الرائقة:

«إنني السيد «جاتينيه لريش»، قال ذلك بينما كان يحفف رقبتة باليد الأخرى وأضاف العميل:

- مدام «جاتينيه لريش» زوجتي، فرانسواز ورينيه أولادي، السيد «نويل جاتينيه لريش» ابن عمي، وزوجته.

وانحنى المركزيز محيياً.

وأضاف الرجل البدين بلهجة من يأمر بإحضار فطيرة بالقشدة:

- إننا نود أن نزور... إن صديقي المدير قال لنا...

وفي هذه اللحظة سمع صوت جونتران المنتظر آتياً من القنوات، إن الولد المدهش يدعي أنه أكمل العمل الذي كان يستلزم فريقاً كاملاً من البنائين لأسابيع عدة، فإنه منذ شروق الشمس حتى غروبها كان يعمل تارة، وتارة يسب ويلعن، وتارة يغني، وكان قميصه الأزرق الملون بالبقع والقذارة يرى يتحرك عند أسفل الأسوار ومن وقت لآخر، لكي يتسلى ويستريح على حد قوله، كان جونتران يصلح أبواب السدود المتحركة داخل الخندق «لم يخلق بعد عامل يمثل هذه الحماسة والحكمة»، هكذا فكر المركزيز وهو يتكى فوق السياج، ولاحظ أن جان ديبيره كانت قد جلبت لتوها وجبة خفيفة. إنها تقدم له المأكولات في صمت ورشاقة، ومن حولهما كان جو الصباح الصيفي يفتق كالخشب وسط النار.

وشعر المركزيز بتقلص خفيف في معدته عندما رأى جونتران يقرب وجهه من جان. ولكنها تباعدت وهي ساكنة تبسم، ثم رفعت عينيها

صدفة فلمحت السيد دي موبران وأعضاء قبيلة «جاتينيه لريش». صاح
المركز:

- كيف حال ماتيلد هذا الصباح؟

وأظلم وجه جان المشرق، كالزهرة عندما يظللها جناح طائر:

- إن صحة السيدة دي لاسيرنيير سيئة، سيئة جدًا، أظن ذلك. يجب
أن يحضر الطبيب عصر اليوم، أما أنا فسأعود لأكون بجانبها.

قال موبران بصوت متهدج:

- إنني في غاية القلق من أجل ريشار الصغير يا جان.

واستدار ناحية ضيوفه، وقال لهم:

- معذرة، أرجو أن تتبعوني لو تكرمتم، سنبدأ بقاعة الموسيقى
وقاعة الاستقبال الكبرى.

قال السيد جاتينيه لريش الذي لاح على وجهه لمدة قصيرة شيء
من الذعر:

- أعندكم أحد مريض؟ يمكننا الحضور يومًا آخر.

أجاب موبران:

- يمكن.

ولاقى المركز صعوبة في طرد الصورة التي تجمع جان وجونتران
بعيدًا عن مخيلته، ولكنه كان سيد نفسه، واختفت هذه الرؤية السيئة من
أمام عينيه، وبقيت له الوحدة فقط، والشعور بالقلب الفارغ «فراغ البئر

الجافة» على حد ما جال في خاطره الشارد.

وقابلوا فيليسي التي أشارت إلى موبران إشارة صغيرة. كانت عيناها محمرتان وتكاد تجن:

- إن صحة ريشار تسوء يا سيدي المركيز، وقد أخبرت سيدي فيليب لكي يصعد عنده وتريد جيرمين أن يحضر سيدي المركيز أيضًا. وفي ذلك الوقت مر التوأم في أقصى الشرفة يجريان صوب المتنزه بسرعة من يطارد صيدًا، فنادهما السيد موبران بحدة.

وأقبلًا إليه ضاحكين وهما يلهتان- فقال موبران:

- اسمحوا لي أن أقدم لكم ولديّ. لقد استدعيت لأكون بجانب طفل مريض، وأرجوكم قبول عذري، إن أوزمون ولوي سيزار يعرفان القصر تمام المعرفة.

تبادل التوأم نظرة قصيرة. وابتعد المركيز بعد أن حيا ضيوفه، وشكت الآنسة فرانسواز جاتينيه لريش من بقبقة في قدمها. واستتبع ذلك مناقشة بين الفتاة الشابة التي كانت تحمل في شعرها مشطًا وتناhez السادسة أو السابعة عشر من عمرها- ووالدتها التي كانت تزين قبعتها بفراشات زرقاء. كان الأمر يدور حول معرفة ما إذا كان الأفضل لفرانسواز لو أنها ارتدت حذاءها البسيط الأصفر بدل أن «تعذب قدميها بحذاء ذي كعب عال»،- بالتأكيد يا ابنتي الصغيرة!». أما رينيه البالغ من العمر إحدى عشرة سنة فكان يدس إصبعه منقبًا في أنفه الواسع المفتوح.

وأخذ التوأم يدقان الأرض بأقدامهما، ويتشاوران بصوت منخفض،
ثم صاح لوي سيزار:

- من هنا أيها السادة والسيدات!

وعلى جانبي سلم المدخل كانت هناك كومة من القذائف
المصنوعة من الحديد يرجع تاريخها على الأقل إلى أيام لويس الرابع
عشر، ولاحظت فرانسواز الشابة وهي تداعب حليها باستخفاف أن تلك
القذائف كانت «قذرة وصدئة»، ولكن أوزمون أجابها بصوت صارم
واضحاً الأمور في نصابها:

- إنه الدم النمساوي يا آنستي هو الذي أصدأها!

قال السيد جاتيني لريش الذي كان لا يعرف ماذا عساه أن يقول:

- حسناً... حسناً.

ودخل الزوار إلى قاعة الموسيقى، كانت أرضها الخشبية تترنم
تحت أقدامهم. وقال ريني الصغير:

- أواه، إنها تفرقع!

ولم تعجب الملاحظة التوأم. فأجاب أوزمون بابتسامة جامدة:

- حقيقة إنها تفرقع، فلا تتكئوا كثيراً عليها بأقدامكم وأنتم سائرون،
إن تحتها بالضبط توجد سجون مظلمة.

ونظر ريني إلى والدته نظرة الأرنب الوجل:

- إنك ترى جيداً أن السيد يقول ذلك من باب الدعابة! استمع بدلاً
من أن تقول الحماقات...

وهزت مدام جاتينيه إحدى يديها فلذة كبدها الصغير، فاهتزت
قبعته في إيقاع مع خلجات الفراشات الزرقاء، وقال لوي سيزار بصوته
النحيل:

- وهذه قاعة البلياردو، وعلى حوائطها لوحات لأفراد العائلة.

ولفت أولاً نظر القبيلة إلى صورة للسيد الكاردينال دي مارليت
بعباءته الحمراء ذات غطاء الرأس، وياقته المقواة، وعينه وفمه التي
تشبه عيني وفم ملاك الشر:

- انظروا إليه جيداً! لقد كان حليفاً للشيطان. إن كل الذي يشتهي
هو النساء.

ثم أضاف أوزمون مؤكداً:

- وبالطبع حصل عليهن؛ لأن الشيطان يؤدي ما يتعهد به.

وسئل السيد جاتينيه لريش.

وعلق التوأم على صور السيد المارشال «دي سانت أندريه»
المتغطرس قوي البنية الذي يضع فوق رأسه قبعة صغيرة لها ريشة طائر
مثل سيده الملك هنري الثالث، وصورة السيد المركيز دسيجنوليه وهو
يلبس ياقة من الطراز الإسباني من الموسلين المكرنش ويحمل شارباً
مرعباً، والسيد الدوق دي روان الوسيم الطلعة في ياقته المصنوعة من
الدنتيلا. ثم وقفوا أمام صورة السيد المركيز لوي سيزار أوزمون دي
مويران القائد الأعلى لجيوش الملك، ورئيس حرس سمو الكاردينال
الدوق دي ريشليو. وكانت عدة نسخ من صورة هذا «المويراني» تزين

حوائط حجرات وقاعات القصر. كان شاربه كبيرًا وكثيفًا للغاية، وهو نحيف مشوه متوحش تقبض يده بشدة على نصاب سيفه، وعلى صدره وسام قرمزي يحجبه.

قال أوزمون ببساطة:

- هذا والد والد والدي.

وقال لوي سيزار:

- لقد كان حارس الكاردينال، مثل «الشاويش»، ثم أضاف في رقة:

- لقد قتل أربعة عشر فارسًا في أثناء خدمته.

وهذه المرة أظهرت عائلة لريش شيئًا من الانفعال، واختفى إصبع رينيه الصغير بأكمله في أنفه، وحيث بدا أنه استقر إلى الأبد، وظلت فرانسواز تداعب المشط الذي في شعرها وتحقق في الضابط المشوه كما يتأمل العصفور الثعبان، وتمتعت مدام جاتينيه:

- أربعة عشر فارسًا!

ورأى التوأم أنهما يستطيعان أن يستغلا الموقف حتى النهاية، فاستطرد أوزمون بصوت مرتفع، ذي نغمة موحدة كصوت الدليل المحترف:

- لقد كان سفاحًا، وكان لديه حذاء «خفي» سُمي بحذاء موبران، وكان هذا يقتل لك الرجل بضربة واحدة تخترق بنكرياسه.

- إنه يصوب دائمًا إلى البنكرياس.

- وفي يوم من الأيام تحدى دارتانيان الذي كان قد بدأ يضايقه، فتخاذل دارتانيان.

- إنكم لن تجدوا ذلك في كتب التاريخ.

- لقد نصبه فارسًا أثناء المعركة صاحبه دوجيسكلان. وكان زميله المفضل.

كان السيد جاتينيه لريش من أنصاف الجاهلين، أي أنه كان عظيم الجهل. ومع ذلك احتفظ في مادة التاريخ ببعض النقاط البارزة التي حصل عليها أثناء دراساته القصيرة، والتي كانت لسوء الحظ متباعدة: إن بعض الأعمال وبعض التواريخ ما زالت عالقة بذهنه كالعصافير داخل القفص: هوج كايه ٩٨٧-٩٩٦، موت القديس لويس سنة ١٢٧٠، موقعة مارنيان ١٥١٥، موت لويس الرابع عشر ١٧١٥... وهذا كل ما يعرفه تقريبًا عن نظام الحكم القديم، أما التاريخ الجدي فيبدأ من ١٧٨٩.

وقال أوزمون:

- إن قائد حرس الكاردينال أيضًا هو الذي أحيا قانون المخالطة في موبران، فإنه وهو سيد الناحية عندما تتزوج أي فتاة من القرية كان له الحق في تجريبها... ولما كان رجلًا شهوانيًّا...

«سيكون لطيفًا منكما لو تكرمتما بآلا تذكرا أشياء غير مناسبة أمام أولادي»، طلبت إليهم ذلك مدام جاتينيه لريش دون غضب، فأجاب لوي سيزار في غاية من النبيل:

- سيدتي، إنه التاريخ.

ثم زاروا قاعة الاستقبال الكبيرة وحجرات وممرات الدور الأول.

وسأل أوزمون بلطف:

- هناك أيضًا في قاعة الحرس تمثال لأحد الأسلاف من آل موبران،
من الفولاذ المغطي بالكروميه... أتهمكم مشاهدته؟ سترون الثقب
الذي في درعه، لا بد أنه تلقى ضربة عجيبة.

وأخذ التوأم يتكلمان من هنا وهناك، ويزيدان من الروايات
والتعليقات؛ ويخلطان التواريخ والمليكيات، وكانا يلعبان بكل هذه
الأشياء كما يلعب القط بلقافة من الصوف.

واسترعت صورة -بلا توقيع- لجان سيزار دي موبران، الذي مات
على المقصلة سنة ١٧٩٣، انتباه عائلة لريش. كان الرجل النبيل يلبس
شعرًا مستعارًا معفرًا، وحلة رمادية وصدارًا أخضر على صدره حلية
من الدانتلا، وأكمامه ناصعة البياض وكانت تتراقص بسمة فوق شفثيه
الرققتين. وقال السيد جاتينيه لريش في أدب:

- إنه يشبه روبسبير حقيقة؟

وامتقع لون التوأم، ثم توهجت وجناتهما، وتبادلا نظرة متأملة،
وسأل لوي سيزار الذي علا صوته:

- أيشبه روبسبير حقيقة؟

- لكن...

- ما أعجب هذا! أتعرفون ماذا فعل هذا الروبسيير القذر بجدنا الأعلى هذا؟ لقد قطع رأسه؟

- إنني متأسف، إنني...

وشعر السيد جاتينه لريش أنه أُصيب في حبه للجمهورية من خلال شخص ماكسميليان الذي كان يعتبره أحد رجاله العظماء، غير أنه ظل واقفًا في غاية الحرج والارتباك أمام صورة موبران الذي أعدم فوق المقصلة، ثم تمت قائلًا:

- إنني لم أكن أعلم جدكما... لقد حدث ذلك قطعًا عن طريق الالتباس.

قال أوزمون بلهجة حاسمة: كان عنيًا... وهناك الأدلة!

واقتنع السيد جاتينه لريش.

* * *

إن ريشار الصغير أنفاسه تختنق. وجيرمين تمسك بيده. ومن وقت لآخر تهز رأسها، فيسدل شعرها الفاحم فوق وجهها.

إن الحرارة لم تهبط يا سيدي المركيز، وهو لا يستطيع التنفس الآن، إن سيدي الأب فيليب خارج لتوّه من هنا.

كانت جيرمين تتكلم بصوت منتظم، وكان قناع من الفزع مطبقًا على رأسها.

وقال المركيز:

- اتركييني.

ثم أبعد جيرمين برفق، وأخذ الطفل بين يديه، واحمر وجه ريشار وتشنج جسده وخرجت حشرجة من حلقه - حشرجة قصيرة خرجت منه بجهد كبير وقالت جيرمين:

- إنه لا يستطيع حتى أن يسعل!

وتقوس الطفل، وفتح فمه، وجعله مستديرًا كقم السمكة داخل الشبكة، وأدار ناحية السيد دي موبران عينيْن جاحظتين، ثم فجأة تراخى الجسد الصغير بين يديه، واسترخت عضلاته ببطء، ونهاوى رأس الطفل إلى الخلف هامدًا وارتعد موبران ولم يستطع أن يتغلب على تلك الرعدة التي تمتلكه. وجلس وهو ينظر إلى جيرمين. كان يحمل الطفل فوق ذراعه مانحنا إياه في يأْس كل حرارة حياته. وفكر موبران!

«ماذا ستفعل جيرمين عندما تعلم؟» إنه في صراع مع هذا الرعب لا داعي له، ويحاول أن يحتفظ بهدوئه، ثم أخذت تطوف في نفسه، بطريقة محمومة العبارات التي يمكن أن تناسب المقام:

- طفل ميت، هذا شيء يجعل شعر المرء يقف فوق رأسه!

وكرر هذه الجملة بينه وبين نفسه، وكانت شفتاه ترسمان في صمت شكل هذه الكلمات:

- إنه شيء يجعل شعر المرء يقف فوق رأسه.

وقالت عندئذ جيرمين:

- سيدي المريكز، أظن أنه قد نعس.

قالت ذلك بصوت متغير يجري، فيه أمل مجنون.

ولم يتحرك موبران. وعرف في نفس اللحظة أن جيرمين تقول الحقيقة. فظل يحمل الطفل؛ ويدفئه بين يديه ويضع رأسه الصغير فوق قلبه؛ لكي تستجيب الحياة إلى الحياة، فإن الطفل كان لا يزال حيًا، وخفية غشيه نعاس عميق بعد خلاص غير معروف مصدره. نعاس وأمل، ولأول مرة منذ أيام وليال عديدة، كانت ملامح ريشارد الناحلة تحمل آثارًا من الضياء ولم يشأ أن يتركه موبران، بل أبقى يديه ملتصقتين بالجسد الضئيل الذي دبّت فيه الحياة من جديد، وأسند على جلده مباشرة إبهام يد الفنان التشكيلي التي يمتلكها الرجال.

* * *

وقال الكاهن:

- على ذلك أيتها الخالة ماتيلد فصحتك في تحسن؟

كانت السيدة العجوز نصف جالسة مستندة إلى وسادة بيضاء دون حراك، مقفلة العينين، وكانت تلك الوسادة تبدو وكأنها تاج بابوي كبير فوق رأسها.

ورسمت إحدى يديها النحيلتين المصفرتين، ذات المخالب التي تشبه مخالب وحوش الأساطير، حركة إلى جان، ثم سقطت بجانبها. وكان ذلك يعني: أرجو أن تجيبه.

وقالت جان:

- إن صحة مدام دي لاسيرنيير في تحسن.

وهمس الكاهن:

- إنك تعلمين أن ريشار الصغير يحتضر! ولقد تركته من فوري،
وقد استدعينا الطبيب على عجل.

وقالت جان، ورجفة الفزع تهز صوتها:

- إنه لشيء فظيع.

- أيتها الخالة ماتيلد، هل تتكرمين بالانضمام بفكركِ إلى صلواتي
من أجل ريشار الصغير؟ لا تجيئيني.. إذا فتحت فقط عينيك سأعرف
أنك تفهميني جيداً.

ودون أن تحرك أجفانها، تلفظت ببطء وهي تحسب حساب الجهد
الذي تبذله في كل كلمة:

- لقد سبق أن قلت إنني لست صماء يا فيليب.

واستطرد الكاهن بحنو هادئ:

- إنني أعرف ذلك جيداً أيتها الخالة ماتيلد.. كنت أخشى فقط أن
تكوني ناعسةً.

وأشارت اليد العجوز ذات المخالب إشارة غير ملحوظة إلى جان
ديبريه التي أجابت:

- إن مدام دي لاسيرنيير لا تنام إلا عند ما تريد أن تنام.

وقال فيليب:

- إني أتعبها، أليس كذلك؟

- كلا أظن ذلك، فقط يجب ألا تبقي معها كثيرًا، على الرغم من أنني أعرف إن زيارتك لها تسرها، فلقد قالت لي كذلك إنها تحب سماع صوتك.

كانت مدام دي لاسيرنيير تحاول التنفس جاهدة، بطريقة تحز في السمع والبصر، ولكن في هدوء بلغ غاية الإصرار والعناد، كالشخص الصبور الذي يبحث عن شيء مفقود. وكان بعض العرق يبلل جبهتها وجناحي أنفها، واستمرت جان تمسح هذا الوجه المنحوت من الحجر العتيق، بنوع من المحبة السامية الأكيدة التي كانت تجعل المرء يتجه بفكره إلى فيرونيك. وكان الأب فيليب قليل المعرفة بالمحتضرين، ولذا ظن أن الصراع على وشك الانتهاء، وأن الحياة تنصرف من طريق خفي مثلما ينصرف الماء في وعاء مصدوع.

- أيتها الخالة ماتيلد، أود أن أقول لك كلمة أخرى، كلمة واحدة بخصوص ريشار الصغير، إنني أطلب منك أن تتجهي بفكرك إليه، أن تنضمي إلى صلواتنا من أجله «بل كما تريد أن تقدمي...».

وفجأة قاطعه صوت مدام دي لاسيرنيير الضعيف بعد أن بذلت مجهودًا ضخمًا في رفع رأسها - قائلاً:

- أريد أن يتركني!

وخيم على الحجرة سكون قصير، ثم قالت جان:

- أسمعت يا سيدي الأب؟

ووقف فيليب، وانحنى فأمسك برأس مدام دي لاسيرنيير بين يديه الكبيرتين، وقَبَّلَ جبينها.

وظلت الحجرة ساكنة لمدة طويلة بعد انصرافه. إن أفكار جان حائرة تقفز من وجه لآخر، وتنتقل من الفكرة المحدودة إلى التأمل السابح العليل، وتحركت يدا المريضة فوق الفراش كالعصافير الهرمة. فسألت جان في قلق وقد تنبعت فجأة.

- هل أنت بحاجة لشيء؟

- نعم سأقول لك...

- لا تتعب نفسك.

- إن الذي يطلبه مني فيليب...

- نعم...

قالت مدام دي لاسيرنيير:

«ليس لدي وقت لكي أفكر في غيري»، ثم اختتمت الحديث بزفرة بعد توقف طويل: «إن لدي أعمالاً كثيرة».

ثم عاد السكون، وتفحصت جان المريضة المغلقة العينين دون أن تنبس بكلمة. وبدت لها العبارة رائعة، كلا إن مدام دي لاسيرنيير لن تخضع لسلوك الملائكة، ولن تصلي من أجل شارل الصغير، إن لديها أعمالاً كثيرة إنها مشغولة باستبقاء الحياة.

ومنذ الليلة البارحة لم يأت إليها أحد عدا فيليب، وفكرت جان:

إن واحدًا سيحضر، ولكن سيكون هذا الواحد هو الموت.
وحاولت دون جدوى أن تطرد بعيدًا عنها هذه الكلمات المزعجة
«إنها مشرفة على الموت» «إنها مشرفة على الموت»، التي تتجول في
الحجرة، والتي يخيل إليها أنها تراها قادمة كالذباب من النافذة المفتوحة
على هجير الصيف.

* * *

وبدأ الشتاء. وكان وجه السيد دي موبران في حالة جمود، ولكنه
لا يكف عن التفكير في ديزي: «لقد مرت ثمان وأربعون ساعة على
رحيلها إلى ذاك الكنتي... تغييت لمدة ثمان وأربعين ساعة، إن المهلة
التي أعطيتها إياها كانت معقولة، فإذا عادت الآن سألقي بها إلى
الخارج!».

وكان يلقي من آن لآخر نظرة على جان، فتدير عنه في إصرار وجهها
الحسن الطويل الشاحب، الذي يحيط بعينيه السواد نتيجة للإجهاد،
وبقي مكان ديزي شاغراً أمام المركز...

وفجأة قال السيد دي لوانتران وهو يبتسم ابتسامة مرحة:

- لقد وجدت في حياة الماريشال موسكيه ثلاث وقائع، يبدو لي
أنها مثيرة للضحك.

ثم أضاف:

- هذا الملعون لم يكن ينقصه التصرف.

وقالت دوقة بوتفيل بحرارة وهي تدير نحوه وجهها المزدهر:

- قُصَّهَا عَلَيْنَا يَا الْفَرِيدَ.

وتنهّد إدوار والتركي وجوانتران، أما السيد دي لوانتران الذي لم يكن يعطي أي اهتمام لرد الفعل عند المستمع، فتابع حديثه بصوت قوي:

- في عهد لويس الثامن عشر، كان لأناتول دي موسكيه عمل لدى أحد مدعي النبالة المتغطرسين البلهاء، برتبة قائد. وكان هذا الشخص الذي تنقصه الشجاعة قوي السلطان في ذلك العصر، يعطي الأسبقية المطلقة في الترقية إلى رتبة قائد للضباط المنحدرين من أصل نبيل. وعُومل موسكيه معاملة سيئة بسبب عاميته، فكان يقول لأصدقائه الذين يأسون لحاله، كان يقول بكل بساطة «سيجيء دوري، هل استطاعت الحمير يوماً أن تسد الطريق على الجياد؟».

وصاحت الخالة كوريزاند:

- هذا بديع يا عزيزي ألفريد!

وألقي السيد دي لوانتران نظرة متعالية على طبق الحساء الذي كان في انتظار التعطف عليه. ثم أخذ يلقي النكتة الثانية:

- وبعد ذلك بكثير، في عهد شارل العاشر، أشعر أحد أفراد الأسرة المالكية موسكيه بتفوقه عليه في المرتبة، فأجابه موسكيه الطيب: «أيها الأمير إنني لا أجهل ما يجب أن أعرفه، ولكنني أعلم أيضًا أنه أيسر على سواي أن يكون أعلى مني، من أن يكون مساويًا لي».

وقال الكاهن الذي ثارت فيه الروح الديموقراطية بحماس:

- لقد ألقمه حجرًا.

وتبادل إدوار وجونتران النظرات، وزالت عن جان هيئة الأميرة الحبيسة، وأصغت. ولكي يروي قصته الثالثة خلع العم ألفريد دي لوانتران نظارته، وأخذ يطرف بعينه في وقار، ثم قال:

- كما تعرفون، فإن موسكويه أنعم عليه بلقب ماريشال فرنسا سنة ١٨٣٩، بعد انتصاراته على القبائل، في أوج حكم لوي فيليب. وفي يوم من الأيام وجد نفسه في قاعة الاستقبال يتشاجر مع شخص يحمل لقبًا، ويتكلم بتعاضم عن أجداده، وأنصت الماريشال في تأدب ثم قال، بصوت مرتفع جدًا، بعد أن نظر إليه من أسفل إلى أعلى: «أما أنا يا سيدي فإنني جد».

قال موبران:

- جواب جميل.

وصاح لوي سيزار بصوته الحاد:

- هذا لا يمنع أيها العم ألفريد، أن أحدًا لا يعرف الماريشال موسكويه... ليس أمامك إلا أن تسأل بول.

قال أوزمون:

- أو فيليسي أو جيرمين، أو حتى ساعي البريد!

- وعلى الرغم من ذلك، في باريس، إذا استأجرت سيارة، وطلبت من سائقها أن يقودك إلى شارع الماريشال موسكويه...

وأعاد السيد دي لوتتران تثبيت النظارة ببطء، وأخذ ينقل عينيه الزرقاوين بين أوزمون ولوي سيزار، وتجعد جبينه الواسع الكبير، ثم قال لهما في حدة:

- إنكما مغفلان تمامًا!

وانفجرا ضاحكين.

أما جونتران فأخذ يداعب بأصبعه شاربه الأسود الصغير، ثم سأل:

- أيها العم «ألفريد»، لست أدري لماذا يسرك كثيرًا أن تهدم الأرستقراطيين.

أجاب لوتتران:

- إنك لا تفهمني مطلقًا... إن كلمة أرستقراطي تعني «الأحسن»، وبالتالي فإن موسكيه العجوز أرستقراطي في نظري.

وتدخل موبران الذي كان يحاول دون جدوى أن يبعد ديزي عن فكره:

- ألفريد... إن ذمتك خربة... ألم تقل لي إنك كنت بصدد جمع كل المساوي التي قيلت عنا منذ العصور الوسطى في مجلد.

- بالتأكيد، وصدقني إنه تمرين حسن العواقب. وفي الوقت نفسه فإنني أظل موضوعيًا. وأبين أنه عهد الحكم القديم، توجد فصيلتان من القوم قستا على الأشراف: الملوك الذين استغلوهم واعتصروهم إلى آخر قطعة من الذهب وآخر نقطة من الدم، وأصحاب القلم الذين كانوا دائمًا في غيرة منهم.

قال مويران بعد أن اطمأن:

- حسنًا.

ومال بول رئيس الخدم برأسه الأشيب المتحسر ورفع صحن السيد دي لوانتران، كان الحساء فيه باردًا ولم يُمس. واستطرد المؤرخ:

- إذا كنت تريد أن يستريح قلبك يا جون، فإنني أستطيع أن أذكر لك بعض الأشياء المسلية... مثلًا هذه الجملة التي قالها البائس «لابويير» الذي كان الحقد الأسود يحرقه ثم يعيد حرقه: «من الأشخاص من يحملون ثلاثة أسماء، مخافة أن تنقصهم الأسماء» - المسكين، لم يكن لديه سوى اسم واحد.

ألم يكن لابويير رفيع المحتد؟

- مطلقاً... وكان الحقد يقتله، ولو كان قد اكتفى بنقده للبلاط الملكي، لما اعترضنا عليه اعتراضًا كبيرًا، لأنَّ نبلاء المقاطعات «عديمي الفائدة لوطنهم ولعائلاتهم ولأنفسهم». وبالتأكيد هذا كلام يفوح منه الحقد.

فقال الكاهن:

- إنك تبالغ!

وأجابه السيد دي لوانتران مهددًا إياه بسبابته:

- أنت يا فيليب، اهتم فقط بزواجك الصغار. ولكني على أي حال سأسرك: أنصت قليلًا إلى ما كان يقوله هذا الشعب العجوز «دي شامفور»: «أغلب النبلاء يشبهون أجدادهم بالتقريب، كما يشبه دليل

السياح الإيطالي شيشرون». وأقل بعدًا منا بكثير «إيجين بلتان» صحفي من عهد الإمبراطورية الثانية، كان يكتب لست أدري في أي صحيفة مغمورة:

«ما هو النبيل؟» قطعة من الرق معروكة بما فيه الكفاية.

ودفعت غريزة الحديث السيد دي لوانتران إلى أن يزدرد بعض قضمات من لحم الإسكالوب بالقشدة، ظلت أعصاب تذوقه الشاردة تجهل طعمها حتى النهاية. ثم رفع رأسه بعد هذا الجهد، واختتم قوله:

- كل المسألة هي أن نعرف ما الذي ودّ لو أعطاه السيد «إيجين بلتان» لكي يستطيع أن يلقب «بالسيد دي بلتان»؟

أما دوقة بوتفيل التي كانت كثيرة الإعجاب بلوانتران، فكانت تغمرها البهجة وهي تستمع إليه، وتحتضن كلماته كما تحتضن الدجاجة بيضها.

وقدم بول السلطة...

وفي هذه اللحظة بعينها دخلت ديزي إلى حجرة الطعام.

لم تكن متغطرة، ولم تكن وجلّة، وتقدمت وقبلت السيد دي لوانتران، وانحنّت أمام خالتها كوريزاند وحيثها مبتسمة، وأخيرًا ذهبت وجلست في مكانها، وجهًا لوجه أمام السيد دي موبران، ثم قالت:

- أرجو أن تعذروني، سأتناول العشاء حيثما يكون...

وقال السيد دي موبران ببساطة وهو ينظر إلى ساعته:

- لقد تأخرت.

وامتد السكون كالعاصفة. وأكلت ديزي دون إسراع. وبدأ الفرح على بول العجوز رغمًا عنه، وسألت مدام دي لوانتران بعد فترة ليست بالوجيزة، وبعد أن جلت صوته:

- هل أمضيت وقتًا طيبًا عند أصدقائك يا عزيزتي؟

واحتبست ديزي رجفة خفيفة ثم أجابت:

- طيبًا جدًا أيتها العمة. شكرًا.

وقالت دوقة بوتفيل التي كانت ترقب ديزي بنظرة فاحصة طيبة:

- إنك لستِ على ما يرام!

وتراقصت على وجه التركي الصلد المسمر ابتسامة حانية مثلما يتراقص شعاع الشمس فوق الحائط، وقال لأخته:

«إننا في غاية السرور لعودتك يا صغيرتي»، ثم استدار نحو أبيه ونظر إليه محدقًا. ونهضت جان من أمام المائدة وذهبت لتقبل ديزي. وظل السيد دي موبران على جموده، ولكنه كان يفكر.

أما السيد دي لوانتران، فكان قد شن على كامخة (السلطة) في سكون حربًا خرج منها غالبًا، وبدأ أنه مستغرق في التفكير. وفجأة صرخ فرحًا بصوت قوي جعل موبران ينتفض:

- لقد كنت أقول لنفسي إنني نسيت بعض الأشياء... هل تعرفون لمن هذا البيت المشهور: «الذي يخدم بلده بصدق ليس بحاجة إلى أجداد»؟

ولم يسمع جوابًا له غير السكون:

- إنه لفولتير... إن فولتير لحسن الحظ لم يكن له أجداد، ولم يخدم يوماً بلده لا بقلمه ولا بسيفه.

وبذل السيد موبران الذي كان يتحاشى النظر إلى ناحية ديزي جهداً كبيراً ليتدخل بدوره:

- إنك كنت تكلمنا منذ لحظات عن الملوك يا ألفريد. وهناك شيء سيكون طريفاً: كتاب عن آراء الأمراء في الأشراف، هل تظن أنهم أكثروا حقاً من ذمنا؟

- يا إلهي، نعم، وما الذي كنت ترجوه؟ إذا لم أخطئ، فإن لويس الثاني عشر هو الذي كان يؤكد «أن سواد الشعب هو فريسة الأشراف والجنود، وهؤلاء هم فريسة الشيطان». أما شارل الخامس فكانت له عبارة شائعة أخرى: «إن الأشراف يسلبونني، والأدباء يعلمونني، والتجار يغنونني». هذا قول لطيف. ويمكنني دون عناء أن أطيل القائمة. وقال جونتران الذي انتفض شعر شاربه:

- إن الله يعلم مع ذلك أن الملكية قد استنزفت دماءنا وانتزعت ريشنا!

وأجابه التركي:

- ليس أكثر من الجمهورية! لقد كنا على الدوام نبشر دماءنا ونقودنا هنا وهناك.

- في الواقع ليس أكثر من الجمهورية، ولكن ليس أقل...

وزفرت الدوقة دي بوتفيل زفرة طويلة وعذبة كنسيم المساء:

- دون شك، الأمراء...

وقبل أن تكمل، قال السيد دي موبران:

- إنهم جاحدون كافرون بالنعمة يا عزيزتي.



الفصل الرابع عشر

وظل السيد دي موبران يفكر. واجتهد أن يحتفظ بهدوئه، وكانت عضلات فكه الصغير الكروية تطل، ثم تختفي في إيقاع مع فكرة عنيفة كانت تطل كذلك وتختفي داخل رأسه.

«أستدعي ديزي إلِّي غدًا في الصباح الباكر، لألقي عليها أي سؤال، ثم أقذف بها إلى الخارج!».

إنه راقد فوق السرير، وبجانبه ترقد كذلك بعض الأوراق ومجلد «لسان سيمون»، وتردد بين قراءة هذا المجلد وكتاب «النساء لا يهتمهن هذا» لبيتر شيني، وتفوق «سان سيمون» في آخر لحظة. ولكنه لم يتمكن رغم ذلك من الفرار. لو عادت ديزي إلى فكره بصورة لا تقاوم، فسقط الكتاب من بين يديه. ولكي يكبح هذه الثورة التي تجتاحه والتي كانت تفرعه، اجتهد أن يزن النتائج الاجتماعية المترتبة على هذا التغيّب، «أنا لا يهمني قطعياً أن أكون مدعاة للسخرية في أعين الجيران، وأمام القوم في باريس؛ لأن كل شيء يُعرف، ولكن سمعة ديزي...» وفجأة بدد سكون الحجرة بصياحه:

- يا للشيطان! ما عساها فعلت خلال هذين اليومين؟

لقد كان هو أول من صعد لينام، تاركًا وراءه في قاعة الاستقبال الدوقة والأولاد وقد جلسوا إلى مائدة البريدج -وديزي في جدال مع العم لوانتران. إنه لم يتمالك نفسه من أن يعجب ببساطة وطبيعة ابنته، استهانة دون سفاهة وطيبة دون مهانة. «إن أعصابها لقوية جدًا!».

وفي الساعة العاشرة أحضر بول العجوز المرطبات، دون أن يتفوه بشيء، أو يبدو عليه أي شعور، وقدم إلى ديزي كأسًا صغيرة من العرقي، وتوسطها في أبهة خوخة كبيرة لها هي وحدها «يا لك من حمار عجوز ملعون يا بول»، إنه يتخذ أساليب ملتوية لكي يحضني على العفو. وأرتوس كذلك عندما قال لشقيقته «إننا مسرورون جدًا بعودتك يا صغيرتي». والطريقة التي كان ينظر إليَّ بها بعد ذلك. يريدون إذن أن يوجهوني إلى ما يجب أن أعمله؟»

واتجه موبران بعقله صوب الله الذي كان يقحمه دائمًا في شؤونه: «إنه من المستحيل عليَّ بحال من الأحوال أن أترك سلطة أستمدها منك يستهان بها بهذه الكيفية؟»، وكانت هذه الصلاة الفريدة في نوعها كافية لتهدئته، فقد كان يحب أن يتلقى دائمًا الأوامر من الله، وأن يبدي محوه احترامًا وثباتًا وقربى - كما كان يفعل بعض الموبرانيين قديمًا، مع الملك. «إنك تعلم أنني لا أحب أن أعاقب، غير أنني مجبر على ذلك وتعلم أيضًا أن هذا ليؤلمني، لأنني أحب ديزي، ولكن ماذا ستصبح السلطة الأبوية إذا لم أعاقب بقسوة كما تعاقب أنت؟».

واستعرضت هذه القضية بين جدران أربعة أمام الله عز وجل.

وانتهت الدعوى ولم يعترف المركيز لنفسه لأنه مغلوب على أمره، وإنما تناول الأوراق المبعثرة فوق السرير، واختار خطاب جاره لوازيه الشريك الشاب للسيد دي روشيو لكي يعيد قراءته.

كتب له روبير لوازيه يقول:

سيدي المركيز،

يجب أن أكون جريئاً جداً، وواثقاً جداً من أفضال مودتك، لكي أكتب لك هذا الذي سأقوله لك. معروف أن عائلة كولن ستترك مزرعة «أربويسونا» التي تمتلكها، لذا أستاذن سيدي المركيز في تذكيره أنني أستطيع أخذ هذه المزرعة زيادة على ضيعة السيد روشيو الصغيرة كما سبق أن تشرفت بمحادثتك في هذا الشأن...».

هل من الممكن الوثوق بلوازيه؟ جونتريان يظن أن نعم، والسيد دي موبران الذي يلجأ إليه غالبية أهل القرية لكي يستشيروه أو حتى ليقوم بإسعاف بعض مرضاهم أو جرحاهم كان يعرف منذ أكثر من أربعين سنة عائلة لوازيه. لقد أنقذ فيما مضى لروبير الشاب إصبعه الملتهب بدهانه بمرهم بورجوني قديم، ألهمه الاستمتاع بذكر هذا العمل الجميل نوعاً من المحبة تجاه روبير لوازيه لم يكن يجهل حقيقة مصدرها تماماً، فقال: «إنني مثل السيد بريشون».

- لتكن للوازيه!

وشاءت مصادفة رحيمة أن يفتح كتابه، فيقع بصره على هذا النص من خطاب كتبه سان سيمون إلى السيد رانسيه رئيس دير «التراب»:

«لا بد يا سيدي أنني جد متيقن من أنكم تعاملونني بغاية العطف حتى أجزأ فأبيع لنفسي أن أرسل إليكم - كما أفعل - عن طريق السيد دي شارميل، هذه الأوراق التي سبق أن تشرفت بمخاطبتكم عنها في رحلتي الأخيرة عندما أذنتم لي بذلك...».

وابتسم السيد دي موبران بادئ الأمر للأدب الجرم الذي كتبت به تلك الرسالة، وكأنه صدى لحن مفقود. ثم طرقت رأسه فكرة، فأمسك بخطاب لوازييه الشاب وأعاد قراءته بانتباه وقارنه بنص سان سيمون:

(يجب أن أكون جريئًا جدًا)، «لذا أستأذن سيدي المركيز في تذكيره بأنني أستطيع أخذ المزرعة» كما سبق أن تشرفت بمحادثتك في هذا الشأن». هذا التقارب بدا له من أحب الأشياء التي صادفته، مفاجأة صغيرة من القدر، لكنها رقيقة جدًا وغامضة جدًا، فقرر لذلك الاحتفاظ بها لنفسه وحده.

وسمع بابه يُطرق، ثم دخل التركي:

- ماذا هناك يا ترى؟

- إنني أريد أن أتحدث معك يا أبي، وأنت تعرف جيدًا بخصوص

أي موضوع، هل تسمح؟

ثم جلس على حافة السرير:

- أرتوس يا شيخي المعجوز، في الحقيقة إنني أتوقع أن تكلمني عن

ديزي، ولكن بما أن الوقت متأخر وأنني ليس لدي النية في أن أستبقيك

هنا طول الليل، فسأتكلم أولاً وستوفر أنت بالتالي على نفسك عناء
مرافعتك... أليس كذلك؟

ثم نظر إليه نظرة قاسية ساخرة، ولكن التركي لم يخفض عينيه
مطلقاً:

- هأنذا أصني إليك يا أبي، ولكن يجب كذلك أن تصني إلي
بدوري.

- سنرى هذا.

ومن خلال النافذة المفتوحة حمل الهواء تنهدات الأشجار ورائحة
أوراق الليل.

- أرتوس، أصغ إليّ. إنني أظهرت نحو ديزي صبراً سيكون
بالتأكيد فضلاً مجحوداً، ولكنه بلغ أقصى الحدود. لقد منحت تلك
الثائرة الصغيرة مهلة معينة. ولكي لا أخبأ عنك شيئاً، لقد زارني كنتي
منذ يومين...

- إنني أعلم، ولكنني أجهل ما قاله لك على وجه التحديد، هل من
الممكن...

- نعم يجب أن أعترف أن موقف كنتي كان سليماً، وإنه من المحال
عليّ أن أوقع عليه لوماً شديداً.

- هل كنت تفضل أن يفعل ما يستحق أن تلومه عليه لوماً شديداً؟

- كلا بالطبع. ولا تقل هذه الحماقات إذا أردت أن نتكلم بحرية
عن كل ذلك! إن قصتنا قد بلغت من التعقيد ما لا أستطيع معه حتى أن

أصفع هذا الجبان دون أن أكون سخرية في أعين الآخرين... إنك تقرني على ذلك؟

- ما أشق هذا عليك!

- أجل.

قال التركي ساهمًا:

- ولم أستطع إلا أن أحمل كنتي رسالة إلى ديزي. شيء لطيف! أن يبلغها ولم تعرها ديزي اهتمامًا مسألة تلك المهلة التي حددتها لها. ولذلك يجب أن تدفع الثمن الآن.

- لم هذا، تدفع الثمن؟ إنها رشيدة.

وتنهذ المركيز:

- إنني أرفض أن أناقش معك أمر هذا الرشد. هل هذا واضح؟ ستطيعني ديزي إلى أن تتزوج، وإذا رفضت إطاعتي...

- سَطرِد من موبران، هذا شيء معروف. ولكنها لا ترفض شيئًا مطلقًا. لقد تركت كنتي وعادت إلينا من جديد، وهي الآن بين أيدينا، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- كان يجب عليها أن تعود قبل ذلك بثمان وأربعين ساعة. هذا كل ما هناك. والآن يا أرتوس، أطلب منك أن تتركني لأنام.

- كلا لن أتركك بالتأكيد...

وأمعن موبران النظر في وجه ابنه الكبير الهادئ الذي دبّت إليه التجاعيد. ولم يتبين فيه ما يشير شكوكه، أو ما ينم عن قلة احترامه له، بل

على العكس بدا له أنه يرى عليه نوعًا من الامتثال والحزن، فتأثر لذلك .
- إنني لم يسبق لي أن طلبت منك شيئًا كبيرًا في هذه الحياة يا أبي .
والآن أطلب منك خدمتين لا بد أن أحصل منك عليهما: أولاً أن تعتبر ديزي
حادثًا منتهيًا، وبالتالي لا تلقي عليها أي سؤال. هذا طبعًا على شرط أنه لن
يكون بينها وبين كنتي بعد الآن أي شيء، وأن تعطيك كلمة شرف بذلك .
وكان السيد موبران يكن للجماعة التي يرأسها احترامًا خاصًا .
سأله :

- هل تكلمت في هذا الموضوع مع الآخرين ؟
- نعم يا أبي . إنهم جميعًا متفقون .
- دعني أفكر . ويمكنك أن تبقى .

وسعل المريكز، ثم حشا غليونه وأشعله، نائثرًا بعض الرماد فوق
الفراش . كان يدخن في سكون وعيناه تنظران إلى السقف، وبقي التركي
جالسًا على حافة السرير دون أن يبدي هو الآخر أي تعجل . وتوافدت
على السيد موبران في سكون الحجرة سلسلة من الأفكار المتتدة . وبعد
برهة قال المريكز لولده، بل ودون أن يدير له رأسه :

- إنني أوافق على طلباتك يا أرتوس . لتحضر ديزي مقابلتي غدًا في
الثامنة صباحًا . ولكنني حريص على أن أقول لك إنني في أعماق نفسي
غير متفق معك . فما أيسر أن ننسى أن سلطة الأبوة يجب ألا يعبث بها
بأي ثمن ؛ لأنها آتية من الله ... طاب مساؤك .

* * *

كان برج «برنهو» يغمره نور الصباح وكأنه في مياه عميقة. وصحا التوأم على تغريد الطيور.

قال أوزمون وهو يتمدد:

- إن البلبل ظل يصيح مثل عناق الأرض طول الليل.

- نعم لقد سمعته. إنهما اثنان في الحقيقة، في الشجرة المقابلة للنفاذة، وبالتحديد في الجهة الأخرى من الخندق. إنهما يختبئان، هذان الخبيثان! ولكن إذا بحثنا جيدًا فسينتهي الأمر بالعثور عليهما وسيمكننا في ذلك الوقت أن نسقطهما مشتعلين ببنادقنا.

- اتفقنا.

ودخل زنبور الحجرة، فقفز لوي سيزار وهو عار خارج سريره وأسرع نحوه. إنه يكره الزنابير كرهاً عنيفاً عجيباً. كانت الحشرة تتطير بسرعة وتعلق بالستائر وتتجنب الهجوم، وتطن من الغضب، ثم تهاجم بدورها، ثم تندفع إلى السقف كالفكرة الجريئة. وكان لوي سيزار يطاردها برشاقة وهو عار، قافزاً صوبها، مقترباً منها على أطراف أصابعه أو دافعاً يده عليها كالمخلب. لقد رقصا معاً رقصة الجفن التي انتهت بموت الزنبور.

وقال الولد وهو يلهث ويرتمي فوق سريره المرحب به:

- لقد أتيت عليه!

- وبعد!

- وبعد، عندما يتمكن السيد من أن يقتل الزنابير بيده دون أن يدع

لها أن تلدغه، من حقه أن يستعيد هيئته.

وخيم سكون، ثم قال لوي سيزار:

- هل تعلم أن جان داعبت شعري أمس، أظن أنها تهواني.

وأجاب أوزمون بتأنف:

- إن جونتران هو الذي تهواه، أي نعم! أنا، على كل حال، لا تعينيني

تلك البنات...

وعبرت حركة ازدراء أخيرة عن رأي أوزمون في النساء.

- أيها العجوز هل تظن أن الخالة ماتيلد ستمضي؟

- لا أعرف عن ذلك شيئاً.

- هل يضايقك أن تمضي؟

- وأنت هل يضايقك هذا؟

- لست أدري، أظن ذلك، ولكنني سمعت أبي يقول إن زمنها قد

ولّى، إذن؟

وسكت أوزمون وقد غلبته الحجة.

- وديزي؟ هل تظن أن أبي سيطردها؟

- كلا بما أنها تركت قيصرها يسقط...

- إنني أتساءل ماذا فعلاً معاً؟

- إنهما بالتأكيد لم يتسلّيا بعمل وردٍ من الورق.

- أظن أنهما...

أجاب بثبات أوزمون:

- أتعشم أن يكون لا، إن هذا ليثير اشمئزازي!

واستطرد لوي سيزار الذي كان يجهل فن الانتقال بالحديث:

- وماذا نفعل هذا الصباح نحن الاثنين؟

- نعتني بالمعمل!

- اتفقنا.

وقفزا من السرير، ووصلا معاً إلى منضدة الزينة، وتقاتلا دون فائدة تذكر، إذ قلبا إناء الماء، واعتقدا بذلك أن نظافتهما الصباحية قد تمت. فارتديا بسرعة السراويل القصيرة والأحزمة.

كانت حجرتهما فيما سبق لحفظ الملابس المغسولة، بها في داخل الحائط خزانة كبيرة أصبحت لا تستخدم في شيء... وكان التوأم قد حولها إلى معمل: بمعنى أنهما وضعها في وسطها لوحاً أفقيّاً من الخشب، رسا عليه عددٌ من الأواني الزجاجية ذات الأشكال والأحجام المختلفة. في الصف الأول بدت قارورة ضخمة مليئة بالماء وكحول الوقود، يتلوى بداخلها نوع من الثعابين، لم يكن سوى حزام المركيز الجلدي: نفس الحزام الذي كان يستعمله في جلد التوأم، وعلى القارورة لصقت ورقة كبيرة الحجم جدّاً مكتوب عليها بالحبر الأحمر باللاتينية: «ثعبان شديد التوحش». وقال لوي سيزار:

- وعلى أي حال، فإن حزام أبي متلائم جدّاً مع «الديكور»؛ فأول وهلة يظن المرء نفسه في متحف التاريخ الطبيعي.

وقال أوزمون:

- نعم وفي هذا الصباح يجب أن نملاً على الأقل اثنين أو ثلاث قارورات أخرى. لقد حصلت على تمثال صغير للأب موسكيه.. ناولني الكحول.

وملاً إناء آخر من الزجاج بالماء، وسكب فيه أوزمون قدحاً ملائ من كحول الوقود، وغمس فيه لوي سيزار بحركة رشيقة تمثال الرجل العظيم.

وقال أوزمون وهو يتأمل المارشال:

- وهذا هو العمل!

وألقى لوي سيزار في جد:

- إنه المجد!

ثم لصق على القارورة ورقة جديدة مكتوب عليها بالحبر الأحمر وباللغة اللاتينية «موسكيه إنسان الكهف».

* * *

وقف السيد دي موبران -الذي كان جالساً إلى مكتبه- عندما ظهرت ديزي. إنه يقف دائماً عندما تدخل ديزي إلى حجرته.

لقد اكتسب بعض خصال الأمومة بالنسبة لأولاده، فلم يستطع منع نفسه من أن يقول:

- إن وجهك شديد الإرهاق!

- إنني لم أنم كثيرًا هذه الليلة...

- هل بكيت؟

- نعم.

- يا صغيرتي المسكينة!

فارتمت بين ذراعيه، فضمها إليه، واحتضنته بكل قواها دون أن تقول كلمة.

- إنني أحب كريستوف يا أبي إنني أحبه! لقد كان...

- صه!

وتخلص موبران من بين يديها.

- ديزي، إنني أثق بك، لن يكون لهذا الموضوع ذكر نهائيًا، إنك مدينة بالكثير لأرتوس.

- إنني أعلم هذا.

- هل تتألمين حقيقة؟

- يجب ألا أتكلم في هذا. لن أتكلم في هذا أبدًا يا أبي. لقد تعهدت...

- لا تتكلمي واذهبي لتستريح.

* * *

إن جان تنام للمرة الأولى - منذ ليال عديدة - في مخدعها. فقد قالت لها مدام دي لاسيرنيير مساء أمس:

- اذهبي لتنامي يا صديقتي الصغيرة، إنني لست بحاجة إليك.
وبدا على وجه جان مظهر القلق، وانقبضت أساريرها، فأسرعت
السيدة العجوز تضيف بصوتها الضعيف البطيء المقتصد:
- لقد ابتعد عني الخطر، وسأنهض في مدى أسبوعين.
وصاحبت كلماتها ابتسامة شبه عذبة، ثم انسحبت جان تاركة عند
رأس مدام دي لاسيرنيير جرسًا صغيرًا، كانت على ثقة من أنها ستسمعه.
وكانت الفتاة لا تزال في فراشها في التاسعة صباحًا، عندما دخل
جونتران إلى حجرتها، وتمددت في الفراش:
«ماذا؟ ما هذا؟».

ثم شدت مسرعة الغطاء حتى ذقنها عندما رأت جونتران يقف أمام
سريرها:

- كنت تستطيع طرق الباب!
فقال بلهجة جافة:
- لقد طرقت.
- نعم لقد غلبني النعاس مرة أخرى. إنني متعبة.
- بالتأكيد.. أرجو أن تسامحيني يا صغيرتي جان. انظري إن الذي
تفعلينه من أجل الخالة ماتيلد..
فمدت ذراعها مقاطعة:
- أرجو ألا تتكلم عن هذا، أوافق أنت؟

قالت ذلك برقة لكن في غير لبس، فلم ير جونتران بدءاً من الخضوع.
ثم جلس على حافة السرير وخيم بينهما سكون ملغز مبهم، كانت تنظر
إليه دون أن تبسم. وقال فجأة جونتران:

- جان.. هذا الحال لا يمكن أن يدوم!

فقالت في حدة:

كلا يا جونتران إن لديك حقاً، إن هذا الحال لا يمكن أن يدوم.

- ولكن، ما الذي حدث؟

- جونتران، إنني أعلم جيداً أنني تدلت عليك ذات ليلة، وكل
الذي أستطيع أن أقوله لك هو أنه يسرني أن أكون معك. إنني لم أخف
هذا السرور. إنني لا أخفي شيئاً أبداً.

كانت تقول ذلك وهي تمعن النظر في هذه الرأس الفتية القوية
المعبرة عن الرجولة، وهذا الشارب الصغير، وهذا الأنف الذي يشبه
منقار جوارح الطير، وهذا الفم الأحمر النهم وهاتين العينين السوداوين
اللامعتين اللتين تنم نظرتهما عن العناد والكبرياء.

- إنني لا ألومك على شيء يا جان.

وفجأة تكلم جونتران بصوت ممتلئ بالحدة والشغف، فاجتاح
الحجرة بأكملها كما يجتاح السماء هبوب من الريح:

- ولكنني أحبك، وعلى كل فأنت تعرفين ذلك، ونحن لسنا من

القوم الذين يعبثون!

لقد قبلتك في تلك الليلة، وإنني أعلم أنني الشخص الوحيد الذي فعلها.

صحيح أنني لم أسألك أي سؤال ولكنني أعلم ذلك. ثم لم أتمكن بعد ذلك من تقبيلك مرة أخرى، لماذا؟ إنني لا أتمكن مطلقاً من محادثتك أو من رؤيتك على انفراد لمدة معقولة، وبما أنني أريد أن أثق بأنك لا تعبين.. ولكن انظري إليّ إذن!

لقد غضضت للتو عينيك، أريد أن تحدفني في عيني.

ورقت نبرات صوته فجأة بشكل غريب.

- إنني واثق من أنك تحبينني يا جان.. أليس كذلك؟

وجاء الجواب كالكرة حينما تترد بعد اصطدامها بحائط:

- كلا.

ولم يقم جونتران بأي رد فعل في بادئ الأمر، وأخذ يزن في سكون القسوة الخارقة البغيضة لمثل هذه الإجابة من مثل ذلك الفم. إن وجه جان المكتمل الفريد في نوعه لا يمكن أن يوضع في متناول ظمأ رجل ثم ينتزع بعيداً عنه، هذه هي قسوة غير إنسانية تقرب من السادية، وتمتم دون أن يدري ماذا يقول: «إنها لحماقة كبرى!»، ثم هز رأسه وابتسم ونظر إلى جان مردداً:

«إنها لحماقة كبرى.. إنها لحماقة كبرى».

وللمرة الثانية أشاحت بعينها عنه:

وجاء جونتران ليجلس من جديد على حافة السرير، ثم قال وهو

يقبض بيده على الفراش بصوت مكتوم لا يكاد يسمع:

- أنتِ لا تحبينني يا جان؟ غير معقول!

وظل متلعثمًا لا يجد الكلمات، وفجأة انحنى عليها وأمسك بها وأخذ يشم رائحة هذا الجسد وهذا المخدع، مسندًا فمه على تلك الثغرة الناعمة التي هي في انتظار قبلات رجل، والتي تقع بالضبط عند منبع كتفها، ثم ضمها إليه بوحشية. وفجأة تركها؛ لأنها لم تتحرك مطلقًا؛ لأنها ظلت جامدة جمودًا مخيفًا، ولم تكلف نفسها حتى عناء إصلاح قميصها أو تغطية كتفها، واكتفت بأن نظرت إليه دون غضب، دون امتعاض، ودون حب. ربما كانت تنتظر من جانبه هجومًا آخر، أزمة شهوة جسدية. محاولة يائسة لاستعادة الكبرياء. وأتى جونتران إذ ذاك بحركة حيوانية فريدة في نوعها، استعدادًا للانقضاض عليها. ولكنه كان قوي الضمير، فنهض.

وانقبض وجه جان عندما رأت جونتران يمر بيده على جبينه: كانت تلك الحركة تقطر ألمًا لا يحتمل. وخطا جونتران بعض الخطوات وهو يردد «إنها لحماقة كبرى!» «إنها لحماقة كبرى»، ثم اخترق نفسه شعاع من الضياء، فاستدار ناحية جان وقد عادت إلى مقلتيه الجذوة السوداء.

- لقد طرأت لي فكرة الآن، بخصوصك.. لكن لا، هذا مستحيل!

وسكت جونتران. واستعاد السيطرة على نفسه تدريجيًا، وكقاعدة وفي أدب رفيع لاحت على وجهه ابتسامة من جديد. إنه يقول لنفسه إن الأنثى لا تؤخذ إلا بالقوة القاهرة- ولكن صوت ضميره كان قويًا مجلجلًا فاستمع إليه وهو يزار في أعماقه، وظل مسيطرًا على نفسه.

- انسي الذي قلته لك الآن يا جان. انسيه جميعه! ماعدا أنني أحبك، وإن الأمر لم ينته بعد. إن أحدًا لا يستطيع أن يتزعزع مني شيئًا أمسكه بيدي.

* * *

كان الكاهن في حالة من الاستنكار جعلته يرتعد أمام المذبح، إنه وحيد، يتلو كلمات التضحية المقدسة، ويردها دون أن يفكر في شيء سوى عودة ديزي. إنه يهمس: «اغفر لي يا إلهي، ما كان يجب لي أن أبدأ القداس قبل أن أهدئ من ثورتي، إن صوتًا من داخل نفسه يقول له في حدة: إن أبي يجب ألا يتسلط هكذا على ديزي، ما دخل قصيص الزيجات غير المتكافئة هنا؟ يا إلهي، فتاة شابة في مثل سنها أليس لها الحق في أن تتزوج أمامك الشخص الذي يعجبها، دون أن تطرد من بيت أبوتها؟ إنك أنت الشريعة الكبرى، الشريعة الكبرى!».

وقبل أن ينطق بكلمات المناولة، اضطر أن يترك مهنة الكاهن لحظة، وأن ينحني بانكسار، وأن يتخلى عن نفسه تمامًا أمام معجزة الجسد والدم؛ كي لا يتعدى على مقام أكبر معجزة في الدنيا.

وعندما خرج من الكنيسة الصغيرة، قابل السيد دي موبران:

- إنني أريد أن أحادثك حديثًا جدًّا يا أبي.

ونظر إليه المركيز نظرة ساخرة:

- أنت أيضًا؟ إن الجميع إذن يريدون أن يتحدثوا معي!

ثم رقت ملامح هذا الوجه الذي لفحته السمرة.

- هيا، تعال يا فيليب تعال أيها المسكين. إنك ستأتي معي في سيارة الجيب، فلديّ بعض الملابس أريد حملها إلى عائلة «لوكا»؛ إنهما رجل وامرأة لا يحصلان على العيش بسهولة، وهو عامل زراعي أتلفت ساقه آلة ذات ليلة وهو ثمل، ولا أحد يرغب في تشغيله. والحق إنه ما زال يشرب الخمر..

- مم يتعيش؟

- من شيء قليل، فلديه ثلاثة أولاد صغار، إنني أعطي له عملاً، مسكين لوكا! هو وزوجته، لا يمكن أن يصلحا كليهما لشيء ذي أهمية يوماً من الأيام. والفلاحون على الأخص قاسون بالنسبة للعاجزين.

ثم فكر المركيز برهة واستطرد:

- بل إن قسوتهم مخيفة بعض الشيء!

«هل ترى ذلك؟»، قالها الأب فيليب بصوت غاية في المرارة جعل موبران يستدير إليه قائلاً:

- نعم أرى ذلك.. ماذا دهاك؟

كانت سيارة الجيب ملطخة بالطين بشدة، وبجانباها امتدت في عظمة سيارة التركي البويك تحت سقف مظلة واسعة تستعمل كحظيرة للسيارات، وكان التوأم وهما غارقان في وسائل تلك السيارة يستمعان إلى المذياع خلصة.

وصاح المركيز وهو في ثورة عارمة:

- ماذا تفعلان هناك؟

- إننا ندير مذياع العربية يا أبي.

- انزلا... وإذا ضبطتكما مرة أخرى...

- لقد أذن لنا أرتوس؟

- هذه غفلة من جانبه. لقد قلت لكما انزلا واقفلا المذياع، وها أنذا أنتظر.

وكان واضحًا أن أوزمون ولوي سيزار يطيعان الأمر كارهين. ورآهما موبران جميلين، وتأمل في إعجاب سيقانهما الطويلة المفتولة وجسميهما الرشيقين، ووجههما الواحدين وشعرهما الأشقر، وقال لنفسه: لشد ما يشبه أنفهما المستقيم وعيونهما الخضر أنف وعيني والدتهما. «إن التوأم متشابهان لدرجة أنه من الصعب التفرقة بينهما، لولا هذا النمش الذي يتميز به وجه أوزمون، والذي يخجل منه قليلًا ويعتبره نوعًا من البلاء؛ لأن لوي سيزار لا ينفك يعلق عليه في حديثه».

- لا تهتموا بذلك، إنه أُصيب بلفحة شمس من خلال مصفاة.

ووجه التوأم الحديث لوالدهما في صوت واحد:

- لقد أذن لنا أرتوس يا أبي!

- وكنا قد بدأنا لتوّا في سماع لحن «أنا إنني أطويهن» تعزفه

أوركسترا جيمي جكسون!

واكتفى السيد دي موبران بأن نظر إليهما، ففرا هاربين.

وبدأت سيارة الجيب في السير، وترك المركيز نفسه يتأرجح برهة بالدوي المتتابع لحركة العدة، ثم أعاد وهو يزمر ويهز رأسه جملة:

- «أنا إنني أطويهن!».

وابتسم فيليب.

لقد وصلا إلى القرية إنها بلدة يبلغ سكانها حوالي خمسمائة أو ستمائة نسمة، متجمعين في منازل قديمة سقوفها حمراء، يهيمن عليها بناء مقر العمودية مطلياً باللون الأبيض كالعروس، ومسكن الكاهن مختبئاً وسط الأغصان، وبرج أجراس جميل متين مطعم بالقرميد اللامع الذي يشبه قرميد ملجأ بون.

- إنك كنت تقول لتوك يا أبي إن الفلاحين قساة، وإنني لأتساءل كيف تجرؤ على الحكم بقسوة الآخرين؟

وتنهذ موبران:

- هيا! حدثني عن ديزي.

واحمر وجه الكاهن استحياء:

- بالتأكيد، سأتكلم بخصوصها. أمس مساء، أردت أن أقوم بزيارة قصيرة لها في حجرتها لكي أؤكد لها أننا نستقبلها بأذرع مفتوحة، دون أي فكرة معينة.

- لقد قلت «نحن» يا فيليب؟

- ولم أدخل. لقد سمعتها من خلال الباب تنتحب.

- إن في مثل سنها هذا يبكي المرء.

- ما كنت أظن أبداً أن ذلك سيحدث كل هذه الضجة! ولكنني كنت أشعر أن كل القصر وكل القرية والعالم بأجمعه يسمعونها وهي تبكي. لقد خجلت من هذا!

- إننا تكلمنا عن كل ذلك صباح اليوم، ديزي وأنا، عفوت عنها، وانتظم كل شيء.

- لقد خجلت من أجلك يا أبي!

وداس المركيز على الفرملة، وأوقف «الجيب». كانت نظرتة إلى ولده تلتهب غضبًا:

- فيليب، إنني حلیم معك، هل تسمح لنفسك أن تحكم على تصرفاتي؟

- أجل.

وازداد وجه الكاهن احمرارًا دمويًا:

- إنني لم أنم هذه الليلة وفكرت في الأمر. ومن أعماق قلبي رأيت أنك تسير في طريق خاطئ مع ديزي، وواجبي أن أنبهك لذلك، ولن أنكص عنه. كلا، هذه المرة أطلب منك أن تدعني أتكلم إلى أن أنتهي من كلامي.

وأدار السيد موبران السيارة الجيب بحركة غريزية، لكي يقف بها على بعد عدة مئات من الأمتار عند رأس غابة منعزلة.

وهنا تضخم صوت الكاهن -الذي كان يحد من انطلاقه- فكشف عن قوة وألم:

- إنك يجب ألا تتصرف بمفردك يا أبي! نحن هنا، نحن موجودون! إن والدتي توفيت...

- إنني أعلم ذلك.

- قالها موبران بصوت بالغ الرقة اهتز له الكاهن حتى الأعماق:
- يا أبي إنني لا أريد إيلامك، ولكن ديزي ليست لك وحدك، احذر من أن يذكرك الله بذلك يوماً من الأيام.
- إن المسؤولية تقع على عاتقي وحدي. إنني لا أنقاسم مسؤولية ابنتي مع أحد. وأظني أعلم أكثر منك بما يطالبني به الله.
- عجباً! إنني وأنا الكاهن...
- لتترك هذا. إنك كنت تريد أن تحدثني بشأن ديزي؟
- نعم، إنني أطلب منك ببساطة أن تعجب عن هذا السؤال: ما الذي تأخذه على كتي؟
- إنه قبل كل شيء ليس كتي.
- وقال الكاهن:
- كنت أتمنى أن يكون جوابك خيراً من نكتة سطحية.
- يا للشيطان! لماذا تقحم نفسك في هذه المسائل؟ إنك لا تعرف عنها شيئاً ولا تفهم شيئاً! هذا ليس دورك في الحياة يا فيليب - ولا وظيفتك - كما يقول الإنجليز
- إنني على يقين من أن كتي قد تصرف تصرفاً حسناً مع ديزي، وقد سلك في هذا الظرف سلوك الرجل المهذب، بل سلوك الرجل ذي القلب الكبير، بصراحة هل يمكنك أن تقول بعكس هذا؟ وهل تستطيع أن تقول لي بطريقة أكثر جدية وقيمة ما الذي تأخذه على كتي؟
- إنني ألفت نظرك - توخياً للفائدة - إلى أنك تخطئ في فهم كلمة

«ذي قيمة». وفوق ذلك، فقد جاوبت على سؤالك هذا ما يقرب من العشرين مرة... يا إلهي... هل جعل منك رؤساؤك شخصًا غير قابل للفهم أو الإحساس على الإطلاق، أم ماذا؟

وعلى الفور تقريبًا ابتسم السيد دي موبران ابتسامة ود خفية. وقال وهو يشير بيده إشارة صغيرة:

- أرجو المَعذرة يا فيليب.

ورد الكاهن على ابتسامته بابتسامة، وهو يسأل:

- أليدك طباق؟ عندي رغبة جارفة في أن أحشو غليونًا قديمًا.

ثم أخذًا يدخنان. وسعل السيد دي موبران، فجعل سعاله العصفير تنطلق كالسهم من وسط الأدغال.

- يا أبي، إنني أحاول أن أختصر في الكلام. إنك وضعت أمام ديزي الخيار بين كريستوف دي كنتي وموبران، واختارت موبران بعد أن مزقها الألم. إنني أنا الآخر عانيت آلام الحب وأنا في الثامنة عشر، وليس لهذا دخل على كل حال في دفعي إلى خدمة الله. إلا أنني أعرف الحب وماهيته، وأعرف كذلك جيدًا أنه ليس من حق إنسان أن يهز كتفيه استخفافًا به. إنك لكي تحطم ديزي كما تفعل، تدعي أن لديك أسبابًا: عدم تكافؤ. إن كنتي بصفة قاطعة مثار للسخرية بلقبه المزيف وقصره المزيف وإنه فاسق...

وانفجر صوت الكاهن:

- ولكن ألا تشعر أن كل هذه الأشياء لا تزن شعرة؟!

قال المركيز:

- اشرح ذلك.

- أما الاسم المزيف، فالمسؤول الأوحده هو والد كنتي. هذا أولاً. والقصر المزيف؛ لا داعي لأن نتكلم عنه لو تكلمت. والفساد؟ أي قائد روحي تستشير سيقول لك إن الأقلية الضئيلة من العزاب في سن الأربعين هي التي تسلك طريق العفة. هل حقيقة أن كنتي تثور حوله ضجة مريبة وأنه يقوم بمغامرات فاجرة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هو مصدر معلوماتك؟ وفي النهاية ألا ترى معي أن سلوكه في مسألة ديزي مما يشرفه تمامًا؟

وتنهذ السيد دي موبران:

- إنك مسيحي تقدمي أو ما يقرب من ذلك يا فيليب.. أليس كذلك؟

- كلا ومطلقاً! لقد شغلني النشاط الكاثوليكي إلى حد ما، وإنني أعترف أن في الكنيسة حركة ما ذات صبغة اجتماعية تملؤني بالأمل. وهذا كل ما هنالك.

- هذا كثير، وإنني لفي رعب من ذلك. أترى، إنني أريد أن أعرف هل ما زلنا أنت وأنا نتكلم نفس اللغة عندما أقول لك «يا فيليب إن لدينا مرتبة يجب أن نحفظ بها»، هل تفهمني؟

- وبدوري أطلب منك الإيضاح.

- كلا يا شيخخي العجوز! كلا، إنني على أي حال أنا الذي ربيتك،

فإذا كنت غير قادر مطلقاً على أن تفهم كلامي كما هو، فإنني أكف من جانبي عن هذه المحادثة.

- إنني أرى بالتقريب ما تعنيه.

- حسناً، هل تفهمني إذا أضفت: هذا الوجب في حفظ مرتبتنا يتعارض مع زواج ديزي من شخص معلوم تزييفه، ذي سمعة مريية، يختلس اسماً تاريخياً؟

وإذا قلت في النهاية: بما أنني ربيت ديزي بيدي وبقلبي، إنها ستتعذب طول حياتها بسبب طيشها، وذلك لأنها ابتني بكل ما لهذه الكلمة من معنى؟

ورفع الكاهن عينيه صوب السماء التي كان يراها فوق الأشجار حقلاً واسعاً تنطلق فيه العصافير كالمناجل السوداء، ثم ابتهل إلى الله بوجدانه قبل أن يتكلم:

- إنني أجيبك: ها هي ذي الفرصة التي نتخلص فيها من كل هذه الأحكام السابقة المضحكة التي نرزح تحتها! لقد قلت «نحن». أرايت يا أبي، إنه إظهار مني لروح التضامن.

- فيليب، أتدري لماذا لم أكد أترك موبران منذ وفاة أمك؟ لماذا ارتبطت بهذه الضيعة وبهذه الأرض المنعزلة التي لا تعطي الكثير؟ لماذا تركت نفسي أرتبط بهذه البلدة الصغيرة العتيقة من رقبتني كالكلاب؟

- نعم لقد فعلت كل ذلك من أجلنا! وإنني لستُ جحوداً.

- لكي أربيكم تربية طبقتم الرفيعة، بكل دقة. لقد أردت أن أبقى

فرصتكم في الحياة دون مساس، وكذلك لذة أن تحملوا اسمكم دون مساس، ومجمل القول: أنني حقيقة كنت مديرًا سيئًا للميراث المادي والثروة، ولكن في نفس الوقت حافظت على الاسم جيدًا.. أتفهم؟

- بالتأكيد، إنك نوع من الأبطال الذين يتفانون في سبيل بيوتهم، ونزاهتك وصفاتك ليست محل مناقشة.

- إنني لست بحاجة للإطراء يا صغيري.

- بلى! إن كل إنسان في حاجة إليه! فلنكن بسطاء فيما بيننا يا أبي. صحيح إن اسمًا جليلاً في أيامنا هذه لهو ثروة لا مثيل لها. وبالرغم من ذلك، ألا ترى معي أن هذا الأمر بادي الغرابة؟ ولكن في الحالة التي أمامنا؛ فالموضوع موضوع حب أنت تحطمه، وشخص مسكين تدينه دون حتى أن تعرف هل هو أهل لأن يكون محبوباً أم لا، وتهديد تمارسه ضد ابنتك! ولهذا فمرة أخرى، إنني خجل! إنك عبد الالتزامات تلاشت واندثرت.

- اصمت يا فيليب، إنك في سبيل إنكار شيء ما.

وسعل المركيز وأفراغ غليونيه الضخم على جانب السيارة «الجيب»، وشيئاً فشيئاً أضرم عدم القدرة على الإقناع، وعلى انتقاء الكلمات المناسبة، في نفس الرجلين نوعاً من الحدة اليائسة.

واستطرد السيد دي موبران:

- الالتزامات التي تتكلم عنها تزكي نفسها بنفسها. وهي كافية لتمييزنا على غيرنا.

- هل حقيقة هذا هو ما ترجوه من هذه الحياة؟
- التزامات خارجة عن المؤلف، وتقاليد أثقل وأعمق من جذر بلوطة عتيقة، تلك بالضبط وعلى التحديد هي العناصر المكونة للأرستقراطية. منها تعيش وعن طريقها تتنفس، ونحن لا نستطيع إزائها شيئاً، لا أنت ولا أنا.

- ولكن ألا تفهم إذن أن كل هذا قد انتهى، انتهى، انتهى تمامًا؟
وفي هذه المرة صاح فيليب، وكان صوته قويًا. ولم تعجب هذه الصيحة السيد دي موبران، فقال بحفاة:
- احتفظ بدمك باردًا أيها الأب، إننا لسنا في أحد منابر النشاط الكاثوليكي.

ومر الأب فيليب بيده على جبينه:
- إنك تبدو لي كرجل غارق في حلم، حلم قديم فائق اللذة، لولبي، وكقوقعة يابسة فاقدة الحياة داخل صدفاتها.
وانطلق موبران بالسيارة الجيب من جديد.

- هل تعلم كم تبقى في فرنسا من العائلات الأصيلة النبالة؟
- يقيني، كلا.

- بالكاد أربعة آلاف يا فيليب، أي ثلاثين أو أربعين ألف شخص في الجملة. ولن تستطيع أن تتخيل مطلقاً وأن تقيس مدى أهمية هؤلاء. إنهم دائماً يتقدمون للموت في جميع الحروب، وإن لديهم ذوقاً سريع الانتشار بالنسبة لأشياء تبدو عديمة الفائدة. وماذا أقول لك أيضاً؟ إن

لديهم شهوة للاحتقار ورغبة في النفع. وأينما حلوا يا فيليب يرتفع المستوى. ألا تراه أنت، هذا الجيش الصغير من الأشخاص أصحاب الأسماء الجميلة الذين يسرون على كتلة التاريخ والتقاليد؟ إنني سأتنبأ لك بشيء ظريف بخصوصهم أيها الكاهن: إن اليوم الذي تفقد فيه فرنسا هؤلاء القوم هو اليوم الذي تكون فيه قد فقدت حياتها.

وهز فيليب رأسه القوي وهو يفكر، ثم قال:

- إنني أحسدك على اعتقادك هذا.



الفصل الخامس عشر

سأل لوي سيزار:

- ألا تجد معي أن هناك شيئاً من العسف؟

فأجابه أوزمون بامتعاض شديد:

- أرى ذلك...

- وهل أنت واضح في حسابك أننا في العطلة الصيفية؟

- لا شيء، لا شيء نفعله، إنهم يعيشون بنا...

- كنا في العادة نقوم بزيارة أولاد أخ الأب بارفي، وجماعة «أبواس»

وشاستليكس وبوربي، ونخرج كذلك للنزهة ونستقبل ضيوفنا ونغرق في الضحك. أما هذه السنة...

- هم يحتجون بأن الخالة ماتيلد تحتضر.

- أو ربما بأنه لا يجب إغواء الكاهن.

- ربما...

- وهذا التركي النذل الذي كان يجب عليه أن يصطحبنا إلى

ديجون؟

- بالكاد جولة صغيرة في المتنزه بسيارته البويك، يا له من إنسان
فظ!

- هذا عدا أن أبي لا يريد حتى أن نلمس مذياع العرب! لكنني
سأذهب رغم ذلك، فقط إليك هذا: إذا سألنا أبي فإنني أعرف كيف
نجيب، سنقول إننا أدرنا المذياع، وننال العقاب!

وقاد هذا الفراغ التوأم إلى قاعة الحراسة حيث توجد مجموعة من
الدروع الفاخرة، هما يعرفان كل بروز بها وكل ثقب، وكانا مغرمين
بتحسس تلك النقوش الجلييلة التي طالما ساعدتهما على استعادة بعض
المواقع الحربية في مخيلتهما.

قال لوي سيزار:

- ألم تلاحظ أبدًا أن هذه الدروع صغيرة الحجم؟

- لقد انكششت من الغسيل...

- دون مزاح، إن لابسني هذه الدروع لم يكونوا ضخامًا. وما أخف
ما كان عليهم أن يتدثروا بهذا كله. لقد قال لي أبي إن حاجيات الجندي
فيما مضى كانت تزن ما بين الخمسين إلى الستين كيلو جرامًا... هل
تتخيل؟

- لو كنت في ذلك الوقت، لما أحببت هذا كنت تقفل درعك
وتخفض حافة خوذةك، فإذا بك محاصر، يا صديقي الأفضل! ليس
هناك من مخرج، وليس هناك من نجدة...

أما أنا فكنت أفضل أن أحمل بلطة، أو أن أكون قاذفًا للسهام، أو أي

شيء آخر، ما عدا أن أكون واحدًا من هؤلاء المساكين الذين يلبسون الدروع! هل تتخيل؟ لو كان لديك شيء من سهولة الحركة، كنت تصبح سيد المعركة.

ثم وقفنا أمام لوحة محفورة على الخشب، يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر، لم يلتفتا إليها قبل ذلك. شابان صغيران يرتديان سراويل ذلك العصر وقمصانًا من الكتان، شواربهما خفيفة وشعرهما طويل ملفوف، يستندان إلى صديقين يتحليان بزينة من الريش، جريحين وما زالا السيف في يديهما. وفي أسفل الرسم كنت تستطيع قراءة النص التالي مكتوبًا بحروف أنيقة:

«السيد المركزي آن دي جواييز والسيد الكونت جاسبار دي شافانياك يتسليان بتبادل الطعنات والهجمات بسيوف مكسورة الأسنة...».

قال أوزمون:

- إنهما متغطرسان!

- بطريقة مضحكة.

- ولكن بمثل هذه الأشياء لم يكن ليتسلل إليهما الضجر، هؤلاء الأولاد! وتبادل التوأم نظرة وفهم كل منهما الآخر، وخطرت لكل منهما وفي نفس اللحظة تقريبًا نفس الفكرة.

وقال أوزمون:

- لو قمنا نحن أيضًا ببعض الرياضة؟

- لقد كنت أفكر في ذلك بالضبط أيها العجوز.

- ولكن بماذا؟

- ليس لدينا سيوف، وفي الوقت ذاته لم نمارس المبارزة، حينئذ...

- حينئذ...

ونظر كل منهما إلى الآخر من جديد، وأوضح لوي سيزار فكرتهما المشتركة:

- نعم أيها العجوز من الممكن أن نتبارز ببنادقنا، أليس كذلك؟

- اتفقنا. ونحلف يمينًا، ألا نضرب الضربات إلا إلى الأكتاف والأرجل؟

- اتفقنا...

* * *

قال التركي:

- لا يمكنك الخروج من هذا المأزق يا أبي.

وقطب المركيز حاجبيه:

- حقيقة؟

- حقيقة.

ثم أخرج التركي من جيبه أوراقًا نشرها فوق مكتب والده.

- لقد أجريت الحسابات حسب الأسس التي تكرمت بإعطائي إياها، وقد عاينت السقوف وبصحتي جونتران وبناء الأسقف، وتفقدت الأرضية أيضًا، وتبينت في النهاية أن الخنادق لا يمكن أن تظل

على ما هي عليه. لقد قام جونتران هناك بعمل رائع خارق للعادة يجب أن أعترف به. ولكن زيادة على ذلك، يجب أن تطهر القنوات وتغير الأبواب المتحركة...

فقال المريكز:

- إنني أعرف كل هذا يا أرتوس.

ثم نظر إلى أولاده وكانوا مجتمعين في حجرته بكامل هيئتهم، «إن وجه ديزي يلوح عليه الضنى وتبدو وهي خائرة القوى». أما إدوار «الدمية المشنوقة» فكان يدندن، ولكنه في الوقت ذاته لم يكن في غفلة عن المسألة التي أثارها أخوه، وهو يجلس باستهانة على ركن من أركان المكتب مفكرًا، لقد خمن وقتئذ ما يريد أن يصل إليه التركي، وصاح المريكز:

- إدوار، هل تريد أن تشارك في الحديث أم لا؟ أم تفضل أن تذهب لتشدو في الخارج؟

أجاب الولد مبتسمًا ابتسامة مستهينة:

- إنني أشارك فيه.

وأعطى أرتوس الكلمة من جديد:

- إنه يلزم فقط لترميم أسقف مويران ثلاثة ملايين من الفرنكات، وسبعة أو ثمانية ملايين أخرى للأرضية، هذا عدا القنوات. وأسمح لنفسني أن أضيف إلى ذلك أنكم إذا لم تزودا ولو جزءًا من القصر بوسائل التدفئة الحديثة، فإن لوحات قاعة الحرس الزيتية واللوحات المحفورة

في الخشب التي في البهو وصناديق «أودري» والسجلات سيصيبها التلف. بل إنه قد بدأ بالفعل، صدقوني. هذا بخلاف اللوحات وأثاث الحجرات البعيدة عن مصادر الدفء. ويجب أن نضع في حسابنا أيضًا أن أثاث قصر موبران يرجع تاريخه بسهولة إلى أيام «فرسجنتر كس» أو على الأقل أيام الملكة «برنهو».

- حقيقة؟

وعض التركي شفتيه فقد شعر أنه يغضب والده، وأنه كان من الأفضل أن يتكلم بلهجة أخرى. وفكر في نفسه فقال: «ما أنا في نهاية الأمر إلا رجل أعمال، ولست دبلوماسيًا ولله الحمد».

- انظر يا أبي، إنك على علم تام بكل ذلك.

- وماذا بعد؟

- أرجو ألا تظن أنني أقوم بنقد من جانبي...

وابتسم المريكز ابتسامة ساخرة:

- بكل تأكيد لا، يا شيخي العجوز! إنني أعلم أنك لا تسمح لنفسك بذلك.

ودون أن يتعثر، تابع التركي حديثه:

- يجب أن نكون واقعيين - أترون؟ إن مجموعات القصر لهي ذات قيمة لا تقدر: من أثاث ولوحات وفضيات وسجلات. ولكنها في الجملة ذات أهمية تتناقض مع إمكانياتكم المالية يا أبي.

- أكمل.

- إذن ليس أمامنا إلا أحد أمرين: إما أن يكون لديك الشجاعة
وتضحى بجزء لكي تنفذ الباقي...

ولم يستطع أرتوس إكمال جملته... فقد قُوطع وعُمر بسيل من
الاحتجاجات الشديدة:

- أنت مجنون؟

- إننا لن نلمس أبداً أثاث موبران!

- لنمت خيراً من ذلك يا شيخخي العجوز، الموت خير من ذلك!
كما ألقى عليه جوتتران والكاهن وإدوار مجتمعين وأبلاً من السباب
والشتائم، وبث ديزي سمها بصوت ضئيل فيه حدة وتحذ:

- إن موبران ليست قصراً تركياً!

وأضاف إدوار بامتعاض وشمم:

- إننا لسنا في مجال لهو هنا.

ثم خيم سكون قصير، انطلق من خلاله صوت لوي سيزار الحاد
بعد أن تجرأ:

- ألا ترون أن أرتوس قد أُصيب في عقله قليلاً؟

وراقب التركي تلك الأوجه التي تحركها عاطفة مشتركة بدهشة،
ولكن في غاية الهدوء، وتنهد وهو يقول في نفسه «يا لهم من قوم
مضحكين!»، ناسياً لبرهة أنهم إخوته وأخته. ثم تفحص والده، كان
المركزيز يتسم ولكن نظراته كانت قاسية:

- أرتوس يا شيخي العجوز، أظنك الآن قد استخلصت رأيًا. إنك بالتأكيد لا تستطيع أن تدعي أن رأيي له دخل في هذا... في هذا الإجماع. غير أنني لم أفصح بعد عن وجهة نظري، وهي هي ذي: ما دمت على قيد الحياة، لم تخرج من موبران منمنمة بسيطة أو ملعقة صغيرة أو حتى قطعة من الرق... أواضح هذا؟

- كل الوضوح.

وبنفس اللهجة الهادئة للمحاسب الذي يفحص مصالح عميله، أتم التركي عرضه:

- والحل الثاني: بيع موبران؛ لكي تحصل ديزي على دوة مثلاً. ثم أشار إليهم إشارة مهدئة، لكي يوضح دون إبهام، إن الأمر هنا متعلق بمشروع عقلي.

- والحل الثالث: أن نجد نقودًا.

ومرت فترة سكون، ثم ضرب المركز بيده الجميلة جلد مكتبه الفخم، وقال وهو يرفع حاجبيه:

- ثم ماذا؟

- ثم يا أبي إنني أستطيع أن أضع تحت تصرفك في الحال من ثلاث إلى أربع ملايين من الفرنكات يضاف إليها مبلغ مساو... لنقل في خلال بضعة شهور. وفي هذه المرة ألقم التوأم حجرًا وهمز لوي سيزار أوزمون في مرفقه:

- ثمانية ملايين، أأأخذ بالك؟

- نعم! وهو يعلن لك ذلك ببساطة، كما لو كان يكشف عن سلسلة من ثلاث ورقات، في لعبة الورق.

وظل السيد دي موبران صامتًا، فقد كان يتألم. إن مجرد الكلام في المال كان بالنسبة له عذابًا أليمًا، ولكن أن يجد نفسه قد صغر إلى حد أن يقبل عون ابنه، فهذا ما يبدو له محنة غير محتملة. إنه يصارع في نفسه كراهية أرتوس هذا الولد الربعة الصلب الطيب الباسم الواثق من نفسه والذي يتمرغ في الذهب. لقد رأى السيد موبران أنه من باب الصدق والأمانة نحو الجماعة أن يتمسك بجعل النقاش عامًا مشاعًا. وخيم سكون حوله ثقيل، وأخذ يلقي بصره على أولاده واحدًا واحدًا.

ولم يكن التركي راضيًا؛ لأنه رأى في عين والده ذلك التعبير الساخر الذي هو مزيج من الإصرار والكبرياء، والذي كان يعرفه جيدًا ولا يحبه. لقد حاول جهد المستطاع أن يتفادى الجدل في حضور إخوته الصغار. إن أرتوس يرى أن هذا التقليد لا يتمشى مع العقل ويغري بالسخرية، فإن مجلس العائلة هذا شيء مستهلك انقضى زمنه. ثم فكر في نفسه «إن أبي يمثل دور الآباء العارفين في الروايات المسرحية. كم نحن مثيرون للسخرية!»، كان أرتوس يفزعه أن يضيع وقته، وكان يكره للغاية ما يسمونه «بالتعقيدات العديمة الفائدة»، ثم إنه كان يخشى طبعه الخاص الذي لا يتلاءم على الإطلاق مع الحياة ورقة الإحساس وعقد الكبرياء والاستقلال التي كان يحس بها تنتفض أمامه، لقد عبر عن رأيه بوضوح ثم استقر على ألا يفتح فمه بادلًا بالكلام، وأخذ في هدوء يراقب العائلة. «على أي حال، إن هؤلاء القوم غريبو الأطوار، إنهم في

أغلب الأوقات يسرهم أن يكونوا موجزين بشدة، وبمجرد أن تناقش مسألة النقود يصلحون في لمححة عين غاية في الرقة والتدقيق في الكلام، وقلة الاحتمال كمن سلخت جلودهم».

وفي ذلك الوقت كان التوأم يعدان بصوت خفيض مشروع تجميل قلعة برنهو مخصصين له جملة الملايين التي ذكرها التركي.

صاح بصوته النفاذ لوي سيزار تاركًا لأحلامه العنان:

- سيمكننا زخرفة القلعة حقيقة، وسيكون لها طريق دائري بمعنى الكلمة.

وعمد المركز -الذي سره أن- يخيم جو من الحرج إلى نزع غليونه من فمه وسعل:

- أيها المسكين أرتوس، هل تظن أنني لم أكن أتوقع بيانك الصغير هذا لإعطائي فكرة عن الوضع في موبران؟ وبما أنه يجب أن نتكلم على مستوى الأرقام فليس لديّ اعتراض على الأرقام التي ذكرتها؛ لأنك معتاد أكثر مني على هذا النوع من الأشياء.

وكانت كلمات المركز هذه تخفي بين طيات لهجة المحبة القلبية والصراحة بعض الغطرسة التي اكتشف التركي آفاقها.

- لاحظ أنني لا أرفض اقتراحاتك مقدّمًا. ولكن يبقى أن تعرف أنني لا أستطيع أن أقبل ببساطة هدية خالصة لا منك ولا من أي شخص سواك، فماذا تعرض إذن؟

وابتسم التركي ابتسامة لطيفة:

- حسنًا يا أبي لن أحاورك.

وسكت لحظة وتنحنح، وقال المريكز دون شفقة:

- يبدو أن الموضوع لا يخرج بسهولة يا شيخي العجوز.

وأجابه أرتوس بصوته الهادئ وهو يحدق في عينيه:

- بل إنه يخرج على خير ما يرام، وشكرًا. وكل الذي أريد أن أقوله

هو أنني درست المشكلة من أطرافها الشرعية والمالية، منذ وصولي إلى فرنسا وكان أبسط الحلول هو لو قد وافقتم...

وقال إدوار «الدمية المشنوقة» بصوت خفيض: لو قد وافقتم.

- نعم!

ثم كرر بمثل واستعلاء:

- لو وافقتم، لو قد وافقتم، فعل ماض غير مؤكد.

قال السيد دي موبران:

- بالضبط.

إن ديزي نافذة الصبر تضرب الأرض بقدميها، وجونتران كئيب ضجر مغلق كدغل من الشوك، أما الكاهن فهو ينظر إلى جوربه في تأمل، جورب قطني فاقع الحمرة، كان جونتران قد أقرضه إياه، وأما التوأم فيتهازمان بالمرافق، ويتبادلان سرًا التعليقات على جورب الكاهن. واكتفى التركي بأن هز كتفيه ثم أكمل حديثه بصوت صبور:

- كنت أقول إن الحل الأبسط هو منحة من جانبي على دفعتين،

وأنتم جميعاً لا تحبون الحلول البسيطة، فلا يبقى أمامنا إذن غير الحلول المعقدة. وأحدها يا أبي، يتلخص في أن تجري القسمة بيننا وأنت على قيد الحياة، ويوضع القصر ومحتوياته والضيعات تحت إشراف شركة مكونة منا جميعاً وبالطبع بأنصبة غير قابلة للتنازل، أما المبلغ الذي سأضعه تحت تصرف الشركة فسيسدد إلى الجمعية مباشرة دون أن يزيد لذلك نصيبي الذي أستحقه مليماً واحداً.

وسكت فجأة ثم سمع صوت أوزمون وهو يقول للوي سيزار بين:
- إنه لجورب كاردينال حقاً!

وأعاد الأب فيليب ساقيه تحت المقعد، بدافع الغريزة، بحيث غطى ثوبه الجورب الأحمر، وانفجرت ديزي ضاحكة بعصبية.
وظل جونتران منطوياً على نفسه صامتاً، إنه يفكر في شيء آخر لا يستطيع التفكير في سواه.

قال المركيز وفي لهجته نبرة جلال:

- إذا كنت قد فهمت ما تقصد جيداً يا أرتوس فإنك لا تعرض عليّ لا أقل ولا أكثر من أن أوافق «على نظام شيوعي»؟
«ها نحن وقعنا في الخلط!» فكر التركي الذي كان ما تبقى له من صبر واحترام قد نفذ «ستبداً حماقات عصر غابر».

- أضع القصر في شركة، أقوم بالتوزيع وأنا على قيد الحياة، أنصبة غير قابلة للتنازل!

ونظر السيد دي موبران وهو يرفع أنفه الذي يشبه منقار النسر إلى

شيء غير مرئي فوق رؤوس أولاده.

- وفي الجملة لن أكون رب داري!

قال التركي:

- إن أي جمعية محتاجة لمدير وفي الوقت نفسه فقد كنت أفكر في

«ش.م.م.» «شركة محدودة المسؤولية».

- في ماذا؟

- في «ش.م.م.» يا أبي.

وقطب المركز حاجبيه الكثيفين:

- إنني لا أستطيع تحمل هذه الطريقة التي تتصرفون بها اليوم

جميعاً، وهي أن تعبروا عما تريدون بالأحرف.

وتنهذ أرتوس وشرح بصوت مبطئ ماذا يعني «شركة محدودة

المسؤولية» وعين الدور الذي يقوم به المدير وسلطته وحدود رئاسته.

همس أوزمون بصوت خافت:

- قل إذن، لقد بدأ يضجرنا!

«نعم حقيقة ماذا نفعل نحن هنا؟ شيء ممل!»، أجاب لوي سيزار.

وفي تلك اللحظة سمعت ضجة عنيفة وقوية، وقد قفز في الهواء

نوع من الحشرات الضخمة ذات الأرجل، ثم عاد فوقع فوق ثوب

الكاهن الذي انتفض وهو يطلق صيحة قوية فزعرة.

تلا ذلك مباشرة ضحكات التوأم، ضحكات نارية عنيفة حادة

يملؤها التحدي، ثم ما لبث الولدان أن كفا عن الضحك وأخذ يضرب كل منهما الآخر ضربات رخوة ضعيفة، ويمعان النظر في الكاهن الذي تحول لونه إلى اللون القرمزي، ثم يتبادلان نظرة قصيرة، ثم تتصاعد ضحكاتهما في قوة أكثر من ذي قبل.

إن الحشرة التي أفزعت الكاهن لم تكن سوي لعبة شائعة ذات زميرك على شكل جرادة كبيرة الحجم. فوقف الأب فيليب في ثوبه الأسود الفضفاض وهو يستشيط غضباً ويمسك بين سبابته وإبهامه جسد الجريمة. وهز جونتران كتفيه، أما إدوار وديزي فأغرقا في الضحك.

«حذارٍ أيها الأب، إنها تعض!»، قال لوي سيزار وهو يرتجف، ثم يرتجف، وقال أوزمون وهو يزوم:

- إنه الشيطان إنه سيوثقك بوثق!

وبحركة جبارة قذف الأب فيليب هذا الشيء اللعين من النافذة، ثم عاد فجلس من جديد بوقار. وسأل التركي والده وهو يشير إلى التوأم.

- هل أصفعهما صفعتين وألقي بهما إلى الخارج يا أبي؟

فأجاب موبران:

- كلا.

وانتهز فرصة هذا الحدث، وحشا غليونه الذي يشبه رأسه رأس جندي مغربي حتى آخره، ثم أشعله في تؤدة.

- إنا لم نفرغ من الأمر تماماً وأريد أن يستمع إلينا التوأم.

- كما تريد.. هل توافق بالشروط التي ذكرتها لك آنفاً أن تكون

مديرًا لشركتنا هذه؟

- كلا.

وخان التركي سخطه وغضبه فأتي بحركة عنيفة، ثم سأل في خشونة:

- هل من الممكن أن نعرف أسباب رفضك؟

ومد المريكز ساقيه إلى الأمام، ثم تنهد تنهيدة المقتنع:

- بكل تأكيد أرفض؛ لأنني أريد أن أظل سيد نفسي ما دمت حيًّا؛ لأنني لا أريد أن أضع سلطتي كربّ العائلة بين يدي أولادي، لأنني أريد أن أتحمّل وحدي كل تبعاتي. لأنني لا أريد أن أخضع قراراتي لموافقة مجلس شورى. يا إلهي؛ إن الاصطلاحات التي نستعملها - مهما يكن من صيغتها القانونية - لا تؤدي إلا إلى الكشف عن كلمة واحدة: التنازل عن حقوقي.

ثم ختم السيد دي مويران حديثه بأن تكلم باستخفاف، بل بما يقرب من المزاح:

- يا أبنائي الصغار، إنني لن أتنازل عن حقوقي. ولا كلام في هذا.

ثم استدار ونظر إلى الكاهن بسخرية:

- أما وقد فرغنا من ذلك، فإنك تبدو لي عصبياً بعض الشيء يا فيليب.

وصعد الدم في وجه التركي الصارم العريض، إنه لم يكن يعتبر هو أن النقاش قد أقفل.

- إنني لا أوافقك يا أبي. لقد أردت أن نضع كل شيء على ملاء من الجميع، لك ما يريحك، لكن إذا كنت قد انتهيت من الأمر فإنني لم أنته، إنك ترغب أن يستمع إلينا التوأم؟ حسنًا ونحن بلا شك طوع أمرك، أصغوا إليّ جميعًا: إنني اعتبر أن موبران قد فسدت، وأن الأمور هنا تسير على عكس المعقول، وإنني إزاء ذلك لا أستطيع أن أقبل مثل هذه الفوضى، مثل هذا العبث، دون أن أحتج على ذلك. هذا ما عندي. ولتؤخذ عباراتي على غير محملها، وليترك أبي عامدًا التوأم يشوشان عليّ أثناء حديثي، وليكن! إن واحدًا فقط منكم لم يخطر له أن يقول لي كلمة شكر صغيرة، إنني أسخر من كل هذه الأشياء كل السخريّة. ولكن ليكن معلومًا أيضًا أنه بإصرار شخص واحد وغفلة الآخرين، فإن موبران التي هي ملك لنا جميعًا - وصدقني يا أبي - تسير على غير هدى، بمنتهى الجهل وبمنتهى البساطة، وهذا ما لا أقره!

كانت كلمات التركي مدوية.

- ها هي مناقشاتك العمومية! أنت يا أبي، لقد تسلمت موبران في حالة جيدة، وإنني لا أسألك في أي حالة تظن أنك ستردها؟ وأنتم الآخرون؟ ستكتفون بأن تنظروا إلى الثقوب التي في أسقفها وهي تتسع، وإلى الأرضية وهي تهبط وتتآكل أليس كذلك؟ ولكن ماذا في جعبتكم؟ إنني أنا رجل الأعمال ألا ترون ذلك؟ رجل المال، نعم ولكن بهذا وذلك (كان يشير بحدّة إلى جبينه ويديه) بنيت بمفردي شيئًا.

وكان التركي قد تغلب على غضبه، فكرر بصوت رصين:

- بمفردي أيها الأصدقاء. أصغوا إليّ ما دمنا في سياق الحديث

فسأقول لكم شيئاً: إنكم لا تحتقرون الأعمال إلا عن جهل وغيظ، وإنكم كذلك لا تحتقرون المال إلا لأنه يعوزكم، أما أنا كما ترون فإنني صرت أتحكم في النقود، ونحن نتكلم جميعاً هنا عن المال سواء أردت ذلك يا أبي أم لم ترد.

ولكن أقسم لك أنني سأكون من بين الجميع أول من يكف عن الكلام عنه؛ لأنني أكسب منه الكثير.

ومدد المركز ساقيه، وثبت نظره على ولده، وأخذ يأخذ أنفاساً خفيفة من غليونه، ثم استطرد التركي:

- وبالرغم من هذا، فإن المسألة في غاية البساطة. في الحقيقة كل شيء بسيط. إن مصروفاتك تتجاوز دخلك وليس لك من مفر من هذا. والحل إما أن تزيد الدخل، وإما أن تنقص المصروفات. وكنت أظن أن أبي سيضع فينا ثقته ويوافق على أن يقبلنا كشركاء له.

قال السيد موبران الذي كان يؤرجح ساقيه بغير اهتمام:

- قلت لا.

ثم أهدى إلى التركي نظرة قاسية.

- وإذا حكمت عليك من اللهجة التي تسمح لنفسك بالتحدث بها عني؛ فإنني أرى أنني حسناً فعلت يا أرتوس. وهذا دورك الآن في أن تصغي إليّ يا ولدي.. إنك لم تبتدع النقود، أظن ذلك، إن جدي أنا كان لديه منها أكثر مما لديك، يا إلهي، وكان يتصرف فيها أحسن منك! لا أحد منا يفكر في لومك على كسب المال فإن هذه الفكرة سخيفة، ولكن

كنا نريد ببساطة أن تظل النقود بالنسبة لك كما هي بالنسبة لنا، أي أمرًا ثانويًا، ولا تبالغ في الغرور، إنني أجد من الطبيعي جدًا أن ينتهي الأمر دائمًا بأبناء الأصول إلى الاندماج في الأعمال، وأن ينجحوا في ذلك! يا للشيطان! وكما اعتادوا أن ينفقوا النقود بسهولة، فسيتعودون بلا عناء على كسبها. إن المصارف في هذه الساعة وشركات الحديد ومصانع الشمبانيا مليئة بالأسماء المشهورة، إن النقود دابة تعود دائمًا إلى حظيرة أصحابها القدامى.

وختم السيد دي موبران حديثه بصوت مستهين، موجهاً الكلام إلى ابنه الأكبر ومشيرًا إليه بطرف غليونه الفارغ:

- اطمئن على الرغم من ذلك، فإن بيانك هذا لم يخل من الفائدة تمامًا؛ لأنني اخترت واحدًا من الحلين: سأنقص من مصروفاتي. أجاب التركي:

- مصروفاتك ومصروفات ديزي وجونتران، والتوأم.

كان يتكلم بمرارة لفتت إليه نظر الجميع. قال الماركيز:

- وهنا أيضًا، يلتبس الأمر عليك. إنه ليس في استطاعتي أن أعرض إلى المضايقات وحدي، ولكنني سأحاول دائمًا أن أكون أول من يتأثر بها.



الفصل السادس عشر

لقد استيقظ التوأم مبكرين، وارتديا السراويل القصيرة والقمصان الكاكية اللون، وصديريات صوفية قاتمة وأحذية من القماش نعالتها من الحبال، وتزود كل منهما بحقيبة لطلقات الرصاص وبندقية.

ثم اتجها بخطوات متلصصة صوب حظيرة السيارات؛ ليخرجا السيارة الرينو العتيقة المطلية باللون الأحمر، وأخذوا يجذبانها تارة ويدفعانها تارة أخرى، كما يخرج المرء حيواناً ضخماً من حظيرته. ثم بدأ في تسيير العربة في مأمن وسط أشجار المتنزه العميقة.

لقد جاوزا القرية وهما مقرقعان بها، ثم سلكا الطريق الرئيس مخترقين حقلاً كان يمتزج فيه صياح الديكة ونباح بعيد بصوت النوارج اللاهثة. ثم اختاروا مكاناً لإخفاء السيارة، غابة أشجارها خضراء معتمة. وبمجرد أن خرجا مترجلين، من غابة «بواسيلفي» وجدا أمامهما البحيرة الكبيرة تمتد مموجة بالتجاعيد كالمرآة القديمة تحت سماء الصيف الزرقاء المكدبة. كانت المياه تنتظر في دهاء الحياة والموت، وكانت العصافير في رحلة للصيد في الهواء الطلق، ومن آن لآخر كان يُسمع

خريز، وإذا بسمكة تقفز من الماء ثم تعود لتسقط فيه من جديد وهي تتلوى على نفسها، وتعرض بطنها الباهتة المصفرة كالموت، وسأل لوي سيزار بلهجة مرتابة:

- والآن أيها الأب الصغير، أيسير كل شيء وفقاً لما تريد؟

فأجابه أوزمون بصوت المتردد:

- نعم، نعم.

- لننفذ ما اتفقنا عليه، أليس كذلك؟ إننا سنفترق هنا، وكل واحد يتبع من ناحية الطريق الذي يحف بالغاب، ثم يلزمنا بعد ذلك أن نسير خمساً وعشرين دقيقة قبل أن يصبح كل منا من جديد على مرمى بندقية الآخر - فقال أوزمون:

- حسناً، ولكن ليس لدينا إلا ساعة واحدة، فمن الذي سيأخذها؟

قال لوي سيزار:

- إنه يومي.

ذلك أنهما لم يكونا يمتلكان سوى ساعة واحدة لهما معاً، وكان يتبادلان حملها دورياً منذ سنوات عديدة حسب تقاليد سارية بينهما.

أجاب أوزمون بصوت مضطرب بعض الشيء:

- إن اليوم ليس ككل يوم.

ووافق الآخر، وأجريا قرعة فجاءت الساعة من نصيب لوي سيزار.

فصاح أوزمون:

- أيها الديوث! حسناً، هنيئاً لك الساعة والآن، بلا مزاج، سنرحل،
وفي تمام الدقيقة الخامسة والعشرين ستطلق أنت في الهواء وأطلق
بدوري في الهواء. ومن هناك نصوب إلى الأشخاص.

- اتفقنا، والآن هل نحلف اليمين؟

وكوّننا صلياً من غصنين من الغاب، وأقسمنا في احتفال ألا يطلقا
إلا على الأكتاف والأرجل، وكان تنظيم المباراة من ناحية أخرى يجعل
الصعود إلى القارب محرماً.

وفتح أوزمون بمهارة بندقيته الصغيرة، ووضع فيها رصاصة قصيرة
مدببة يلمع نحاسها، ثم أقفلها وقذف بها في الهواء، ثم تلقاها بيده وحذا
حذوه لوي سيزار، وقال أحدهما:

- خذ حذرك فإنني آخذ حذري!

وأجاب الآخر:

- انتبه لرجليك جيداً. إنني لا أظن أنه سيمكنك أن تستعملها كثيراً
هذا الصيف.

- لا يا سيدي أنصت إليّ، أرجوك أن تنصت، من الذي كسب آخر
سباق لرمية الأواني؟

- ربما! ولكن الأمر اليوم جدي، إننا نصطاد لحماً ونرسم بالحجم
الطبيعي. ولذلك فإنني أظن أن سيدي يمكنه أن يعد ما بقي له من ساعات
العمر الهنيئة.

وكانا يتباطآن، ويتنافران مثل أبطال ملحمة هوميروس، ولنفس
الأسباب: فلقد كانا خائفين.

- قل لي إذن يا أوزمون؟

- نعم.

- لن نتراجع.

- كلا.

- وإذا مات أحدنا -مَن يدري؟- فإن الذي سيظل منا على قيد الحياة سيجعلهم يننون للآخر مقبرة هائلة وعليها عبارة تكريم هائل.

أجاب أوزمون:

- اتفقنا، وبهذه المناسبة يمكن أن نعطي لأنفسنا لقب بارون «تخليدًا لذكر البارون لوي سيزار دي موبران، الذي قتل في مبارزة رسمية» والتوقيع «شقيقه التوأم الأمين المخلص».

- على رسلك! دقيقة واحدة، إنك تتكلم كما لو كنت قد أردتني قتيلاً.

وتحقق كل منهما مرة أخرى من بندقيته. وبحركة واحدة غريزية رفعا أعينهما نحو السماء الزرقاء حيث كانت العصافير ترتفع وتهبط محاذية منحدرات غير مرئية، ثم افترقا.

* * *

كان السيد دي موبران يفكر. فإن الوحدة تثقل عليه بعض الشيء. إنه لا يستطيع أن يتحمل رؤية ديزي التي كان وجهها الصغير المضيء وابتسامتها الجريئة يلاحقانه، وفكر وهو في شدة الحنق والغضب: «ما الذي عسى أن يعجبها في هذا الكنتي التعس؟»، وفيما وراء هذا السؤال الأول كان سؤال آخر يلاحقه، وهو يحاول دائماً وبقوة إبعاده عن نفسه:

«ماذا فعلا معاً؟ هل بذلت له نفسها؟ إذا لم يكن الأمر كذلك فكيف نعلل هذا الولع الشديد؟».

إن جان ديرييه تبدو كأنها تتجنب السيد دي موبران في الوقت الذي تظل فيه عن طيب خاطر إلى جانب مدام دي لاسيرنيير، التي مضت صحتها تتماثل ببطء وفي أمان للشفاء.

أما التركي؛ فكان في تجوال مستمر، وقد حرص ألا يُبدي أي إشارة عن فشل عروضه المالية، واكتفى بالتغيب أغلب الأوقات. ولأقل كلمة كان يستقل سيارته البويك، ويذهب إلى بعض الجيران أو إلى ديجون، وطالما رآه أهل الناحية يمر وبجانبه تجلس في الغالب شابة صغيرة تُدعى فيفيان دي روماران. ولقد أخبر أناس كثيرون السيد دي موبران بهذا الأمر، لما هنالك من لغط كثير حول سلوك فيفيان دي روماران الشابة، تلك التي كانت تؤكد هنا وهناك أن نشأتها تعفيها من سلوك السبل المطروقة التي اختطتها الأخلاق العامة، والتي في الواقع لم تكن تتبعها. وبدأ الناس يعرفون أن فيفيان الشابة قد اختارت مؤقتاً أرتوس دي موبران لإثبات نظريتها تلك، وتضعها في مجال التطبيق العملي. كما كان يقول وهو يغلي بارفي الطيب.

أما جونتران؛ فلم يكن يحاكي في شيء أهواء أخيه الأكبر. كان دائماً الانطواء على نفسه، لا يخاطب المركيز تقريباً. وكان يبدي أدباً مفرطاً قد يبلغ حد المبالغة تجاه عائلة لوانتران والعمة كوريزاند، وعلى العكس من ذلك فإنه كان يضاعف رعايته ولطفه بالنسبة لديزي، ولكنه كان دائماً مكتئباً صموتاً، نافرًا.

وكان التركيز يرى أن في فيليب العزاء، وفي الحقيقة كان «الأب» يأكل كالغول، ويصطاد من الصباح حتى المساء ويضحك من كل قلبه، ويعثر شبابه هنا وهناك.

أما السيد دي لوانتران، فكان يستيقظ متأخرًا ويقطع دهاليز الطابق الأول وهو يرتدي أردية مختلفة، كانت تبدأ من أبسط الملابس إلى أغرب الحلل المصنوعة من التيل الخشن، والتي كان يبدو فخورًا بها لغير ما سبب معروف. وبعد الغداء كان يصحب ديزي إلى حجرة السجلات حيث تستكمل بإتقان كالتمغة (حياة أناتول موسكيه، دوق هدنا وماريشال فرنسا). وبسلوك علمي كان مألوفًا منه أفرد المؤرخ في كتابه بابًا واسعًا اشتمل بكل أمانة على دراسة كاملة عن حضارة أهل القبائل. ومن كثرة دراسته لهذا الشعب الإفريقي، فإن السيد لوانتران أصبح يرى أنه شعب ودود جدًا متطور فنان، مشحون بالشعور الديني والتقاليد العريقة. وبالتدريج أصبح دوق هدنا يحتل في مخيلته مكانة غازٍ فظ متعجرف ذي مسلك بغيض، ورجل شرس دون ثقافة أو ماضٍ، حل وسط رفاهية شعب القبائل الأصلية كبربري من برايرة روما القديمة. ولذا فقد غير لوانتران العنوان بعد أن حذف كلمة (البطولية)، ثم قام بوضع مشروع كتاب عن تاريخ شعب القبائل الحافل، الذي لن يدونه أحد في يوم من الأيام، وأصبح عندما يتكلم عن الماريشال لا يعرفه مطلقًا إلا بكلمات قاسية جدًا مثل (هذا الحيوان موسكيه)، أو (موسكيه العابت) الأمر الذي كان يحير التوأم.

أما مدام دي لونتران؛ فكانت في الوقت نفسه تجد الطريقة التي تنشغل بها إلى حد الإرهاق. وكان موبران يقول عنها إنها (تفيض حيوية). إنها كانت تسيء معاملة المسكين الأب (تايان) كاهن القرية الذي كان قد عاد لتوّه من إجازته في (بيير-كي-فير). ولقد حطمت الحواجز والعقبات التي أمامها كما تحطم الزجاج، وحصلت كتابة على موافقة مرضية من أسقف الناحية التي كانت تتوعده بزيارة أو حتى ببعثة، وأنشأت قسمًا كاملاً للشمامسة في موبران، ثم أتبعته بآخر للكورال، وثالثًا بغرفة مسرحية كانت تتدرب مرتين يوميًا على أداء تمثيلية (اليتيمة الصغيرة) «لاكتاف فوييه».

ولم يكن أحد يرى أدوار «الدمية المشنوقة» تقريبًا إلا أثناء وجبات الطعام، فلقد كان عقد صلة غرامية مع فلاحه شابة كانت تقدم له نفسها عن طيب خاطر، وتستمتع له مسحورة وهو يلقي أشعاره السيريالية. وكان المركز قد سمع عن هذه القصة الغرامية، فكان يحتقر في نفسه إدوار إلى حد ما لتركه نفسه يقع في هذه المغامرة، فإن الحببية المختارة كانت من عائلة (أوزوليت) التي تستأجر إحدى ضياعهم. إن المركز موبران، ذا النظرة الواسعة إلى كل ما يمس خطيئة الجسد، لم تسول له نفسه في يوم من الأيام أن يقيم أي علاقة مع ابنة أحد من مزارعيه. وكان يعتبر شائنًا وخسيسًا كل ما يتصل بعشق الخدم.

وذات مساء سمع السيد دي موبران دون قصد صدى لمشاجرة عنيفة بين إدوار والتركي. قال التركي:

- لقد بلغني أنباء من باريس عن صفقات للبيع والشراء

للسيارات ذائعة الصيت تلك الصفقات التي تجريها هناك، وإني أنذرك مقدماً أيها الرجل الطيب: إما أن توقف تلك الصفقات تماماً، وإما أن أتكلم بخصوصها مع أبي. وليس فقط معه، ولكن مع نقابة أصحاب الجراجات وأصحاب الامتيازات والبائعين الملتزمين بالضريبة، أرأيت إذن أيها الأبله المسكين! إنك متلبس بالأشياء غير المشروعة، وهذا الأمر سينتهي بأن يكلفك غالباً. وأنت لست بحاجة لاتخاذ هذه المظاهر النزيهة، إن أبي لبسيط بكل تأكيد بحيث يمكنك أن تقص عليه ما أردت، ولكن كان يجب عليك أن تخجل من أنك تخاثل رجلاً في مثل هذه المرتبة بمثل هذا السم. أصغ إليّ جيداً يا إدوار: إنك لم تصبح بعد محتالاً ولكنك تاجر مشكوك في ذمته، إنني مصاب بالحرص على سمعة العائلة، ولكنني أفضل أن أقطعك إرباً على أن تظل هكذا!

وأجاب إدوار ببذاعة شديدة، جعلت السيد دي موبران يبتعد بخطوات سريعة متجنباً شهوة التدخل:

- ماذا عساه صنع هذا الحيوان الملقب بإدوار ليجعل أرتوس في مثل هذه الحالة؟ «غير مشروعة، تاجر مشكوك في ذمته، لست محتالاً بعد» يجب أن أهتم به أكثر من ذلك!

وأثناء تفكيره في إدوار، شعر السيد دي موبران بوخز حاد مبهم للضمير. وقال لنفسه وهو يبعد بصعوبة متزايدة شعوره بالشفقة نحو نفسه: «إنني وحدي». ثم قرر أن يتكلم بصراحة مع التركي الذي كان يقدره تقديراً يمس أعماق قلبه، وأحياناً كان يفاجئ نفسه وهو يحقد

في إدوارد محاولاً أن يصل إلى حقيقة تحت هذا القناع الذي سيظل إلى الأبد شاردًا مستهترًا.

* * *

ظلت أفكار السيد دي موبران تدور حول نفسها في الدائرة الضيقة لعائلته. وأصبح الشعور بالوحدة الذي يثقله أشد وأقوى إيلاّمًا من أن يُحتمل. لقد كان لديه بعض المناقصات التي يجب أن يدرسها، ولكنه لم يجد الدافع إلى العمل - فقرر أن يزور الكاهن الذي كان طبعه السمع ينعشه. ووجده في حجرته ومعه عدة القتال متأهبًا للذهاب إلى الصيد.

واختار موبران مقعدًا واسعًا، ثم أخذ يحشو غليونه:

- لقد كنت على وشك الخروج، أليس كذلك يا فيليب؟ أرجو ألا أكون قد ضايقتك كثيرًا.

- أتنظن ذلك:

- لقد كانت لديّ الرغبة في أن أراك أيها العجوز، إن الأيام تمر ولن نجد مطلقًا الوقت لكي نثرثر، هل تعلم ذلك؟

- أعلم ذلك، وإنني لفي سرور أن حضرت لتراني.

وجلس باسترخاء أمام والده، ومد بدوره ساقيه، ثم أشعل غليونه وتذوقه في نعيم. وبددت ذبابة بطينها المزعج هدوء الحجرة. وراقب فيليب السيد دي موبران الذي كان يبدو أن صحته ليست على ما يرام.

- إنني متضايق من سفرك إلى تشاد يا فيليب. ربما كنت فخورًا جدًا به، ولكنه يضايقني.

وابتسم الكاهن دون أن يجيب وترك المركيز نفسه يظهر أقصى
غايات الحنان الذي يسمح له به وقاره:

- هل أنت سعيد هنا؟

- أكثر مما أستطيع التعبير عنه.

- حسناً... ولكن قل لي يا فيليب... يخيل لي أنك صياد لا بأس به،
ولكن بط الماء صيد صعب المنال.

- نعم، أتعرف أنني أرجو أن تسنح لي الفرصة في أن أصطاد في
بحيرة تشاد.

من الواضح أن هناك غابات استوائية لا بد من اختراقها عندما يزور
المرء هناك القرى الوطنية. والقرية التي أنا ذاهب إليها تُدعى (كومرا).
إنها مركز أنشئ حديثاً في قطاع به مائة ألف نسمة، وسنكون مسؤولين
عن أكثر من ثلاثمائة قرية!

كان السيد دي موبران يمعن النظر في ابنه ويقول لنفسه «ها هو ذا
أسعد مخلوق قابلته في حياتي». وسكت فيليب وخيم بينهما سكون
لذيذ مشبع بدخان الغلايين.

ومنذ لحظات استرعت مفكرة الكاهن الضخمة انتباه المركيز.
كانت ترقد فوق منضدة بكل فخار بقفلها وحدائدها البربرية... وانتهى
بأن أشار إليها بإصبعه:

- ما هذا أيها العجوز؟

وبدا الحياء على فيليب نتيجة لسؤال والده:

- لا شيء، نوع من كراسات تدوين الملاحظات.

- آه! حسنًا.

وتبين الكاهن أن والده يريد أن يطلع على المفكرة، ولكنه لن يتكلم عن ذلك بادرًا.

- نعم لقد كنت أقول لك إننا لن نشرث معًا كثيرًا يا شيخخي المسكين منذ رسامتك.

- هذا حقيقي.

وأضاف الكاهن وهو يتحامل على نفسه:

- إنه ليسرني أن تلقي نظرة على كراستي.

وابتسم السيد دي موبران ابتسامة نصف عطوف ونصف ساخرة:

- إنك لست شديد الرغبة في أن تطلعني عليها يا فيليب.

وكان جواب الكاهن أن وضع الكتاب الضخم بين يدي والده:

- بلى لي رغبة في أن أريك جزءًا منها، وأرجو منك فقط ألا تقرأ مقدمتها.

وتصفح السيد دي موبران الوثيقة، وهو يهز رأسه، بينما كان ابنه يتطلع إليه في قلق.

- وأنت تسمي هذه بتواضع كراسة! إنها لكتاب قداس بمعنى

الكلمة، يضم صلوات العام كله. إنني أعرف أنك في قوة الثور، ولكن من العسير عليك حملها ويلزمك قمطر لكي تقلب في صفحاتها!

ثم هز رأسه ثانية:

- إنك كنت دائماً مفراطاً ومجاوزاً للحد.

ثم وقع بصره على عبارة للقديس إنياس أنارته:

«في وسعنا أن نقر بأن معظم النظم الدينية الأخرى تفوقنا في الصوم وفي التهجد، وكذلك في بعض أنواع الزهد والتقشف، وأن كل واحد من هذه النظم يعالج تلك الأشياء بما تستحقه من التقديس وبطريقتها الخاصة، أما فيما يتعلق بالطاعة...».

وقلب الصفحات بحركة تدل على نفاد صبره. واسترعت انتباهه أخيراً بل سيطرت عليه ملحوظة طويلة كانت هي الأخيرة في الكراسة، فقرأها بينه وبين نفسه متمماً بشفتيه، ثم بدأ في قراءتها من جديد بصوت مرتفع:

«إن الأدباء المسيحيين اليوم، الأدباء المحدثين، مولعون بالموازنة بين مدى النعمة الإلهية والدناءة البشرية، وإني أرى أنهم متشددون، وأرى كذلك أنهم كثيرون، لماذا لا نرى عندنا إلا الفساد والسقوط؟ إن حالة جراهام جرين لمطابقة لهذا: ولا بد من أن يوجد بيني وبينه تنافر نفسياني، ويمكنني كذلك أن أعدد كثيرين غيره من الكتاب! وكل هؤلاء يجعلوننا نرى أن الله لا يبسط سلطانه إلا على ألوان من البؤس، والأماكن القاحلة، وعلى من يعيشون في وحدة قاتلة، لا يصل إليهم عونهم إلا بكل جهد جهيد. إن الحب يجف تحت أقدامنا كالصحراء في أي مرآة أولئك ينظرون؟

إن لي رأياً أفضل من البشر. إن يسوع المسيح يلقي ظل صليبه على حصيد من النفوس يفوق حقلاً من القمح.

إنني أظن أن العالم أضحى بالفعل جميلاً، وإننا نجني الآن رضى
الله، الله الذي بيننا هنا، يبدو لعين من يريد رؤيته، والذي لم ينتظر حتى
اللحظة الأخيرة كي يفيض على العالم ويغمره».

وسأل السيد دي موبران:

- أهذا من قولك يا فيليب؟

- نعم.

- أرجو أن يتركوا لك فرصتك في النضوج، إن في أطواء هذا
الكلام مقدرة.

وفكر الكاهن بضع لحظات، ثم قال:

«لست أدري؟ ولكني أخاف أن أكون بحق قويًا جدًا، وأن أنظر
للحياة نظرة الأرستقراطي»، وتنهّد.

- أترى يا أبي لكم وددت أن أولد بين عامة الشعب، أظن أنني حينئذ
كنت أصبح أكثر طواعية بين يدي الله، أتعرف ماذا قال «برنانوس» طبع
كجلد الغزال بين يدي الدباغ، نحن لسنا طيعين، فنحن نعيش منذ أمد
بعيد.

- إنك على حق يا فيليب، نحن لسنا طيعين.

وقطب المركيز حاجبيه ولمعت عيناه السوداوان اللتان استولى
عليها كبرياء ساخر، وابتسم ابتسامة مأكرة:

- نحن أشد من يوجد في هذه الحياة صلابة ومقاومة.

- وهذا الأمر يسرك الشعور به؟

- بكل تأكيد!

- أما أنا؛ فهذا الأمر يفزعني.

- يفزعك؟ لا بد أن هذه كلمة علمك إياها القساوسة.

وأقلل التركيز المفكرة بشدة محدثاً صوتاً كصوت الانفجار:

- خذ! إنني أعيد إليك صرحك. واستمر إلى نظرتك الطيبة إلى

الأشخاص، إنه لمن الأفضل أن يرى الإنسان العالم كما تراه:

وهز الكاهن كتفيه:

- لم أعد أدري في النهاية، وإنني لشديد الفزع من كبريائي، ولا

أطمع في أن أكون فيما بعد سوى خادم لله.

ثم نهض واقترب من والده:

- لا تتسرع في إعطائي دوراً مهماً.. إنني أخشى على نفسي من

نفسي؛ فإن السعادة التي تغمرني نتيجة لانخراطي في خدمة الله سعادة

تغلب عليها الصفة البشرية. وما أكثر ما أتجه كذلك نحو العوالم

الخارجية، والبذل في سبيل الله يبدو لي شيئاً سهل الاحتمال.

وقاطعه السيد دي موبران بحركة من يده:

- إن هناك شيئين أنتظرهما من الكاهن يا فيليب: القوة، والفرح.

* * *

سار أوزمون والبندقية بين كفيه بخطى ضيقة بمحاذاة الغاب،

تطارده تخيلات خرافية مضحكة:

- إذا طار عصفور قبل أن أعد حتى الثلاثين، فإن لوي سيزار سيقتلني.
وبدأ يعد في ذهنه وهو يحرص ألا يذكر الأرقام بسرعة كبيرة: «سبعة
ثمانية تسعة...»، وسمعت صرخة قوية وطارت دجاجة غابة، فرسمت في
الجو خطاطيف رائعة ووضع أوزمون غريزيًا بندقيته على كتفه وهو يشعر
بوخزة في قلبه وهمس قائلاً. «أجل، سألقي بنفسي للهلاك».

وتملكه فزع أكبر عندما فكر في مصير لوي سيزار.

«يا إلهي لا تجعلني أقتله على الأقل!».

وعادت إليه الخرافات من جديد؟ وصعدت إلى نفسه المضطربة
كالفقايع فوق سطح البركة.

«إذا لم أسحق بقدمي قوقعة أو حشرة أخرى قبل أن أسير مائة
خطوة، فإن لوي سيزار سيخر صريعًا».

كان يتخيل العودة إلى موبران، وأحدهما يحمل جثة الآخر، «إنه
سيكون لطيف المنظر».

وفي الوقت نفسه كان لوي سيزار يسير في الجهة المقابلة بحذاء
الغاب مسلمًا نفسه لأسود الأفكار: «إنني أنا الذي سأخسر بالتأكيد»..
ثم: «أما إذا ارتمى أوزمون على الأرض بالضبط في اللحظة التي أطلق
عليه فيها، فستخترق رصاصتي جسده».

ثم زيادة على ذلك: «عندما أعيد جسد أوزمون إلى أبي باردًا كالثلج
ما الذي سيحدث لي أنا؟ سأحاول أن أوضح أن كل ذلك كان شيئًا مرتبًا
وقانونيًا، ولكن لن يستمع إليَّ أحد لن يفهمني أحد. سوف يحبسونني،

إن طعنات السيوف ذات الأسنة المكسورة كانت فيما مضى، أما الآن فليست هناك تقاليد، وليس هناك أي شيء».

وأدى وهو شديد الأسى علامة الصليب بسرعة، ليكون دائماً وفي أي مغامرة تحت رعاية الله. وبدأ في السماء كخرقة سوداء غراب كان يتأهب لملاقاة لوي سيزار من ناحية اليسار، وبسرعة البرق الخاطف استدار الغلام إلى الخلف، وسار بضع خطوات في الواجهة المضادة، فتخطاه الغراب من ناحية اليمين وهو يرسل صياحاً أجش، بدا وكأنه صدى لاحتجاجه. واستدار لوي سيزار مرة أخرى وعاد إلى اتجاهه الأول وتمتم بصوت غير مسموع مخاطباً الغراب الذي لم يكن يراه ألبته: «كنت تظن أنك ستظفر بي، وهأنذا أظفر بك».

ونظر في ساعته، ولاحظ أن خمسا وعشرين دقيقة بالضبط قد مضت منذ أن ترك شقيقه، وأدى مرة أخرى علامة الصليب، ثم وقف وهو يرتعد محتمياً بشجرة لبخ ضخمة، ثم رفع البندقية إلى كتفه وصوب إلى أعلى السماء، ثم أطلق طلقة نارية.

وفي نفس اللحظة تقريباً أجاب عليه أوزمون بطلقة أخرى، وكانت المسافة التي تفصل الولدين الواحد عن الآخر ما يقرب من الستين متراً.

* * *

وجدت جان ديرييه ديزي في السرير، كانت تبدو من وسط الفراش المتموج الأبيض كحطام سفينة.

- ديزي يا صغيرتي، هل أزعجك؟

- كلا.

وقالت جان وهي تضحك:

- إنكِ لا تقولين هذا من قلبكِ.

كانت تسير في الحجرة على أطراف أصابعها، منحنية إلى الخلف، وذراعاها وراء ظهرها، بمشية كمشية الراقصات. وكان شعرها الأشقر الذي يمسكه شريط أسود يلقي إشعاعات كإشعاعات النحاس في وهج الشمس. وكانت ديزي تقول لنفسها وهي ترقب في غير سرور هذا الوجه الطويل الواضح، وهذا الفم الجميل المكتنز الذي تبرز شفته السفلى قليلاً، وهذا الجبين الذي ربما بدا للناظر ضيقاً بعض الشيء، والأعين الفاتنة الزرقاء المشوبة بالسواد الدائمة الغموض: «إن لها قواماً خارقاً للعادة وصدرًا فاتناً، أما أنا فصُدري كبير قليلاً بالنسبة لقوامي، لو كان لي فقط أعين زرقاء».

- ديزي، ما الذي تصنعيه في هذه الساعة في السرير؟ إنكِ لا تستطيعين أن تتصوري إلى أي مدى الجو جميل في الخارج! إنكِ ما زلتِ تفكرين في أكداس من المسائل؟ أتريدين أن أقول لك شيئاً؟ إنني أجد ذلك حماقة منك، إن الذي مضى قد مضى.

- حقيقة؟

كان صوت ديزي لاذعاً بعض الشيء، وعذباً منغوماً- ولكن شيئاً في اللهجة التي كانت تقول بها كلمة «حقيقة» كان يذكر بلهجة أبيها.

وقالت جان:

- إنني أعرف جيداً ما الذي تفكرين فيه... إنك تجدين أنه من السهل على المرء إلى حد ما أن يعظ ما دام الأمر لا يتعلق به شخصياً، أنتِ على حق من هذه الناحية، ولهذا السبب لم أشأ أن أخاطبك في هذا الأمر حتى الآن.

وقالت ديزي مرة أخرى، ووجهها مصفر ماجن مثلث من أسفله كالوجوه التي اعتاد أن يرسمها المصور «لاتور»، وعلى شفيتها الدقيقة ابتسامة مأكرة جميلة:

- حقيقة؟

وشعرت جان أنها يجب أن تصمت، وأخذت بين يديها يد صديقتها الصغيرة السمراء الجافة. «ديزي التي تتألم، ديزي الحلوة، ديزي التعسة، وربما الشريرة، نعم الشريرة دون أدنى شك، ديزي الرقيقة عريقة النسب، ذات الشعور الرقيق الذي لا يتحمل تلك الأنفة الخارقة للعادة التي تفسدها والتي تدعمها، ديزي ذات اليدين الشديديتي الحيوية، والانفعال والوجل، وكأن قلب طائر يخفق تحت راحتها. ديزي التي هي ليست أهلاً للأحسن والتي يجب أن تكون أهلاً للأسوأ. ديزي التي ليست شديدة الذكاء، ولكن غريزتها توجهها في أمان شديد. ديزي التي يجب أن أحذرها، ديزي غير الودود بالرغم من الشفقة التي تثيرها... ديزي التي لا أحبها؟»

ثم أخذت جان - وأفكارها تدور ببطء وكسل تفكر في نفسها. إنها لم تستطع أن تزن جيداً قدرتها على التهدة يوماً من الأيام، ولكنها كانت تتحقق من نتائجها، وكانت كبرياؤها تحجب إليها تلك القدرة التي

تمارسها بشعور متزايد، واستمعت إلى صوت يهمس بداخلها «يجب الآن أن أعني به»، وجالت بخاطرها صور شتى: «الحفاظ على رأس مجنونة... فوق سطح الماء».

- هيا يا ديزي، انهضي!

ولكن لم تجب ديزي. كانت يدها قد أفلتت من بين أصابع جان النضرة. وكان وجهها يغمره سكون كالسكون الذي سيمنحه إياه الموت يومًا من الأيام. لقد غلبها النعاس.

* * *

لقد وضع الكاهن السيارة الجيب على جانب الطريق الذي يحف بغابة «البواسيلفي»، وبدت البركة أمامه غامضة، يخيم عليها السكون وتملؤها الأجنحة الصغيرة المطوية، ومرة أخرى شعر فيليب أن ميله الغريزي للصيد لا يُبارى، وتخرس أمامه جميع الأصوات يجب أن يحتفظ بهذا الهدوء الذي يعم في الصباح، وألا يزيد اضطراب حياة شجيرات الغابة القلقة، ثم يحطم هذا السكون دفعة واحدة عندما يحين الوقت؛ لذلك إن الأمر يتعلق بالتحديد بأن يقتل صيده.

كان فيليب يتقدم بمحاذاة شاطئ البركة، دون أي جلبة أخرى سوى صوت الوحل الخافت المنغوم تحت قدميه، وكان الغاب الطويل يحجبه عن الأنظار، وكان يستنشق بلذة رائحة العشب المدوس، وتمتم فيليب قائلاً:

- لا بد أن أحدًا أتى إلى البركة هذا الصباح، فلست أثير من الطيور

شيئاً. يا لها من مضايقة!

وفي هذه اللحظة سمع صوت انفجار خفيف أصم، ثم تبعه آخر.

- ماذا؟ إنهم يطلقون البنادق؟ إنهم أناس في غاية الجرأة!

وتقدم الكاهن على شاطئ البركة وهو أكثر تخفياً، صامتاً، والبندقية في قبضته. ومر بسمعه صفير مشؤوم، كان يشبه صرخة القط وطين الزنبور الهائج، ثم في الحال تقريباً وصلت إليه فرقة انفجار جديد، فقفز إلى الخلف.

وصاح هذه المرة بصوته الدافئ القوي الذي كان يذهب بعيداً:

- رصاصة! يا للداهية!

وعاد السكون يخيم من جديد فوق الغاب. وفي هذا الوقت مر سرب من البط الجافل عالياً في السماء في اتجاه الشمس، رقابه ممتدة وأرجله مبسوطة.

وصاح الكاهن من جديد:

- مَنْ هناك؟ مَنْ الذي يطلق الرصاص؟ أنتم مخبولون!

وتعقب الصوت، دون أن يختبئ. بخطوات واسعة وسط ضوضاء الغاب الذي مضى يدوسه بحذائه الثقيل. ومن وقت لآخر كان يزعق وهو في شدة الغضب بكل صوته الجهوري:

- سأعلمكم أنا كيف تطلقون النار على القوم! لأمسك بكم فقط

أيتها العصابة من الكلاب الضالة!

وعلى بعد خمسين متراً من جهة اليمين كان هناك ستار من أشجار

اللبخ تختلج أغصانها مع خفقات الرياح، وخلف أضخم شجرة في هذه المجموعة ظهر رأس لوي سيزار الأشقر الأشعث وهو يمسك بيده بندقية.

وأمام الكاهن بالضبط برزت رأس أخرى لم تكن سوى رأس أوزمون.

ولم يجد فيليب ما يقوله في بادئ الأمر، وأخذ -وبندقيته في يده- يحدق بالمناوبة في أوزمون ولوي سيزار، اللذين ألقيا السلاح وبديا غاية في الخجل والحيرة، وأخيرًا تمكن من أن يتكلم، ولكن كلماته كانت صرخات حقيقية تنبعث من حلقه القوي:

- ماذا؟ أنتما اللذان تطلقان حيثما اتفق؟ ماذا تفعلان بينادقكما ذات الزمبرك؟ ماذا تفسدان هناك؟

وتقدم التوأم صوبه وهما يتبادلان أحيانًا نظرة قصيرة، ثم قال أوزمون وهو يتلعثم:

- كنا نقوم بمبارزة يا فيليب.

وأضاف لوي سيزار بذكائه وابتسامة استعطاف:

- لقد أقسمنا ألا نصوب إلا إلى الأرجل والأكتاف، أتعرف...

وألقى الكاهن سلاحه، واجتهد أن يظل هادئًا، ثم أمسك رأسه بين يديه:

- مبارزة؟ ولكن ما هذه الحكاية؟ ماذا يعني «ألا نصوب إلا إلى الأرجل والأكتاف»؟

وفجأة، وبعد أن وزن كل كلمة، انطلق منه زئير جعل التوأم يتنفضان:

- أكتنما تتراميان بالرصاص متعمدين؟

وكان القتال قد أخذ من أعصابهما مأخذه، فلم يتماسكا. ثم سكن غضب الكاهن كما تسكن ريح الصيف، وقال للتوأم بصوت هادئ:

- تعاليا لتريا.

وقادهما بادئ الأمر إلى شجرة اللبخ التي كان يحتمي خلفها لوي سيزار. كان ساق الشجرة يحمل آثار (رصاص)، وعلى بعد خمسين سنتيمتراً من شجرة اللبخ غصن صغير مفصول تمام الانفصال... وقال الكاهن بهدوء:

- لا بأس بتصوبيك يا أوزمون.

ثم أضاف:

- أين كنت أنت بالضبط يا لوي سيزار؟ جاثياً على ركبتك خلف الشجرة أليس كذلك؟ حسناً إن الرصاصة التي بساق الشجرة كانت في مستوى عنقك بالضبط، انظر أنت بنفسك، وإذا كنت واقفاً أثناء إطلاقك النار فهي في مستوى بطنك أو معدتك مثل هذه الرصاصة أيضاً التي فصلت الغصنين، ثم أضاف فيليب بصوت حالم:

- في خلال الحرب رأيت أشخاصاً جرحى بجاني: كثيرين في بطونهم وواحد في حلقه، وماتوا متأثرين بجراحهم. كان الذي قاسوه عذاباً مريعاً.

وامتقع وجه لوي سيزار، واستدار ناحية أوزمون الذي غض عينيه:
- إلى الأكتاف وإلى الأرجل، أليس كذلك؟ ستدفع ثمن ذلك أيها
البقرة العجوز.

ودون أي تعليق آخر سحب الكاهن التوأم إلى الناحية التي كان
يتحصن فيها أوزمون بالقرب من كوخ المراكب.

- أهنأ كنت تختبئ يا أوزمون؟ خلف هيكل هذه السفينة النخر؟

- ولكنني لم أكن أختبئ.

فصاح الكاهن:

- اتفقنا، اتفقنا، انظر إليّ أيها الهاوي!

إن القارب المهدم الذي أكله الدود والعفن يحمل آثار رصاصتين
اخترقته من جهة إلى أخرى، ولم يبق الخشب الذي يشبه الإسفنج بأي
مقاومة، ويرى به ثقبان جميلان مستديران تمامًا على بعد حوالي متر
الواحد من الآخر. ثم قال الكاهن:

- أحسنت يا لوي سيزار! واحدة إلى اليسار وأخرى إلى اليمين،
وأوزمون في الوسط الشيء الذي يسمونه بلغة المدفعية «محاصرة
الهدف». والرصاصة التالية كانت من نصيبك يا أوزمون... لنر قليلًا.
لنر قليلًا. إنك كنت تختبئ هناك في الداخل، ومن وقت لآخر كنت
تظهر برأسك الجميل من أعلى كي تستطيع أن تطلق النار - أهذا أحسن؟
- نعم.

- حسنًا وقيفًا أنني لو حكمت في الأمر من واقع ارتفاع الرصاصتين،

فإنك كنت ستتلقى الثالثة في صدرك.

وامتقع لون أوزمون بدوره غاية الامتقاع، وهو ينظر إلى الثقوب التي في داخل الخشب، ولم يستطع أن يقاوم شهوة وضع إصبعه في داخلها، ثم تمتم في صوت ليس له طابع:

- لقد اخترقته كما لو كان زبدًا.

ثم استدار بتوحش ناحية أخيه التوأم:

- ألا ترى أنك كنت تستطيع أن ترديني قتيلاً في غفلة منك؟

ولكن لوي سيزار أجاب على ثورته بالمثل:

- هل تستطيع أن تتكلم، أنت، برصاصاتك المصوبة رأسًا إلى بطني؟

- حينئذ هذه، هذه دنيا!

وأسكتهما الكاهن منتهياً بأدلته إلى نهايتها المرجوة، ثم جنح إليهما بوجه صارم ودون أن يجدا وقتاً لكي يقوما بأي حركة، صفعهما كليهما صفعة ضخمة. ثم تركهما مزروعين هناك، وابتعد بخطوات واسعة تجاه غابة «بواسلفي».

* * *

قال السيد دي موبران في إعياء:

- ماذا؟ أهو أنت يا فيليب؟

- نعم، ولكن ماذا بك يا أبي؟ أمتألم أنت؟

كان السيد دي موبران ممددًا فوق سريره.

- كلا، كلا. فقط متعب بعض الشيء، إنني لست الآن ابن الثلاثين عامًا... هل لديك شيء تريد أن تقوله لي؟

- نعم، بخصوص التوأم.

وأظلم وجه السيد دي موبران:

- ماذا فعلًا أيضًا هذان العصفوران؟

- أوه لم يفعلًا شيئًا يذكر إنه شيء صغير جدًا. لقد قاما بمبارزة بالبنادق!

وانتصب المركز كالزمبرك:

- ماذا تقول؟

- أقول إنهما قاما بمبارزة، وأن إحدى رصاصاتهما دوت في إذني، وإنني عاينت آثارًا جميلة للمعركة في الأماكن التي كانا قد اختفيا فيها، وعلى أي حال كان من المنطقي أن أحضرهما إليك وقد أصبح جسدهما من كثرة الثقوب كالمصفاة. وكانا قد أقسما ألا يصبوا إلا إلى الأرجل وإلى الأكتاف، وكل هذا من باب التسلية. إلى الأرجل والأكتاف! فماذا تقول في ذلك؟

- وهل تبادلًا إطلاق الرصاص؟

- نعم!

- وهل... لم يصبهما شيء؟

- كلا يا أبي لا شيء مطلقاً! ولكن...

وتنفس السيد دي موبران بصعوبة، وراح يبحث وهو جالس فوق السرير بيد مرتعشة عن غليونه، وفجأة رآه فيليب يصفر، ويفغر فمه ثم يقع إلى الخلف. وبقي دون حرام بعرض السرير.

- أبي ماذا هناك؟ ما هذا؟ ماذا بك؟

وجن جنون فيليب... ورفع جسم أبيه، ومدده، وأسند رأسه إلى الوسائد.

- أبي! ماذا جرى أجبنني!

ثم أخذ يربت على يديه وعلى وجهه ويهرزه.

وفجأة واتته فكرة: (يجب أن أنادي جان ديبريه!).

وانطلق إلى خارج الحجرة، ولحسن الحظ وجد جان في حجرتها، وأمسك بذراعها وسحبها:

- تعالي حالاً!

- إلى أين؟ ما الذي دهاك؟

- عند أبي!

وتصلبت في مكانها بشدة فتركها:

- ماذا؟ لقد حدث له شيء، أليس كذلك؟ أجب إذن؟

فقال فيليب وهو يتلعثم:

- لست أدري! كنت أخاطبه... لا بد أنه انفعل، صدم، لقد فتح فمه

ثم غاب عن وعيه.

ولم تنتظر إلى أن يكمل جملته، بل جرت كالمجنونة إلى حجرة موبران، واقتحمتها دون أن تُعنى حتى بأن تقرر الباب. كان المركز يرقد ويداه فوق صدره، ولاحظت جان الدوائر السود التي حول عينيه المغمضتين، ولونه الأزرق. ورآها فيليب ترتمي إلى الأمام. وتفتح سترة موبران، وتنحي القميص جانباً، وتلصق أذنها بصدره العاري، ثم وقفت من جديد شاحبة كالموتى، ونظرت إلى الكاهن:

- إنه لا يكاد يتنفس! وأظن أن الأمر جد خطير، وإنني أتساءل ماذا عسأك قلت له! اذهب في الحال واستدع الطبيب تليفونياً. هل تسمح؟
أما أنا، فسأبقى.
- اتفقنا يا جان.

وبمجرد أن غادر الحجرة بخطاه الصامتة، نشطت جان حول السيد دي موبران، فخلعت عنه السترة والقميص، ثم أحضرت كحولاً ودلكته. وفي نفس الوقت كانت كلمة مفزعة - اسم مرض قاتل - تلاحقها.
وفتح موبران عينيه، ببطء شديد، وأدار رأسه ناحية جان. ووضع يده إلى جانبه، فتقلصت ملامحه من الألم، ثم عاد وجهه واسترخى:

- جان... ماذا تفعلين هنا؟

فابتسمت ومسحت له جبينه:

- صه!

وغطته بسترته، ثم مضت فترة سكون طويلة، قال بعدها موبران
بجهد:

- جان لقد ظننت أنني ذاهب إلى العالم الآخر.

وأضاف بابتسامة حيية، أحببتها جدًّا:

- هذه... العودة تدهشني بعض الشيء. إنني أظن... أنني عائد من

بعيد.

وجثت إلى جانب السرير، ووضعت ذراعها تحت رأس المريكز،
الذي كان يريح خده ويسنده إلى هذه الذراع البضة العارية. وانحنيت
وقبّلت جبينه، ولم تنطق بكلمة واحدة، وإنما أبقت فمها ملتصقًا في رقة
بذلك الجبين.

وعندما عاد الكاهن إلى الحجرة، سمعته يدخل، ولكنها لم تتحرك
مطلقًا. وصاح فيليب:

- جان!

انفصلت عنه، ورفعت رأسها، ودون أن تلتفت إلى الكاهن أخذت
تأمل السيد دي موبران. وظلت جاثية على ركبتيه، منحنية عليه برفق،
ناظرة إلى وجهه، كانت تنظر وهي صامته، هذا الرأس الجميل، رأس
النسر الجريح.

كان موبران قد أغمض عينيه. وجلس فيليب على مقعد متجهًا إلى
أبيه الذي كان تنفسه يرفع سترة الصيد القديمة.

وقالت جان أخيرًا بصوت منخفض دون أن تكف عن النظر إلى
موبران:

- أظن أنه ينعس الآن. ثم قبلت الراقد في جبينه وفمه وعينه برقة

وملاحظة جعلتا قلب فيليب ينبض. كانت تبدو كأنها تقوم بنوع من الطقوس الدينية القديمة.

وخيم سكون الصيف على الحجرة. ووضعت جان أذنها من جديد فوق صدر المريض، ولاحظت أن ضرباته أصبحت منتظمة، فنهضت. والتفتت للكاهن، وأهدت إليه ابتسامتها - نصف ابتسامة طفلة غامضة - ولم تقل شيئاً. ثم جلست بهدوء فوق مقعد بجانبه.

قال الكاهن:

- لقد استطعت أن ألحق بالطبيب، وسيكون هنا في خلال ربع ساعة.

- فيليب... إنك تسمح لي أن أناذك هكذا، أليس كذلك؟ ولن أستطيع أن أناذك بغير ذلك.

- بكل تأكيد، أسمح.

- فيليب، أظن أن الأمر خطير جدًّا، وأنا أعرف هذا.

ولاح القلق على وجه الكاهن العريض السريع التعبير:

- كيف هذا؟ أعترف أنني خفت كثيرًا، ولكنني أظن أن الأمر لا يتعدى اضطرابًا بسيطًا. إن أبي لم يعد شابًا مع ذلك. وفي مثل سنه اضطرابات الهضم تستطيع...

- كلا أوكد لك أنه شيء خطير للغاية.

- إذن، قل لي بالله عليك!

- ذبحة صدرية!

وتحدثت عن حالات عديدة للذبيحة عالجتها في المستشفى، وعن
زرقة اللون، واليد المتشبثة بجانب الصدر.

- إنه يلزم له فحص شامل بالطبع. وعلى أي حال لن يتم الطبيب
تشخيصه من دون فحص أشعة، ولكنني واثقة مما أقول، أسمعني؟
وطرق الباب. كان الطارق هو بول الذي أطل رأسه القلق من فتحة
الباب، ثم أعلن:

- السيد الطبيب جيار.

ودخل الطبيب. واقترب فيليب من رئيس الخدم لكي ينبئه بالأخبار.
- إن السيد المركز قد أُصيب بوعكة يا شيخ بول، ولكن ليس
هناك خطر، هيا! وكانت فيليسي وجيرمين قد ظهرتا الآن خلفهما، فقال
الكاهن مرة أخرى:

- إن الأمر ليس خطيرًا! ويجب أن تتركونا الآن.

ولكن بقي القلق على الوجوه الثلاثة، وعرف فيليب أن هؤلاء
الأشخاص لن يتعدوا مطلقًا عن الباب قبل أن يترك الحجرة.

والنفث ناحية جيرمين وفيليسي، ثم سأل:

- ولكن، يا للشيطان! مَنْ قال لكم أن تأتوا إلى هنا؟

وأجابت جيرمين، كما لو كان الجواب كافيًا وافيًا:

- لقد سمعت صوت سيارة.

- وأنت يا فيليسي؟

- إنها فكرة خطرت لي.

«فكرة» وأقفل الكاهن الباب من جديد عليهما وعلى بول الهرم الذي كان يهز رأسه أسفًا وحزنًا. وقال فيليب لنفسه: «على كل، فإن أشياء غريبة تحدث هنا».

واقترب من السرير. كان الدكتور جيار يلقي أسئلته على المريض. ولكن قبل أن يتم استجوابه، سأل الطبيب:

- هل يمكن للآنسة أن تتركنا لحظة؟

ومد موبران يده:

- نعم! جان يا صغيرتي، انصرفي.

وهزت رأسها:

- كلا، ما دمت أنا التي سأمرضك.

ثم التفتت إلى الطبيب:

- إنك تعلم أنني ممرضة يا دكتور.

وتنهى التركيز واستسلم:

- حسنًا حسنًا. فلتفعل ما تريد. إنها تفعل دائمًا ما تريد.

كان في صوته لمحة من الغضب، ولكنه إذ رفع إليها بصره، انبسطت أسارير وجهه. وعندئذ خرج الكاهن من الحجرة دون ما جلبة.

وعندما انتهى الفحص، بعث جيار بابتسامةقلبية إلى السيد دي موبران، قبل أن يقول له بلهجة مازحة:

- هو ذا: إنك تشكو من نقص صغير في الدورة الدموية في مستوى الشرايين التاجية! إن عضلة قلبك لا تغذي بما فيه الكفاية. وإن المسكينة تحتاج، وإنك لتعرف مثلي تركيب قلب الإنسان؟ إذن فبطينك الأيسر على غير ما يرام، ويجب عليه أن يقاوم حتى يتغلب.

كان المركيز يستمع بانتباه، ولاحظت جان -التي كانت ترقبه- البسمة الساخرة التي تراقصت لحظة فوق شفثيه.

- لقد وصفت لك بعض الأدوية، ومهدئات، وكل ما يلزم. ولكن أصغ إليّ يا صديقي العزيز: إن الذي تشكو منه ليس خطيراً إذا أخذت حذرك. إنني أحرم عليك الدخان قطعياً، وكذلك كوب الخمر الصغير. وعن صعود سلمك أربعاً أربعاً مثلما رأيتك تفعل مئات المرات. لا تنظر إليّ كما لو كنت تريد أن تأكلني. إن الذي أطلبه إليك ليس شيئاً كبيراً في جملته. وفيما بعد سنعمل لك رسماً كهربائياً صغيراً للقلب، أما الآن وقبل كل شيء فاسترخ، وعليك بالراحة. إن الجهد والانفعال هما عدواك.

وشكره المركيز وأغمض عينيه. وصاحبت جان الطبيب حتى الباب، ثم تعقبته. وعادت بعد عشر دقائق مبتسمة فرحة.

وانتصب موبران مستنداً إلى وسائده:

- لقد طالت الأحاديث الهامة يا جان!

وأجابته تلك ببراءة:

- كلا! لماذا تفكر في هذا؟ إنني أحب هذا الطبيب كثيراً، أتعرف أنك أثرت انفعالنا! والآن فقط اطمأننا جميعاً عليك.

وقال المركيز بمرح:

- جان، إنه لأمر سيئ جدًّا أن تكذبي.

وسأل والجدوة الساخرة تتراقص في عينيه السوداوين:

- معذرة إذا فرضت عليك معاونتي، فإنني أود لو تذهبين إلى المكتبة. ستجدين على رف الكتب الطبية التي أريتكِ إياها كتابين: معجم لاروس الطبي، وكتابًا قديمًا مؤلفه «أ.مارتينيه» وعنوانه «التشخيص الطبي» لو تكرمت، أحضريهما إليّ.

وأمسك بغليون فارغ، أخذ يمتصه وهو يتكلم:

- انظري! إنني لا أعلم شيئًا في هذه الأشياء، ولكن الكتابين اللذين نحن بصددهما يشتملان على بعض البيانات التي أستطيع أن أفهمها مهما كان الأمر. إن جيار يريد أن يلهيني عن نفسي وأن يخلبني برواياته عن عضلة القلب وخطبة عن الشرايين التاجية. أما أنا، فلي وجهة نظري.

وهزت جان رأسها، في رقة:

- لا، لا يجب ذلك.. استرح.

وهب موبران منتصبًا وهو يتكئ، فحلق فيها بقسوة، ثم صاح بصوت قوي:

- جان، الأجدر أن نبدد الآن الأخطاء والالتباسات الممكنة. إنني لا أريد أن أمرض! إنني أريد أن أترك وشأني! ليس بيني وبين ماتيلد هذه الحيزبون التي شفيتها أي شبه. وإذن فاستمعي إليّ جيدًا: سأدخل حتى أمل وسأشرب عشر كؤوس من الخمر في كل وجبة إذا طاب لي ذلك،

سأفعل بالضبط ما يروق لي، مثلما فعلت دائماً!

وسقطت رأس المريكيز من جديد فوق الوسائد:

ولنبداً بأن تحضري لي هذه الكتب. وإذا لم تذهبي، فأقسم لك أنني سأنهض وسأذهب إلى هناك! ومع ذلك فإنني حقيقة أشعر.. لنقل بالتعب. ولكني أريد هذين الكتابين، يا إلهي!

لم تجب، وانحنت عليه، وهي تمس صدغه بقبلة، ثم مضت بخطواتها الخفيفة.

كان الكتابان المطلوبان كبيرَي الحجم. وتصفحهما السيد دي موبران على مهل، وبهدوء:

لنرى، الذبحة الصدرية ها هي ذي.. عناصر التشخيص.. الشعور بتقلص صدري حاد، واعتصار للصدر وألم مصحوب بانقباضات، والإحساس بوخزات وتقلص، واختناق يمتد أحياناً حتى الذراع اليسرى في منطقة الزند... هذا واضح جداً، كل هذا! إنه مكتوب بلغة رديئة، إنني أكره ركافة الأطباء، ولكن على أي حال فالأمر واضح جداً: فلننظر، إن الذبحة ناتجة عن نقص في الدورة الدموية في منطقة الشرايين التاجية... قول لي يا جان! ألا تجدان أن كتابي مدهشان؟

كان يتكلم بصوت مرح، دون أي تكلف، وكانت عيناه تشعان سخرية ودية:

- يا لك من عالم يا جيار! إنه يسرف في استخدام الكلمات العلمية لماذا لا يقول ببساطة: القلب؟ أو عضلات القلب؟ إنني على يقين من

- أنكما متواطئان، وأرى أنكما تغرران بالزبون بعض الشيء.
- وجذبها إليه مستنداً خدها النضر إلى خده، ثم أبعداها إلى أقصى مدى ذراعه، واتخذ تعبيراً قاسياً:
- أكنت تعلمين أنها ذبحة صدرية؟
- نعم.
- وتركتني أجهل ذلك؟
- نعم.
- كنت أظن أنك تكرهين الكذب.
- وأجابت بوقار:
- إن الممرضة والطبيب يجب أن يكذبا، لو كنت أنت نفسك.
- وقاطعها المركز بحركة عنيفة:
- يجب على كل مخلوق ألا يكذب عليّ أنا.
- وأمسكت بيده، وقالت له وهي تنظر إليه دون أن تبسم:
- سأفعل كل ما تريد.
- وسألها موبران بنظراته وبنوع من الحمية:
- حقيقة؟
- ستدعينني وشأني بالنسبة لأدوية الراحة الإجبارية، وكل هذه الحماقات؟ وستقرين ما سأقوله الآن من أن الأمر لا يتعدى وعكة بسيطة؟
- أعدك بذلك.

- وستتركيني أتصرف في أموري الصحية كما يعنّ لي؟

- نعم.

وجذبها إليه من جديد وهمس في أذنها:

- لأنه إذا كنتِ تريدين أن تضايقيني بتلك الأشياء، فمهما كلفني الأمر سأجعلك ترحلين من موبران، أسمعيني؟ أقسم لك أنني سأطردك.

ثم سكت وقبّل شعرها، واختبأ وتاه في هذا الشعر الأشقر كالطفل في حقل القمح.



الفصل السابع عشر

وتناول السيد دي لوانتران قطعة من الجبن كبيرة الحجم، وكان من الواضح أنه يفكر في إخراج إحدى مناوراته التمثيلية التي وجد أن بدء الطعام هو خير فرصة لإعدادها، وقبل أن يهاجم ما فيها من عفن ملوكي رائع، أخرج من أحد جيوبه جريدة ضخمة ونشرها، ثم خلع نظارته وتفحص الصحاب بعين مأكرة:

- استمعوا أيها القوم الطيبون! أصغوا إلى ما قرأته في أول الشهر الماضي في إحدى جرائدنا اليومية الكبرى: «إن الفضائل التي وضعها هنري الرابع في خدمة فرنسا هي بعينها التي ما زالت تحتاج إليها فرنسا اليوم»، وبعد ذلك بقليل نجد: «أن أساس كل شيء في فرنسا كما كان يقول هنري الرابع، هو سلطة الأمير»، وفي الختام يا أبنائي إنهم يدعوننا إلى أن نعبر عن اعترافنا بالجميل «إلى الملك العظيم هنري الرابع، الذي سيكون لنا مثلاً يحتذى». هذا ما هنالك.

وسأله موبران:

- إذن هذا المقال يمجد الملكية ولكنه تقليدي، كان من الممكن أن تقرأ مثله في عدد من الأعداد القديمة لجريدة «الأكسيون فرانسيز».

وبدلاً من أن يجيبه السيد دي لوانتران، نشر الجريدة أمام الأنظار.
وعلى الصفحة الأولى. كانت هناك كلمتان مكتوبتان: «الجريدة
الرسمية» يعلوهما تاريخ: الجمعة ٣ يوليو ١٩٥٣.

وسأل التوأم في صوت واحد:

- ما هذا أيها العم ألفريد؟

وأجابهما السيد دي لوانتران:

«جريدة غريبة ليس بها صور»، ثم أضاف وهو يفرك يديه:

- نعم يا أبنائي! أما كاتب المقال فأظن أنكم قد عرفتموه الآن: إن
السيد فنسان أوريول رئيس الجمهورية. وهذا بعض ما جاء في خطابه
الأخير، لا أكثر ولا أقل.

وقال المركز:

- تبّاً!

وأعاد السيد دي لوانتران نظارته إلى عينيه، والتفت ناحية دوقه
بوتفيل:

- ألا تجددين يا عزيزتي كوريزاند أن هذه الجمهورية الليبرالية
رائعة، بحنينها هذا إلى الملوك؟

ووضعت الدوقة يديها على صدرها الفاخر، وأجابت بشيء من
الحماس:

- كلا يا ألفريد إن نوابك هم هم بعينهم وأنا أعرفهم، إنهم يقومون
بأعمالهم الفاحشة في هدوء، متوسلين ذلك لمحاولة تبرير إعدام لويس

السادس عشر!

كان الجواب غير متوقع. وتبادل السيد دي لوانتران نظرة قصيرة مع
عديله، ثم قال بصوت عذب:

- إن الأمر لا يتعلق بالنواب بالتحديد يا كوريزاند، ولكن برئيس
الجمهورية يجب أن تعترفي بأن...

وأجابت بلهجة قاطعة صاحبته حركة جميلة من لبها:

- إنه نفس الشيء!

كانت دوقة بوتفيل سيدة ذات سلوك وروح طريفيين، بيد أنه لا
يعوزها الاعتدال الهادئ، ولكنها كانت تطرحه جانباً عندما يكون الأمر
متعلقاً بالجمهورية والجمهوريين. ولكي تصف هؤلاء كانت تستعمل
مفردات قليلة لكن محدودة: «هذا النظام المخيف!» - «هذا الرئيس
المخيف!» - «هؤلاء النواب المخيفون!» «هذه الفضائح المخيفة!»،
نعم «يا أصدقائي التي تدل تمامًا على انهيارنا» وأحياناً كانت بعض
الصور الملونة من أسلوب شعبي منتقى، تجمل لغة الدوقة وترفع بها:
«وماريان (فرنسا) هذه المخيفة التي غمست غطاء رأسها في دم
أفضل الفرنسيين بالتأكيد».

والتهم السيد دي لوانتران آخر قضمات الجبن في سكون. إنه
لم يهتم كثيراً برد الفعل الذي أحدثته محاضرته، ولكنه شعر في نفس
الوقت أن الجو المحيط به غريب بعض الشيء.

كان الكاهن يبدو مشغولاً. وكان جونتران صامتاً متوتراً، تبدر منه

من وقت لآخر حركة عصبية لا يستطيع التحكم فيها. وكانت جان تبدو وكأنها تسبح في حلم، والتوأم اكتفيا بمراقبة الضيوف دون أن يقولوا كلمة. أما ديزي فلم تكن ترفع نظرها عن جان إلا لكي تحقق في والدها، وكان وجهها يكسوه تعبير ساخر مكرر، ومن وقت لآخر تمسح شفيتها بطرف لسانها السريع الحركة المدبب. والتركي نفسه كان مكتئبًا لا يكاد يتكلم.

إن السيد دي موبران فقط هو الذي كان يبدو في غاية السرور. ولقد أعلن في ابتداء الطعام أن وعكته الصباحية جاءت نتيجة لاضطراب في الهضم، إن عينيه ذابلتان وخديه في غاية الاصفرار، وآثار الإجهاد مرتسمة على ملامحه، ولكن نظرائه تتفجر بنوع غريب من الفرح المتهلل.

وبعد الغداء أحضر بول المشروبات والقهوة إلى قاعة الاستقبال، فشرّب السيد دي موبران كأسًا من النبيذ كما يقول «لكي يشارك الأولاد». وقدمته له جان بنفسها. ثم وجه المراكز الكلام إلى التوأم اللذين شغلا بلعب الورق في ركن من الأركان:

- أوزمون، لوي سيزار، إنكما ستصعدان معي في حجرتي

وقادهما وهو يدفعهما أمامه كقطيع صغير جموح، وظهرت على التوأم علامات القلق، وبدا أنهما في غاية الانفعال عندما أقفل أبوهما الباب عليهما.

وقال موبران:

- يا بني، لقد كدتما أن يقتل كل منكما الآخر... أليس كذلك؟

- نعم.

- ولماذا؟

- كنا نريد أن نتبارز!

ووضع أوزمون في هذه الجملة نغمة افتخار لا شك فيها، أما لوي سيزار فانتفخ إظهاراً لأهميته. وظلا واقفين يتبادلان الارتكاز على ساق وعلى أخرى، واسترخى السيد دي موبران في عظمة وراحة على كرسي وثير. ووجد التوأم أن روحه مرحة، كان قد أشعل غليونه الكبير وكانت رأس الجندي المغربي «موقد الغليون» تسخر في لحيتها التي اصطبغت باللون الأصهب.

- يجب أولاً أن أقول لكما شيئاً أنتما الاثنين: إن المبارزة في حد ذاتها مدعاة للسخرية، ولذا ليس هنالك ما يبرر الافتخار باختراعكما هذا! وبوجه عام فإنه لمن المضحك أن يذهب المرء إلى ساحة المبارزة، ويشهر سيفه أو بندقيته في وجه سيد حسب قواعد متفق عليها؛ لكي «يصلح» بذلك خطأ - باسم الشرف -، ومن جهة أخرى فإن كل رجل مارس الحرب سيقول لكما إن هذا أمر من الواجهة الفنية يدعو للرثاء غامض، ضد الطبيعة.

- ولكن يا أبي نحن كنا نختبي!

- بدليل أننا لم نخسر شيئاً!

كان السيد دي موبران يحك نعليه العتيقين الواحدة في الأخرى، فتخرج منهما جلبة غريبة تطرب لها أذنه، ثم قال في وقار:

- اتفقنا، إنكما كنتما تختبئان. إذن فمبارزتكما كانت أقل وحشية من مبارزات المجتمع الراقي.

وفجأة اشتد صوت المركيز، فتقوس تبعاً لذلك غريزياً ظهر التوأم:
- ولكن هذا هو كل ما أوافقكما عليه، يا إلهي!

وانقضت فترة سكون، ثم رفع أوزمون عينيه ليضفي على نفسه شيئاً من الهيبة. على الحائط، حلق بنظره في صورة للأم الورعة «أديلايد دي موبران» زميلة الأم «انجليك أرنو». وارتعد. كانت الراهبة العجوز تنظر إليه دون رحمة، وهي تزم شفيتها الدقيقتين، كأنما تحمله مسؤولية ثياب الرهبنة التي ترتديها. وقال الولد لنفسه وقد أزعجته هذه الفكرة: «إنها ليست مبهجة أبداً! إنها من نفس عجينة العمة ماتيلد».

وكان لوي سيزار منقاداً لفعل منعكس مماثل، ولكن توقف نظره على اللوحة الأخرى التي رسمها فيليب دي شامبيني، وهي صورة لقائد حرس الكاردينال كان يدير ناحيته وجهه النحيف المشوه ذا الشوارب الضخمة الذي تحيط به ياقة من الدنتلا.

- إن هذا كان يمكنه بسهولة أن يمحي أربعة عشر فارساً دون أن يناله لوم. وإنني لعلّى يقين أنه كان يُكافأ على كل رأس منها.

وسأل المركيز:

- بماذا تتمم يا لوي سيزار؟

- لا شيء يا أبي.

- لا تضطرنني إلى أن أعيد سؤالي؟

وقال الولد بمرارة:

- كنت أفكر في هذا العجوز الذي أمامي... لقد كان له حق في ذلك.

- حق في ماذا؟

- أن يقاتل... عندما كان يتضايق مثلاً.

- هيا! لا تقولوا لي إنكما متضايقان هنا؟

وتبادل التوأم نظرة قصيرة، ثم انطلقا معاً في عرض صاحب لمضايقتهما وضجرهما وخيبة أملهما:

- لا أحد يأتي لرؤيتنا! ليس لدينا إلا الغربان نصطادها! لا نستطيع أن ندير مذياع العرب! وهذا التركي الفظ الذي لم يصحبنا ولو مرة واحدة في جولة! الحق يقال، إنه مشغول في جهة أخرى مع الآنسة روماران دي لا قيرفين دي سيربولىه - دي ماشان - شريت! في هذا الوقت الذي لا نذهب نحن فيه البتة إلى ديجون، وليس لدينا الحق في أن نصطاد في البحيرة، ونحن بالكاد غير ملزمين بخدمة قداس الكاهن!

وشعر السيد دي مويران أنهما يتخبطان بعض الشيء، ولكنه كان سعيداً في أعماق نفسه؛ لأنه لم يتوصل إلى أن يقوم جدّاً بمهمة القاضي، كانت الشفقة تفيض من قلبه فيضاً، وقال:

- وأنا؟ أأست في الحساب؟

وصاح الولدان معاً:

- بلى يا أبى؛ ولكن...

- ولكن ماذا؟

وسكتا. وفجأة بدأ أنهما محرجان وجلان، خجلان تقريباً. وكرر السيد دي موبران السؤال، وقد أشرق وجهه بابتسامة حاول عبثاً إخفائها:

- ولكن ماذا؟

ونظر التوأم كل منهما للآخر، وتشبث أوزمون بجرائته، وأعلن بسرعة كبيرة:

- وأنت أيضاً مشغول في جهة أخرى!

وفي هذه المرة انتبضت أسارير المريكز، وأخذ يزن ببطء كل كلمة ملتزماً الهدوء، ثم سألهما بصوت يتكلف التؤدة.

- ماذا يعني «مشغول في جهة أخرى»؟

صمت جديد، وقر قرار لوي سيزار على الكلام أولاً، بالرغم من كونه أكثر وجلاً من أوزمون؛ لأن الأسباب التي دفعته إلى ذلك كانت أسباباً عاطفية:

- أنت وجان يا أبى.

واحمر وجه المريكز المشوب بالسمرة، لقد فوجئ بفطنة التوأم لدرجة أفقدته السيطرة على نفسه. وبعد سكون قصير تجمعت فيه العاصفة، انفجر صوته في الحجرة قائلاً:

- هل لكما أن تتركا هذا المكان، أيها القذران الصغيران!
ونهض، وعندما التفت غريزياً صوب موضع من الحائط تعلق فيه
الأسواط والسيور، فر لوي سيزار وأوزمون هارين.

ومر السيد دي موبران بيده على جبينه، وتساقط على مقعده، ثم
حشا غليونه ووضعه إلى جانبه دون أن يشعله. ثم قال بصوت خفيض:

- يا إلهي، ما الذي دهاني؟

واضطر إلى التدخين، فهدأته رائحة الطباقي، وأخذ يتأمل الخيالات
الزرقاء تتصاعد إلى السقف العابس:

«ما الذي دهاني؟ لقد فقدت حقيقة رباطة جأشي، هل أصبحت
شيخاً يهرف أم ماذا؟ لا بد أن التوأم لا يدركان شيئاً عن هذا.. لقد
جعلتهما يقسمان ألا يقولان كل شيء يجب أن أبرئ ضميري وأعترف
أن لديهما جرأة لعينة «أنت وجان يا أبي..». المهم أنني أريد أن أعرف
كيف استطاع هذان العديما التجربة.. إن عواطفنا ليست منشورة على
الحائط.

وأخذ يهدأ تدريجياً، ثم ابتسم لرؤية داخلية:

«إن جان مع ذلك كاملة، رزينة، فاضلة. ولكن لماذا لم تنجل لي
هذه النعمة إلا متأخراً جداً؟».

وطاب لموبران أن يمكث في حجرته بعد أن تغلب على الرغبة
الجامحة في أن يلحق بجان في قاعة الاستقبال وأن يصطحبها إلى
نزهة.

ومد ساقيه وابتسم مرة أخرى، لم تكن صورة جان لتتركه مطلقاً. ثم أرجأ إلى ما بعد المعركة الحقيقية، ألا وهي اختيار القرار الذي يتخذه. وتغير اتجاه ذهنه في تكاسل، كان يفكر في الأسئلة التي سألته جان إياها مرتين أو ثلاث مرات عن النبالة ووثائقها وتقاليده السلالات العريقة وعن المثل الأعلى للأرستقراطية.

«إن جان صعبة الإرضاء، ولذا سوف يكون من الواجب عليّ أن أتكلم معها عن أحوالنا، ما دامت توجع رأسي بذلك. ولكن لن أعرف... وجات أفكاره حول الفتاة الشابة في كبرياء: «إنها لي». واستحضر في مخيلته مارينت دي لافال - وترك نفسه ينقاد لمقارنات جنسية، ثم تصور ماذا سيكون بالنسبة له امتلاك جان: «إنها لي».

ثم خجل... لو أنه لم يكن يفهم سبباً لتشدد الدين فيما يتعلق بخطيئة الجسد، فقد أرغم أحلامه على أن تتخذ مجرى آخر، وطرد الشهوة التي كانت قد اجتاحتها، بينما أخذ يسخر من نفسه في رفق: «إن ضميرك يؤنبك ويخزك؟ هي ذي أشياء جديدة أيها الرجل الطيب. إنك تكتهل».

وحشا بتلذذ غليونته للمرة الثانية.

أتمنى أن تتركني وشأني كما وعدت. لا ممرضة معي. أجل، إنني أستطيع العيش خمسة عشر عاماً بالذبحة الصدرية، وسأحاول ألا أفزع كثيراً من تلك اليد اللعينة التي تأتي لتمسك بقلبي من وقت لآخر مداعبة

إياه، كما لو كانت قطعاً يلعب بكرة، إنني أعلم جيداً أنني سأخاف منها. ومجمل القول أنني فزع منها فزعاً أزرق، ولكن لن يفتن لذلك أحد... حينئذ؟ خمسة عشر عاماً من الحذر.. لا جياذ، ولا طباق، ولا خمر، ولا تمرينات رياضية؟ لم لا يكون الزهد بأكمله ما دام الأمر هكذا؟».

وضحك فهزت ضحكاته العالية أرجاء الحجرة.

«إنها ملك لي... لي وحدي. بنت سبعة وعشرين عاماً».

ثم أثناء تقلبيه لأفكاره في بطنه لكن في غير هواة، أفلتت منه تلك وأتت لتقف أمام ذكرى زوجته «آن».

وفجأة أدرك أنه قد نطق بهذا الاسم المحبب إليه بصوت مرتفع.

«بكل تأكيد يا آن، بكل تأكيد. إنك هنا. سيظل البيت ملكاً لك. وسأظل أنا كذلك».. وغشيه شعور عميق رقيق هادئ لم يعرفه من قبل، واستمر في تأملاته الانفرادية التي كان من وقت لآخر يشفعها بسعاله المدوي.

«لست أدري ماذا أقول لجان عن أحوالنا، إنها ستضعني حينئذ أمام مسائل حرجة. إن أبسط شيء هو أن أتجنب هذه المسائل، نعم ولكن ليس هذا مما يتيسر مع جان، النبالة النبالة، نحن لا نفكر فيها مطلقاً. وإنما يفكر فيها الآخرون».

وهز رأسه، وأراد وهو يفكر في جان «فيها وحدها، وللمرة الأولى في حياته، أن يدرك أغوار المعنى العميق لماهيته، لما كان لاسمه ولوضعه في أعين الآخرين، ولم يجد ما يستطيع أن يطرب له، فدهش لذلك. ثم قال وهو يغمغم «إننا لا نأخذ الوقت الكافي لتفكيرنا»، ثم

تنهد بعد أن تعب من الصراع، وتناول من فوق منضدته مجلدًا لسان سيمون؛ وجد فيه صدفة عبارة مرة وجميلة قرأها على أمل أن تنوره...

هؤلاء النبلاء الفرنسيون البالغو الغاية في الشهرة والعظمة أصبحوا الآن شعبًا بالتقريب من جنس الشعب نفسه، ولكنهم يمتازون عنه فقط بأن الشعب له الحرية في كل عمل؛ في كل تجارة، وحتى في السلاح. في الوقت الذي أصبحت فيه النبالة شعبًا لا خيار له سوى الأنتان في بطالة مميتة مدمرة تجعله عالة ومحتقرًا، أو أن يذهب إلى الحرب ليُقتل وسط إهانات كتبة وزراء الدولة، وسكرتيري صاحب المال.

وتثاءب المركيز، وألقى الكتاب فوق السرير.

- ليس لي في هذا شيء! لا شيء مطلقًا. إن النبالة الفرنسية اليوم تساوي عشر مرات نبالة لويس الرابع عشر! لقد تقدمنا.

ودق جرس، ونظر في ساعته.

- هل قد حان موعد وجبة العصر؟

وقرر ألا ينزل وأن يستريح حتى العشاء. ولكنه كشف الستار عن حوافزه الخفية إلى ذلك. «إنني أحاول أن أهرب من صحبتهم، تلك هي الحقيقة. كيف سيتصرفون جميعًا؟ وديزي؟ وبقينا إذا كان التوأم قد فهما».

وبدت على وجهه الصرامة.

«إن الأمر سيحتاج إذن إلى أن أحذر أولادي».

الفصل الثامن عشر

- جان!

وانتفضت جان. لقد كانت عائدة من نزهة طويلة في المتنزه وهي غارقة في المساء وأحلامه، وعند منعطف أحد الممرات استوقفها جونتران. كان يرتدي حلة الصيد القديمة، ويمسك بيده منجلاً، وقال لها بلا ابتسام:

- لقد كنت أبحث عنك.

- إنني لم أكن بعيدة لهذا الحد يا جونتران، فلقد سمعت جرس العشاء يدق لتوه الآن.

وأعاد عليها في إصرار وهو يقترب منها نفس الجملة:

- لقد كنت أبحث عنك!

واشتمت جان رائحة خمر تنبعث منه، فتقهقرت قليلاً إلى الوراء:

- جونتران... لقد شربت.

- أنا شربتُ؟

وانفجر ضاحكًا:

- بالتأكيد لقد شربتُ؟ ولكن دون أن أفقد وعيي لا بد من كميات أكبر من هذا! وأنت ألا تريدان أن تعرفي لماذا شربتُ؟ ألا تريدان أن تعرفي ماذا رأى التوأم هذا الصباح؟ عندما شعر أبي بوعكة، وذهب الكاهن ليستدعي الطبيب لم يجرؤ التوأم على الدخول، فاسترق الصغيران السمع، هل تفهمين؟ لم يكن ذلك فضولاً منهما ولكنهما كانا يريدان ببساطة أن يعرفا طرفاً مما يجري. ضعي نفسك مكانهما، أليس كذلك يا جان؟ لقد فتحا الباب قليلاً فرأيك وأنت منحنية على السرير تقبلين أبي، وأحدث هذا المنظر لديهما أثراً غريباً، فهربا كما لو كانا قد أبصرا الشيطان!

وضحك ثانية وهو يطرق بمنجله على جلد سروال الصيد الذي يلبسه:

- وأنتِ ترين جيداً أنهما لا يستطيعان أن يحتفظا بذلك طي الكتمان: فالكل عالم بمجرى الحوادث.

وكانت جان تحديق في عينيه، وهي خائفة، ولكنها كانت لا تريد أن يفتن لذلك. إنها لم تكن تحب تعبيره الشرس ولا ضحكته، ولا العرق الذي يلصق بعض خصلات شعره الأسود فوق جبينه، ولا هذا النفس المشبع برائحة الخمر.

- هذا كل ما هنالك يا صغیرتي جان، انظري إليّ جيداً! إنك لن تنظري إليّ بما فيه الكفاية أبداً... هل يمكن الآن أن تكرمي وتقولي لي، هل كذب التوأم؟

وأجابت دون أن ترفع صوتها:

- إنك ليس لك أي سلطان عليّ، وإنك تتصرف كالمتهوس، ولكن ليس لدي ما أكتمه... نعم، لقد أظهرت هذا الصباح لوالدك أنني أحبه؛ لأنني خشيت أن أفقده. لقد اضطررتني لأن أقول ذلك.

- اضطرتك؟

ومر بيده على جبينه، ثم أخذ فجأة يصيح وسط ظلال غصون الشجر الخضراء المذهبة التي يستحب الكلام بينها بصوت خفيض مثلما يتكلم الناس في بيوت الله.

- أنظنين أيتها الشريرة الصغيرة...

ثم توقف عن الكلام فجأة، وزاد في الاقتراب منها، وبغته تكلم بصوت مصطنع اللين مليء بالتهديد:

- ولكن، كلا. لم يحدث قط شيء بيننا، طبعاً! إن الابن ليس هو الذي يحب - إنه الأب! خطأ بسيط صغير ليست له أهمية ما دمنا مقيمين وسط العائلة... وإذا كان جونتران غير راض، فيجب أن نقر بأنه حقيقة شخص صعب المراس.

وأمسك بذراع جان، وصاح فيها:

- أجييني إذن!

وصمتت جان. لقد كانت تتلقى في وجهها تمامًا أنفاسه المشبعة بالخمير وتغير تعبير ملامح الشاب القلقة.

- أبي! هذا رائع! ما الذي سرقه مني أبي هكذا؟ وإنما أنت في سن

ابنته يا إلهي! انظري إليّ - نعم هكذا... هل من الممكن أن أعرف الآن
ما مشروعاتك؟

وامتعض امتعاضة ساخرة:

- مشروعاتك فيما يختص بالزواج؟

- عد إلى رشدك، يا جونتران أنك تبدو كالمجنون!

- أجيبي، يا إلهي!

- ليس لدي مشروعات شخصية، لا مشروعات مطلقاً سوى التي
يريدها والدك، بالتحديد ما يمكن أن يجعله سعيداً.

ورفع ذراعه الذي كان يمسك به المنجل. كانت عيناه زائغتين، ولم
تتقهقر جان حتى قيد إصبع، ولكنها غطت رأسها بيديها غريزياً، وبكل
ما لديه من قوة ضرب جونتران ساق إحدى شجرات البلوط، على مقربة
منها.

وفي خلال السكون الذي تبع ذلك، شعر الفتى ببعض الغثيان،
فاستند إلى شجرة، وأخذت جان تتفحصه وهي شديدة الشحوب دون
أن تنطق بكلمة.

كان قد ترك المنجل، الذي ظل مغروساً في خشب جذع الشجرة
العتيق حتى ثلثي نصله! وأمسك به في نهاية الأمر جونتران، ولما لم
يستطع في بادئ الأمر أن ينتزعه من الساق، لم يصدق عينيه ولا يديه،
وأخذ يتكلم بعد أن أفاق من فعل الشراب كما يتكلم الحطابون:

- يا للعجب!... ألا أستطيع أن أنتزعها أنا، هذه الأداة!

ثم قال كذلك وكأنه يحلم:

- لست أدري ماذا فعلت.. لست أدري...

وانتزع المنجل بعد أن حركه عدة مرات في الخشب، ثم أدار ظهره إلى جان، وانطلق نحو القصر بخطوات واسعة متحيرة.

* * *

وبدأ العشاء في سكون مثلوج، لم يكن يُسمع خلاله مطلقاً سوى صليل الشوك، إلى أن التفتت ديزي إلى جان، وسألتها بصوت خادع معسول:

- قولي لي يا صغیرتي، ألدیک مشروعات هذا الصيف؟

ولم تجب جان ديبيره على الفور، واكتفت بأن نظرت للسيد دي موبران، ثم أعلنت في براءة:

- ليس لديّ مشروعات يا ديزي.

كان السيد دي موبران صامتاً، ولم يرفع جونتران نظره عن المركز. وسعلت مدام دي لوانتران في لباقة، وهمس «الدمية المشنوقة»:

- وملائكة تمر!

ولكن ديزي قبضت من جديد على ناصية الحديث.

- في الحقيقة لست أعرف متى ستعودين إلى باريس؟

وأجابت جان برزانة:

- أنا نفسي لا أعرف عن ذلك شيئاً.

وعاد السكون.

كانت جان تراقب أبناء السيد دي موبران، فلم تتلقَ إلا وجوهاً عنيّدة، ونظرات حاقدة أو متهرّبة، كان التركي غائباً، أما الكاهن فكان ينظر بعينه طوال الوقت إلى صحنه.

وقال المريكز بلهجة ودية جدّاً وطبيعية:

- حسنّاً، ولكنني أتعشم أن تبقي معنا أكبر وقت ممكن يا صغيرتي جان!

- لأي مدى تريد؟

فأخذ المريكز في الضحك:

- في هذه الحالة تكونين غير قريبة السفر!

والتفت في حيوية إلى ابنته:

- ولن نستطيع أن نوفي ديزي حقها من الشكر على أنها جاءت بكِ إلى هنا!

* * *

كان التوأم قد أطفأ لتوهما نور حجرتهما. فقد كانت الساعة الحادية عشرة مساءً، وكان ليل شهر أغسطس الحار يتوج القصر بغطاء من النجوم... ومن خلال النافذة المفتوحة كان نقيق الضفادع الجماعي يتصاعد من القنوات.

وسأل أوزمون في الظلام:

- ماذا سيفعلان؟
- أنت أيضًا تفكر في ذلك؟
- إنني لا أفكر إلا في ذلك؟ إنهما مهما كان لن...
- اصمت... لا تقل هذا، إنك تتكلم عن أبيك!
- نعم.
- أوزمون!
- نعم؟
- إن أبي لن يفعل أشياء مخلة؟ هذا لا يمكن.
- كلا إنه لا يمكنني أن أتصور ذلك.
- إذن ماذا سيفعلان؟
- واستند أوزمون على أحد مرفقيه، وسأل وقد اشتد صوته:
- ماذا تظن أنهما (يستطيعان) أن يفعلوا؟
- ولم يجب لوي سيزار:
- هل لاحظت أثناء العشاء كيف كانت جان ترمقه؟ بعد الذي رأيناه هذا الصباح.
- اصمت!
- ولكن أوزمون لم يكن يريد السكوت:
- عندما صعدنا للنوم، ذهبنا للتنزه في الحديقة. ولقد رأيتهما من نافذة المراحض. بل ولم يحاول الآخرون الذهاب معهما!

وبقي الغلام صامتاً لحظة، ثم استطرد بصوت حالم:
- في الحقيقة لم أكن أتصور أن أبي هو الذي أغرم بها.
وبعد صمت طويل سأل بصوت مرتجف:
- هل تظن أن أبي سيتزوجها؟

وصاح لوي سيزار صيحة مزقت سكون الليل، وأخرست الضفادع
أسفل قلعة برنهو، ثم سمعه أخوه يبكي.

* * *

وقرب منتصف الليل عاد التركي، وتحت عجلات عربته «البويك»
كانت رمال ساحة الشرف تهدر وتتطاير.

وصعد السلم وهو يصفر بفمه. وعند منعطف الدهليز الرديء
الإضاءة، الذي يخترق القصر من أقصاه، إلى أقصاه قابل ديزي، كانت
تسير حافية القدمين مرتدية قميص نومها.

لم يستطع أرتوس أن يخفي امتعاضه بعض الشيء من المفاجأة،
وتفحص هذا الشبح الصغير في سكون بنظرة قاسية:

- أنت، ماذا تفعلين هناك؟

- صه! كنت أبحث عنك.

- لماذا؟

- لدي أشياء أريد أن أقولها لك... ليس هنا. في حجرتك. وسأبدأ

في سردها وأنت مستلق على سريرك؟

وتنهذ التركي:

- هيا!

ودخلت حجرة أخيها، فأجالت فيها نظرة غير رحيمة، كانت تلوح عليها فوضى العزاب: حقائب من الجلد تتشاءب كالبطون المفتوحة، تاركة خارجها أحشاءها المترفة من جوارب وصديريات صوفية وأربطة عنق مبرومة هنا وهناك، وأعمدة صغيرة من الخرطوش منتصبة فوق المنضدة وعدة كاملة لصيد الحيوانات وأخرى لصيد الأسماك.

وعلى الأرض كومتان أو ثلاث كومات من الكتب الحسنة التجليد. وتمتت ديزي:

- كم هي نظيفة!

ثم قال التركي مسرعاً:

- اجلسي. هاك الويسكي. ولكن بالله عليك لا تنظمي شيئاً!

- أستطيع على الأقل أن أفرغ حقائبك أثناء خلحك لملابسك.

- كلا يا صغيرتي كلا.

ثم قدم إليها كأساً ملأ من الويسكي لكي يرغمها على أن تبقى ساكنة، ثم أضاف:

- إن رجلاً كان يعرفكن جيداً قال: أيها النساء إنكن ستنظمن حتى شؤون الله.

- أرتوس، هل تعلم أن كل شيء هنا لا يسير على ما يرام؟

- يقينًا.

واتجه التركي ونصفه الأعلى عار إلى الحمام تاركًا الباب مفتوحًا،
وسمعه ديزي يغتسل بشدة:

- كل شيء يسير سيرًا رديئًا، أتعرف أن أبي يكتهل وإدوار غير
مطابق، ويزداد في ذلك يومًا عن يوم، والعمتان يبدو أنهما قد تسمرتا
هنا، أما جونتران فخلقه أصبح كخلق الكلاب الشرسة، وهذا يجعل
الجو حوالينا غريبًا بعض الشيء، ألا ترى معي هذا؟ هذا فضلًا عن
التوأم اللذين لا يعرفان الآن ماذا يتدعان... أرتوس، هل أستطيع أخذ
حبة من الطماطم؟

- نعم!

فقد كانت هناك أنواع مختلفة من الفاكهة والخضروات مرصوفة
فوق رف من عدة طوابق في أعلى السرير.

- أرتوس، هل تنصت إليّ؟ لنعد إلى أبي، لقد أصيب لتوه بمرض
عضال، إن الطبيب لم يرد أن يخبرني بشيء! وقال لي أبي بلهجة تشوبها
بعض الاستهانة، إن الأمر ليس خطيرًا. ولكن أخشى ما أخشاه أن يكون
أبي قد كذب عليّ.

كان التركي حين ذاك ينام في سريره الواسع ذي الروق في رفاة
متكئًا على الوسائد، لقد أمضى في الهواء الطلق بصحبة «فيغان
روماران» أمسية لذيدة صاخبة، وكانت خواطر ديزي تبدو له مبنية على
أسس سليمة، ولكنه لم يكن على استعداد لأن يسايرها في تشاؤمها

وهمومها. ومد ذراعه إلى شقيقته في تكاسل لذيذ:

- خذي ناوليني قليلاً من الويسكي.

وانتهزت ديزي هذه الفرصة لتجلس على حافة السرير، لقد كانت شاحبة ضئيلة الجسم، ذابلة العينين، مشدودة الملامح وكانت نظراتها ترسل بريقاً محمومًا غريبًا.

- أرتوس، إنني أحب أن أقول لك الأشياء بصراحة... هل تعرف أن جان على علم بكل ما يتصل بصحة أبي؟ إنها تمرضه كما لو كانت.. المهم لقد بقيت هذا الصباح طوال الوقت بجانبه أثناء فحص الطبيب إياه! ألا تجد أن هذا الأمر غير مستساغ؟ ونهض التركي متكئاً على مرفقه:

- ما هذا الذي تحكين؟

وقصت له ديزي وهي تقضم حبة الطماطم ملوثة خديها بعصيرها الأحمر كل التفاصيل التي تعرفها، واختلقت أخرى، ولكي تخلص روت له رواية فيها شيء طفيف من المبالغة عما رآه التوأم. وتمتم التركي قائلاً وقد بدت على وجهه الصرامة:

- هذا إذن...

وأمسك بذقن شقيقته، مجبراً إياها أن تحقق في وجهه:

- قولي لي ما رأيك بالتحديد في زميلتك جان ديرييه؟

وكانت ديزي قد أعدت جوابها، ولكنها تظاهرت بالتفكير:

- أنا؟ إنه من الصعوبة بمكان أن أقول في كلمتين... إنه بالرغم

من مظهر جان البريء إلا أنها غامضة بعض الشيء، أتعرف؟ إنني لا أريد...

- ما الذي لا تريدينه يا ديزي؟

- إنني لا أريد أن أكون ظالمة، ولكن جان أحيانًا تخيفني.

- ماذا؟ هذه الفتاة الوديدة جدًا؟

- إنني لا أثق في وداعة جان. في الحقيقة إنها واحدة من أقوى الشخصيات التي قابلتها في حياتي. ألا ترى أنها ستجعلنا جميعًا نمر من ثقب إبرة؟

- يقينًا لا.

- لقد لعبت جان لعبة هنا، لعبة خفية يا أرتوس، أفهم، لعبة تحتاج إلى صبر وعلم. لقد بدأت بأن راقبتنا، بأن رأت كيف نحيا، وبالتدريج وفي خلال شهر واحد بالكاد، كانت قد انغمست بيننا وامتزجت بنا. وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها ذلك! لقد تركتنا منذ سبع سنوات ولكنك تعلم أن أحدا لم يستطع مطلقًا أن يقتحم جماعتنا الماسونية الصغيرة، يوجد بالطبع من حاول ذلك، ولكن جان هي الأولى التي...

وقال التركي:

- وإذن؟

- وإذن، ولكي أنتهي، فحكايتها تلك مع أبي...

- بصراحة، إنني لا أرى خطورة عظيمة في ذلك.

- بالتأكيد لن يكون هناك شيء من الخطورة لو لم تكن جان بمثل

ما هي عليه.

- أتعنين؟

- خطرة.

وقربت ديزي وجهها من وجه أرتوس، فرأى عن قرب عينيها السوداوين اللامعتين بالشرر.

- نعم... إن جان لخطرة. إن فيها قوة مسيطرة، قوة المغناطيسية، وفي نفس الوقت هي صبور، إن المرأة هي التي تستطيع إدراك هذه الأشياء. هل تدري أنني أتألم من محادثتك في هذا الأمر؛ لأنني أنا التي أتيت بجان، إنك كنت تذكرني بذلك لتوك. إنني أنا المسؤولة. إن جان قد عملت حسابها. آه لو عرفت، كم هي ذكية وكيف تلعب دورها باتقان! إنها رمت حبالها أولاً على جونتران الذي أصبح مجنوناً بها.

- هل أنت واثقة من أنك لا تبالغين قليلاً!

وأجابت على الفور ديزي بلهجة جعلت التركي يتأثر:

- سل عن ذلك أنت بنفسك جونتران!

وداعبت بيدها الصغيرة وجهه:

- يا صديقي المسكين، إنك لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً. إن الرجال ما زالوا بلهاء!.. ولكن أنت.. ثم، إن الله وحده يعرف لماذا قررت جان ذات يوم أن تصد جونتران، لقد قالت لنفسها: أنها مع أبي ستكون أكثر أمناً وأكثر مناعة. وعلى هذا الأساس غيرت وجهتها، والآن..

- والآن تعلق بها أبي؟

- نعم! الحقيقة أن أبي مغرم بها إلى حد الجنون! وليس عليك إلا أن تسأل الآخرين، وهذا واضح، كالشمس في وسط النهار.

وقبض التركي بيده على كتفي شقيقته:

«هيا، أفرغي ما بجعبتك. ما دمت قد بلغت هذا الحد! إنك ترتابين في أن جان»، وصمت وتركها تكمل:

- تريد أن تلقب بمركيزة دي موبران؟ نعم يا أرتوس، مع هذا الفارق، وهو أنني لست أرتاب فقط، بل إنني واثقة.

- هل جان لديها ثروة؟

- ولا فلس! إن والديها من أصحاب الفنادق الذين لا يملكون شيئاً. تخيل أنت ماذا سيكون ذلك بالنسبة لها!

- إنني لمتخيل!

وتخلصت ديزي بلطف:

- إن غلطتها الوحيدة أنها أبدت همة. أترى، إنها بالغت قليلاً في العناية بالعمة ماتيلد. لماذا كرست نفسها قلباً وقالباً لخدمة هذه العجوز البغيضة التي لم تكن تعرفها؟ وكذلك أظهرت مزيداً من العناء الملحوظ في تنسيق باقات الزهر والمنزل، وبالغت بالتحديد أكثر مما يجب قليلاً في تملق أهواء أبي.

- لعلها تخلص له الحب، رغم هذا كله.

واكتسى صوت ديزي بنغمة حزينة:

- كلا يا أرتوس، منذ خمسة عشر يوماً فقط كانت تسمح لجونتران

أن يقبلها عند البحيرة الكبيرة... لقد رأيتها!

- لست أمزح. لا تمزحي!

- أقسم لك على ذلك! والآن سترمي شباكها حول أبي، وتزوجه وهي تصغره بثلاثين عامًا، وربما جعلته أضحوة بين الناس.. وعلى أي حال فستتتهز فرصة مرضه لتستعبده! سترى... ولكنني لن أستطيع أن أطيق ذلك!

وانتصب التركي، مستندًا إلى وسادته وهو يفكر لكي يشعل سيجارة دون أن يلحظ نظرة شقيقته القلقة التي ترمقه. وتنهد:

- يا صغيرتي ديزي، إنك تحاولين أن تستحوذي عليّ. يوجد بالتأكيد شيء من الحقيقة فيما تقولين لي، ولكنك تغالين.. وإذا كان الأمر كما فهمت، فكل شيء يجب أن يحسب على جان بما في ذلك إخلاصها للخالة ماتيلد، بما في ذلك جمالها، بما في ذلك أسلوبها الفريد في الدنيا في تنسيق باقات الزهر... إنني لا أستطيع أن أصدق ذلك بسذاجة.

وسكت لحظة، ثم أنهى حديثه قائلاً بصوت شديد:

- إنك غيري!... وهذا كل ما هنالك.

وكم كانت دهشة التركي عندما نكست شقيقته رأسها قائلة:

- نعم، إنني غيري.

ومرت ابتسامة على وجه أرتوس العريض:

- أتعرفين بذلك؟

- نعم، نعم، إنني غيرى من جان! ولكنني خائفة حقيقة منها على أبي... وعلى موبران، وعلىنا جميعاً... أرتوس أأتخيل جان وهي ربة الدار هنا؟ أأتخيلها وقد أصبحت «المركيزة دي موبران» تنهض بكل ما ينطوي عليه هذا الاسم من تبعات - بالنسبة للمزارعين وأهالي البلد والعائلة؟ وأنا، ماذا سأفعل، إنها ستجر أبي تماماً من خطامه، فتاة في السابعة والعشرين بغير اسم أو ثروة أو تقاليد عائلية، ومن دون خبرة بوسطنا ولا بأمور الريف، ومن دون أي شيء.. تلك هي التي ستجيء لتشغل مكان أُمي؟

واختنق صوت ديزي بالعبارات عند إلقاء الكلمات الأخيرة. كانت قد بدأت شكواها بمضاء، وبلهجة صادقة حركت مشاعر التركي، ولكنه لم يظهر ذلك، وتمدد فوق السرير في تلذذ وترف، وأجاب بصوته الهادئ:

- اذهبي أنتِ الآن يا ديزي. إن في نفسك من بلبلة ما يجعلني في حاجة إلى التفكير بعض الشيء.



الفصل التاسع عشر

دخلت ديزي في الصباح الباكر حجرة التوأم دون أن تطرق الباب. كانا يغتسلان وهما عاريان تمامًا، ويتبادلان الرش بالماء البارد. وكانت أرض الحجرة مبتلة.

إن الفوضى الضاربة أطنابها التي تسود الحجرة لم تكن بينها وبين ترف حجرة التركي المشوب بالاستهانة أي نسبة. وكان من المظنون أن التوأم يقومان بتنظيمها وتنظيم سريريها لدرجة أن بقيت الحجرة دون تنظيف أو ترتيب مطلقاً. وفي كل ركن من أركانها كانت توجد أكوام من مختلف الأشياء، وكانت الكتب تختلط بالملابس، وبقطع الحديد الصغيرة، وبصناديق من الخشب أو الكرتون غير المستعملة، وبلفافات من الخيط.

وأعلنت ديزي التي كانت تمعن النظر في هذه الأكوام المتراسة بعين صارمة:

- إنني جئتُ لأقوم بالتفتيش عليكما!

- قومي، أيتها العجوز قومي!
- نعم بالتأكيد. وسأرفع تقريري إلى أبي، فهو الذي كلفني أن أراقب حالة حجرتكما. حالة حظيرة الخنازير التي تعيشان داخلها.
- حسنًا، ولكن لا تخلطي في الأمور...
- وأدار أوزمون الذي كان يجفف جسده بشدة رأسه الأشقر الأشعث:
- قبل كل شيء كان يجب أن تطرقي الباب قبل أن تدخل!
- وأمن أوزمون على كلامه قائلاً:
- حقيقة لقد كنا عاريين تمامًا!
- لم يشعرًا بحرج، ولكنهما كانا سعيدين بإعطاء شقيقتهم درسًا قصيرًا. ولم تحاول هي أن تغضب من ذلك.
- إنني سأقوم بتنظيفها تمامًا، وهذا سيأخذ مني ساعة على الأقل.
- ثم عقدت ذراعيها فوق صدرها، وقالت:
- إنني أظن أنني لم أر في حياتي أقدر من ذلك!
- هذا يدل على أنك لم تري شيئًا يذكر.
- فأخذت ديزي تباشر ترتيب الحجرة، وشقيقها ينظران إليها في سخرية وهي تعمل. ثم قال أوزمون:
- يجب أن تعمل الأنسات، هذا من مكارم الأخلاق.
- وخاضت ديزي في الحديث وهي ترتب الحجرة:
- هل الذي رويتماه عن أبي وجان بالأمس كان حقيقياً؟

وبصق لوي سيزار على الأرض بعظمة:

- أستطيع أن أقسم لك على ذلك.

- حسنًا... الآن أود أن أسألكما سؤالاً مهمًا: ما رأيكما أنتما الاثنان

في هذه الحكاية، إنكما على درجة من النضج تسمح لكما بالإجابة، وفي الوقت نفسه فلديكما الحق في أن تتكلما في هذا.

كان ذلك باختصار، وبمهارة كبرى وتشاور أوزمون ولوي سيزار بنظراتهما، وكانا قد أتما ارتداء ملابسهما لتوهما - ثم التفتا صوب شقيقتهما دون تحرز. وأجابا معًا، كما اعتاد أن يفعلا عندما يكون الأمر متعلقًا بمسائل خطيرة:

- بالضبط... لقد تكلمنا في ذلك أمس مساء. وأعدنا الكلام فيه هذا الصباح! نود أن ترحل جان.

ولمع بريق في عيني ديزي السوداءوين، وقالت وهي تتناول مكنسة قديمة من دولاب الحائط:

- أعدكما بأنها سترحل.

حتى المساء ظلت ديزي تنسج خيوطها في جميع أنحاء القصر، وتسير بجانبها، وتتأكد من صلابتها وتحبكها وتضاعفها. وبدأت بالنسبة لصديقتها الطبيعية، لطيفة بلا تكلف. وأبدت لوالدها الحب والود، وتظاهرت بعدم رؤية النظرات والبسمات الحانية المتبادلة أحيانًا بين جان وبينه.

ورأت أن الحديث مع جونتريان عديم الفائدة، فاكتفت بأن أظهرت له في مناسبتين أو ثلاث بحركات بسيطة وصغيرة ودأً رزيناً، كان يبدو أنه يتأثر له.

لم يكن قد ترك عمله في بناء القنوات، فكانت ديزي تظهر إعجابها بهذا. ولكنه لم يعد يشدو كما كان يفعل من قبل، فلا يسمع المرء الآن عند القنوات سوى ضجة آلاته المتثاقلة.

وفي المساء، وقبل موعد تناول العشاء، ربت ديزي نفسها على أن تكون في طريق الكاهن:

- إن لديّ ما أقوله لك يا فيليب.

وقال الكاهن:

- إنني صاعد إلى حجرتي، ويمكنك الحضور إذا أردت.

ورفضت ديزي المقعد الذي قدمه لها شقيقها قائلة:

- لن أمكث طويلاً فيجب ألا يبدو علينا أننا نتداول، وألاً تتأخر

عن موعد العشاء. هل رأيت الذي يجري بين جان وأبي، يا فيليب؟ وما رأيك فيه؟

وأظهر الكاهن فجأة سأمته الشديدة:

- لست أدري. ولكنني أرى أنه يجب أن يمنع التوأم من الإكثار من

الكلام بلا تمييز أو تعقل.

- وأنت أنتوي أن تفعل شيئاً، أم أنك تفضل أن تترك فتاة ماهرة

متلعبة تستحوذ على ثقة وحب أبي على مرأى من عينيك؟

- إنها ليست متلعبة، كما أنني لا أرى إنها ماهرة.

- سترى جيداً يا فيليب... عندما تلقي قناعها!

وقال الكاهن بسخرية وبرود:

- ستكون هذه خسارة كبرى؛ لأن القناع جميل.

وابتسمت له ديزي بلطف، ولم تستلم لليأس مطلقاً:

- لا تمزح يا فيليب أرجوك! إن الآخرين يرون رأيي. هل تظن في

قرارة نفسك وضميرك أن من حقك أن تتجاهل هذه المسألة؟ هل يمكن

أن تترك مغامرة بمثل هذا القبح تنمو وبهذه الطريقة أماناً؟

قال الأب:

- إنني لا أرى أن المغامرة قبيحة.

- ولكنك راهب؟

- أرجوك!

لقد أمعنت النظر فيه وهي مذهولة مكلومة. لم يكن يبدو على وجه

الكاهن البادي العظام أي آثار للمودة تجاهها.

- هيا يا فيليب يجب أن تجابه الأمور، إنك لا تستطيع مهما كان أن

توافق في صمت على أن تكون جان عشيقة لأبي!

- إنها ليست عشيقته. ولو ساورني الشك لحظة في ذلك، لتدخلت

دون تردد. ولكنني أوافقك على أنها ربما أصبحت زوجته.

- زوجته؟

وارتفع صوت ديزي إلى أقصى درجاته حدة، وما لبثت أن هدأت
وتكملت معتدلة:

- إنني كنت أتساءل فقط عمَّ إذا كان من الممكن أن تحدث أبي
حديثاً جدياً؟

- لكي أقول له ماذا؟

وترافعت ديزي مرة أخرى، وسلمت أخرى، وشرحت: إن فيليب
هو وحده الذي يستطيع أن يخاطب والده، وأن يوحى إليه مثلاً بتجربة
انفصال لكي يكون الأمر واضحاً ولتلافي أمور لا يمكن إصلاحها.
ولم يجب الكاهن هذه المرة بشيء.

* * *

كان فيليب مندفعاً، فقد أقلقته رغماً عنه إحياءات ديزي التي لم يرد
أن يخوض في البواعث الحقيقية التي تدفعها إليها، وفكر في نفسه «من
الواجب أن أتدخل بسرعة أو ألاّ أتدخل مطلقاً»، ونصحته غريزته بشدة
بالأفعال شيئاً، ولكنه خشي من أن يصبح جباناً إن هو ظل حذراً، فاختار
وقلبه مليء بالألم الطريق الأكثر وعورة.

لقد وجد والده يغير ملابسه. كان المركيز على وشك الانتهاء
من عقد رباط عنقه الأسود (بابيون) قبيل أن يرتدي سترته السموكنج
القديمة التي اعتاد أن يلبسها في المساء.

واستقبل الكاهن بفتور:

- ماذا هناك من جديد؟ إنك ترى جيداً أنني أرتدي ملابس.

- لا شيء يا أبي، كنت أريد فقط أن أعرف لو كان من الممكن أن
نقوم بنزهة جماعية طويلة هذا المساء؟

- كلا يا شيخى، بالتأكيد لا، فإنني متعب.

- نعم بكل تأكيد. لقد كنت أسألك هذا؛ لأننا صُدمنا بعض الشيء
أمس مساء عندما رأيناك تمضي هكذا في طريقك.

- إنني لم أكن وحيداً يا فيليب.

- كلا بالضبط، لم تكن وحيداً.

- وهل هذا شيء يستحق الكلام؟

- ربما.

ورفع السيد دي مويران رأسه - وكان يتتعل خفيه العظيمين.

- يجب إذن أن أذكرك بأنه ليس من حقك أن تحكم على تصرفاتي.

- إنك يجب ألا تأخذ الأمور على هذه الصورة.

- وأن أطلب منك أن تحترمني كباقي إخوتك.

- إنني متفق معك في هذا. وإنك لتخطئ إذا ما وضعت احترامي

لك موضع الشك، كل ما هنالك أنني لا أستطيع السكوت. افهمني.

إن رجل الدين لا يمكن أن يقسم حياته إلى شطرين يحيد أحدهما عن

مقتضيات مثله الروحي الأعلى. وبما أنني موجود هنا، فإنني مضطر لأن

أقول لك إن الأمور لا يمكن أن تسير طويلاً على ما تسير عليه الآن. أبي

ماذا ستفعل بجان؟

- يجب أن يحذر الإنسان دائماً القساوسة.

واحمر جداً وجه الكاهن الكبير، ثم هز رأسه:

- لتترك الحديث عن شخصي يا أبي، فهناك أبنائك الآخرون!

وابتسم السيد دي موبران ابتسامة غريبة، وسأله:

- إن هذا يضايقهم، أليس كذلك؟

لقد كان يتكلم بلهجة ساخرة مأكرة أدهشت الكاهن:

- إنك يجب ألا تحقد عليهم! وأنا أعتذر من أن أقول لك هذا.

فإنك لم تستعد بعد صحتك. وهذه الأزمة القلبية مضافة إلى هذه...

- إلى هذه المغامرة المذهلة يا فيليب؟ لقد رأيت غيرها! إنني رجل

هرم من الصعب تجريحي. ومع ذلك فإنه مما يؤلمني حقيقة ألا أظهر شيئاً من المرح.

وارتفعت حواجب المركز الكثة:

- أعترف إن هذا هو دوري أنا الكاهن!

فقال الكاهن:

- إنني لست أتعرفك الآن.

كان السيد دي موبران جالساً فوق سريره، يضرب في استهتار خفيه

أحدهما بالآخر.

- لقد كنت تقول لي على ما أظن أن «الآخرين» ليسوا مغتبطين.

لاحظ أن أرتوس وجد كيف يحدثني في هذا الموضوع برفق. ادل لي أنت بوجهة نظرك الشخصية يا شيخي.

- بكل تأكيد.. سأدلي لك بكل ما تريد.. هم يتساءلون قبل كل شيء ماذا تكون جان بالتحديد بالنسبة لك؟ لا أحد يتكلم في القصر إلا عن هذا سواء شئت أم لم تشأ! ولا تقل لي إن أولادك فضوليون، إنك أنت الذي جعلت من الأسرة كتلة متحدة وثقيلة ككرة من حديد.

- أكمل... أكمل.

- إنك لا تستطيع أمام أولادك الذين من صلبك أن تعبت مع جان على أنني لا أعتقد أنك تعبت الآن. وإذا كنت قد أصابتك ضربة حب صاعقة.

- نعم؟

- حسنًا إذن ستتزوج من الآنسة جان ديبريه. وفي هذه الحالة سيظن أولادك دون أن يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من ذلك، أنك تكيل بكيل لديزي وبآخر لشخصك أنت.

- وأنت يا فيليب؟

- أنا لا حساب لي.

وترك المركيز بروده المصطنع:

- سيكون لديهم الجرأة إذن في أن يقارنوا شخصًا فاسد الأخلاق يتحلل اسمًا مثيرًا للسخرية بفتاة شابة؟

وتنهذ الكاهن:

- إنني أخشى أن تدقَّ مقارناتك هذه على إفهامهم.

- تدق على أفهامهم؟ هل فقدت صوابك؟

- كلا.

وبدا الحزن فجأة على وجه الكاهن.

- أبي، إنني لأتساءل عمَّ إذا كنت قد فكرت في جونتران بالنسبة

لهذه المسألة إنه يحب جان.

- ليس حبًّا جديدًا.

- بل كل الجدية وا أسفاه! إنك لا تستطيع في ذلك شيئًا، والحياة

ليست سهلة، ولكن انظر إنني إذا سمحت لنفسي أن أقترح عليك شيئًا.

فإنني أنصحك أن تبعد جان لبعض الوقت. وهكذا يستطيع الجميع أن يفكروا في الأمر مليًا.

- اتركني وشأني أيها الكاهن!

ورأى فيليب الجذوة القاسية الساخرة تبدو في عيني والده.

- هيا، اتركني وشأني.

وقال الكاهن بصوته الثابت الحزين:

- نعم، سأرحل. ولكن السؤال الذي ألقيته عليك سيبقى بغير

جواب.

وبمجرد أن رحل، نزع السيد دي موبران التعبير الساخر المتحدي

عن نفسه كما ينزع القناع. وظل ساكنًا بضع لحظات، ناظرًا بعينه إلى

الحائط، وقد بدت على وجهه الشخوذة.

الفصل العشرون

وتوالت الأيام بعد ذلك ببطء، مشحونة بفترات صمت ناري متوقد، شديد الثقل مثل الساعات التي تسبق العاصفة.

كانت زرقاء سماء الصيف تلك تتسم بنوع من الجمود والهندسة كما لو كانت وليدة حسبة شاقة. وكانت الأشجار تنطوي تحت أغصانها وترقد كما يرقد الطائر ورأسه تحت جناحه.

وبين وداعة شهر أغسطس ذات العظمة والجلال، كانت بورجونيا تمتد في تكاسل كما يتشاءب الحيوان السعيد، معرضة للشمس شعور غاباتها، وجلود حصيدها وحزمها الجافة، وسنابلها الناضجة، وكرومها، ونظرة غدرانها النضرة.

ومع هذا لم تكن جان ديرييه تحس بالسعادة.

بعد الأيام الهنيئة الأولى لحبها، أصبحت تشعر بالمجافاة المقنعة، ولا تلقى إلا الابتسامات الجامدة والصمت، ولما كانت شديدة الحساسية بالتيارات التي حولها، فقد اصطدمت بقسوة بما يحيطها من

حقد وضغينة، وبدأ سرورها يتلاشى شيئاً فشيئاً تحت وطأة هذا البغض القوي وما شابهه من صفات.

وعلى الرغم من ذلك، ظلت مؤمنة بإمكانياتها، «لا بد أن أجعلهم يشعرون بالحب نحوي، لا بد أن أكسبهم».

لم تكن ترى التركيز على انفراد إلا نادراً. ففي كل مساء كان يصحبها في نزهة قصيرة، وكل مساء كانت تأتي لتلقاه في حجرته قبل أن ينام، وكان يستبقها أحياناً ربع ساعة لا أكثر مطلقاً، ثم يطردها بلطف. كانت هذه الدقائق كافية بالنسبة لجان؛ لكي تتأكد من حبه لها أكثر مما تخيله في أحلامها.

إن السيد دي موبران يبدي لها رعايته واهتمامه وأمارات حنانه، ما لم تكن تأمله من هذا الرجل القاسي العنيف، من هذا السيد، ولقد كانت تهزها هذه الأشياء حتى أعماقها لكونها صادرة منه.

وعندما كان يحتويها بين ذراعيه لم تكن تشعر بأي خوف منه، أي خوف من الرغبة الحسية التي طالما رأتها تلمع في عينيه السوداوين العنيدتين. كان السرور يطبق عليها عندما تتبين أنها لم تمنح نفسها لمخلوق، وإنما لم تمنحها إلا له وحده.. ولكن متى؟ في الساعة التي يختارها هو. إنها تقدم له نفسها كاملة، وبرغبة مشبوبة لا يستطيع تجاهلها. إنها إذ تشعر أنه سكران بخمرتها، لا تحفل بوجود أي شيء عدا ذلك.

وتعرف كذلك أنه يخشى نفسه وشهوته. فهو أحياناً يستبقها على

مسافة منه ويبعدها. ولكن دون خجل أو رهبة، تبحث هي عن شفّيته وتستند إليه بكل ثقلها.

إنها لم تترك شهوتها الخاصة تطيح بها، فهي لم تكن تفعل إلا ما تريد، ولكنها في أعماق حالات اضطرابها، لم تكن تفكر مطلقاً إلا فيما تستطيع أن تمنحه من متعة وسرور.

لم تكف عن كبريائها، إنها كبرياء ساذجة، بدائية تقريباً، تتحد مع قوى أخرى غامضة تحت تصرفها. وعندما كانت ترى أن جون دي موبران لا يزال يحيا، كانت تقول لنفسها: «إنني أملكه وأحتفظ به». إنها لم تفكر مطلقاً في الإشفاق على جونتران، وإنما فتحت بكليتها إلى الرجل الذي اختارته وفي قرارة نفسها، في الجزء المعتم الذي لا ينفذ إليه أحد، احتفظت بإرادة قوية صريحة للعناية به: «إنني ولدت لأمنح الشفاء».

كانت تعيش هكذا، محومة في دائرة حبها كالنجمة المضبوطة وسط السماء وسط سماء لا يوجد فيها سوى إرادة المخلوقات وحقهم في الحب «دون ابتداع إله»؛ ذلك أن الله بالنسبة لها لم يكن يعني شيئاً. ولقد حاول السيد دي موبران بإيجاز، وفي استحياء، أن يقدم لها المسيح في صور إنسان، في الثور البديع الشجي للحب الإلهي طيف قاتم أمام خلفية ذهبية يمضي حاملاً الصليب. لقد قال لها موبران القليل الذي يستطيع أن يقوله في ذلك، ولكن جان تخلصت منه بوضوح قائلة:

- إنني لا أؤمن بذلك يا جون، ومن العبث أن تكلمني فيه، إنني سعيدة إذ لا أؤمن بشيء سواك. كن إذن نزيهاً مثلي ولا تحاول أن

تهديني إلى الإيمان الصحيح كما يقول فيليب.

فخضع لرغبتها.

وفي خلال أحاديثهما، حرصت جان على أن تتجنب أن تسأله من جديد الأسئلة التي كان يخشاها، فلم تستفسر عن النبالة، ولا عن المُثُل الأرستقراطية، واكتفت بالتقاط بعض الملاحظات الراجحة القصيرة التي كانت تفلت منه مصادفة.

إن السادة الحقيقيين هم الرجال الذين يميزون في المهن التي يختارها لهم القدر بين الصالح العام والصالح الخاص.

وإذْناً ليست الأهمية لعامة الشعب، ولكنها للسادة. وعندما يكف بلد عن فهم هذه الحقيقة، فإن هذا البلد يندثر!

إن جان المأخوذة تظن نفسها غير قادرة على تقدير ما هنالك من صواب ومن خطأ. وهي تعجب بشيء واحد فقط في موبران لم تجده في شخص سواه. الإيمان المطلق بمبادئه القيادية، ودينه، ومثله العليا، وبنظراته للحياة. هو نفسه لم يكن يبدو أنه يستمد من هذه الأشياء كبرياء، ولكنه كان يغترف منها قوة خارقة كانت امتداداً طبيعياً لما لاسمه من هيبة.

وذات يوم أثناء لومها له على قسوته، أعاد على مسمعها فوراً وهو يتسم ابتسامة خبيثة ما كان قد قاله الكاهن: «نحن أشد الناس صلابة ومقاومة في هذا العالم».

ورمقته دون أن تتكلم، وصدقت ما قاله.

والآن راحت بهجتها تتفتت، فقد حل الحقد عليها عند أولاد
المركز محل التجاهل، محل ما قرروه سلفاً من أن تكون معاملتها بأدب،
لكنه أدب جاف خال من الشعور، وأن تكون الأحاديث معها فارغة تافهة
حتى التوأم أيضاً كانا يقومان بنفس الدور الذي يقوم به أشقاؤهما الكبار،
وكانت عبارة واحدة صريحة ولو مؤلمة كافية أن تهدئ روع ديزي، وأن
تترك في نفسها غرائز الملاك المناضل، ولكن الآخرين اختفوا وراء
تلك الأشياء بظرفهم الخالي من الرحمة أو الشفقة. وبدأ لجان أنها ترى
كل هذه الوجوه التي كانت فيما مضى شديدة القرب منها، تراها الآن من
خلال سور صلب من الزجاج.

وأخذت ظلال القصر تثقل، فتغرق في الصباح نصف ساعة
الشرف، وتجتاح القنوات عند قدوم المساء، وتمتد داخل الحجرة بعيداً
جداً فيما وراء الخنادق، راسمة فوق العشب الأخضر زخرفة السقوف
القديمة. والشرفات البارزة. كانت هذه الظلال تثقل على عائلة موبران
ليلاً ونهاراً: إنها انعكاس لصرامة السادة العليا التي تضحي بالحاضر من
أجل الماضي، ولذا فإن جان التي كانت غريزة حب البقاء فيها أصيلة
مؤكدة - كانت تكره القصر وظلاله وقنواته التي تقتني في طبيعتها كبرياء
وعناد القرون المتتابة. إنها تعرف كذلك أن هناك قوة في نصف الدائرة
هذه الحجرية، في هذه الأبراج، في هذه الخنادق المخضرة - سحر
خادع يرزح تحت سقفه الأحياء والأموات.

* * *

كان السيد دي موبران في قلق مبهم، فهو يعاني من حرب الأعصاب

هذه. وبقي عن طيب خاطر فوق سريريه، ينعس تارة، ويفكر تارة أخرى في سكون حجرته التي تغمر ستائرهما السميكة الجو بظلال خافتة... لقد كان كليلاً، فإن حرارة شهر أغسطس تضيق أنفاسه، وأحياناً يشعر بألم في قلبه.

كان يستعيد في ذاكرته كلمة كلمة تقريباً الحديث الذي دار بينه وبين ابنه الأكبر أخيراً. لقد هجم التركي دفعة واحدة، متسلحاً بصراحة رجل الأعمال الجافة الذي يرى نفسه في حل من استعمالها:

- أبي، إنني لن أحاورك. لا أحد الآن في القصر يجهل تطورات علاقتك بجان.

ولقد تركناك مدة، والآن كل شيء يجعلنا نعتقد أنك تنوي الزواج بها. فهل أستطيع أن أسألك ما حقيقة مشروعاتك؟

- كلا.

- إنك لا تريد إذن أن تتكلم في هذا الموضوع بهدوء كأصدقاء؟

- مرة أخرى كلا. قبل أن أكون صديقاً لك، فإنني أبوك، وإنني أنوي أن أظل سيد بيتي. وهذا كل ما هنالك.

- حسناً. إذا كنت تأخذ الأمور هكذا يا أبي، فأحب أن أقول لك بصراحة إن أبناءك سيضيعون بزواجك من جان. فكر فينا قليلاً، مهما كان الأمر. حاول مثلاً أن تتخيل العلاقات المقبلة بين جونتران و... زوجة أبيه. أما بالنسبة لديزي؛ فيا أبي إنك لا تستطيع من جانبك أن تحرق القوانين التي تطبقها بكل هذه الشدة على الآخرين. نحن، نحن

جميعاً؟ إنك تعلم جيداً أننا نشأنا بما فيه الكفاية على فكرة اعتياد موبران. ومن ثم فستكون من بعدك مَنْ تُدعى جان ديرييه هي التي تتولى أمرها؟

وظل التركي يتكلم، وأذكى صمت أبيه صوته، فبدأ قاسياً متهوراً. وتركه المركيز يقول ما يريد، ثم اكتفى بأن طلب إليه في استهانة الانصراف. لكن الجراح التي أحدثتها كلماته لم تلتئم.

ومنذ ذلك الحين طلب كل واحد من أولاده الحديث إليه، فلم يسمح إلا بحديث واحد مع فيليب، بشرط ألا يكون بصدد جان (وفي الوقت نفسه كان فيليب يتحاشى إخوته وأخته، ممضياً أصفى أيامه الأخيرة في أعماق المتنزه أو فوق الغدير).

وفي الصباح كان السيد دي موبران يخرج وحيداً في نزعات طويلة على صهوة جواد، ويعود منها شاحباً بعض الشيء، مكدوداً - ثم يصعد أحياناً للاستلقاء في حجرته، وحينئذ لم يترك أحداً يدخل، وعلى الأخص جان التي لم تكن تجرؤ حتى على طرق بابه.

كانت تنتظر موعد نزهتها اليومية معه بصبر كصبر القديسات.

لقد تركت أسرة لوانتران موبران: هذان العجوزان المتنقلان الظريفان اللذان سيظلان أبد الدهر ينعمان بالشباب. وكانت صحة مدام دي لاسيرنيير في تحسن؛ فهي تنهض قليلاً بعد الظهيرة، ولم تبد السيدة العجوز التي حادثتها جان طويلاً ضغينة أو حقداً نحوها، ولكنها بالتأكيد كانت تتهرب منها. إنها لم ترد أن تشترك في خصومة، كانت تبدو لها غريبة أثناء استعادتها قطرة قطرة آخر قواها. لقد كانت شاحبة نحيلة

خفيفة الوزن، إنها عائدة من آفاق الموت - وصوتها نفسه كان يحتفظ
من تلك الآفاق بشيء من الرهف كصدى بعيد فوق بحيرة متجمدة.

أما الخالة كوريزاند فقد عبرت بقدر المستطاع وبكل طريقة عن
رغبتها التامة في أن تبقى على الحياد، ومع ذلك فقد انسأب ذات مساء
من بين شفتيها رأي متواضع عندما كانت جان تساعد في قطف الورد:
- كوني على حذر جدًا مما ستفعلينه يا صديقتي الصغيرة، إن جون
دي موبران من أولئك الرجال الذين ينتهي بهم الأمر دائمًا إلى الخضوع
لأسرتهم.

ولقد حاولت جان دون جدوى أن تحصل منها على تعليق أو
نصائح، ولكن السيدة العجوز أفلتت منها بلطف وبغير شفقة، كما
يفلت بالون في الهواء.

* * *

وجدت جان ديبيره نفسها في وحدة عجيبة.

ومرت أيام أخرى في جو عاصف لا تومض به بروق، خيم على
السيد دي موبران.

وذاث صباح، وجان تزرع ساحة الشرف تحت نوافذ القصر،
فُوجئت بحديث لم تكن تتوقعه. في بادئ الأمر - صوت ديزي الشديد
الارتفاع بعض الشيء:

- إنها متسمة لا تريد أن تبرح.

وتكلم جونتران بدوره:

- إذا بقيت هي، فسأرحل أنا!

وقال التركي بصوت هادئ:

- أما أنا، فسأسافر على أي حال ما دامت أعمالي ليست هنا. يجب أن أعترف أنني غير قادر على الارتياح في جان، ولا على أن أعتقد أنها خليقة بارتكاب ما هو دنيء. ولكنها لن تكون في مكانها المناسب في موبران، وهذا شيء يزداد كل يوم وضوحًا! وعلى الأخص أنها بدأت بداية سيئة معكم، سيعاني منها أبي بطريقة مفرعة، بل إنه يعاني منها الآن. ونحن بهذا سنرغمه على الاختيار.

وشعرت جان بخجل؛ لأنها أبطأت غريزًا خطوها؛ لكي تستمتع جيدًا. وفرت إلى حجرتها، وحاولت وهي تقاوم دموعها أن تفكر باتزان. كانت آخر كلمات التركي بصوته الهادئ تتعقبها.

وفكرت جان وهي في دوامة من خواطرها: «إنهم يطاردونني في غير كلل، دون أن يدركوا أن الضربات التي يوجهونها إليّ تصيب أباهم، أو على الأصح هم يدركون ذلك... إني واثقة من أنهم يدركون ذلك، وأن لا شيء يوقفهم!». وحاولت بكل قواها أن تستحضر في مخيلتها وجه السيد دي موبران، وملامحه المجعدة ولونه الشاحب المقلق، «غداً سأرحل، ولكنه في حاجة إليّ أنا! إنهم سيقتلونه».

ودارت أمام عينيها وجوده ديزي وإخوتها وجون دي موبران نفسه: «إنهم يضحون بأنفسهم جميعًا في سبيل شيء لم يعد له وجود، ليس له وجود!».

ونَهَضَتْ، وهي غارقة في ألمها، وأخذت تلف حجرتها وهي تستند إلى الحوائط، ثم عَنَ لها أن تهرب كالحيوان الجريح.

وهبطت السلم أربعًا أربعًا، وخرجت إلى ساحة الشرف التي بهر عينيها بياضها الناصع في ضوء الشمس، وأخذت تجري.

وأجبرتها قوة ما على الالتفات، فرأت القصر من شمس وظلال، والأبراج الضخمة، والواجهة ذات النوافذ وذراعي الحجر اللذين كانا ممتدين إلى الأمام، كما لو كانا يريدان الإمساك بشيء.

* * *

كان السيد موبران في حجرته يقوم بعمل حساباته. لقد فرغ لتوه من تنظيم عملية بيع حصانيه أرتوس وأرميتز، وزوجًا رائعًا من بنادق «بيردي»، الشيء الذي سيسمح بترميم قلعة برنهو وأبواب القنوات وأرضية قاعة الاستقبال.

وكان قد كلف بول بأن يسلم بنفسه الحصانين اللذين كان سائس السيد دي رشيو سيحضر بعد الظهر لأخذهما. إن المركيز لن يشهد هذا الرحيل، وفي الأيام التالية سيحاول ألا يتجول حول الحظائر الفارغة.

إنه لم يكن يريد أن يفكر أن يقيس الحاضر أو يزن المستقبل. ولو تركه الجميع، فإن القصر سيكون شاهده الوحيد. وتمتم السيد دي موبران وهو يغلق دفتر حساباته:

- «شاهدي أمام من؟».

* * *

وانطلقت جان من جديد صوب المتنزه وهي تجري.
كانت في عينيها صورة الدار العتيقة النهمة، تحرسها أبراج موغلة
في القدم، وأولاد بغير شفقة أو رحمة.
وكانت أشجار الغابات تفتح آبارًا من الظلال تجري فيها أشعة
الشمس كالينبوع وساد الجو رائحة الزرع والعفن والأوراق الحالمة
والحيوانات الناعسة، وألقت جان بنفسها على الأرض، وفمها ويداها في
العشب الدافئ، وانفجرت أخيرًا باكية بشدة، لدرجة أن أولاد البستاني
الذين كانوا يلعبون في نهاية أحد الممرات وقفوا برهةً يتسمعون.
ليبورديوليو سنة ١٩٥٤.

(تَمَّت)

